مود أنكاوا

كيلومتر صفر

مكتبة

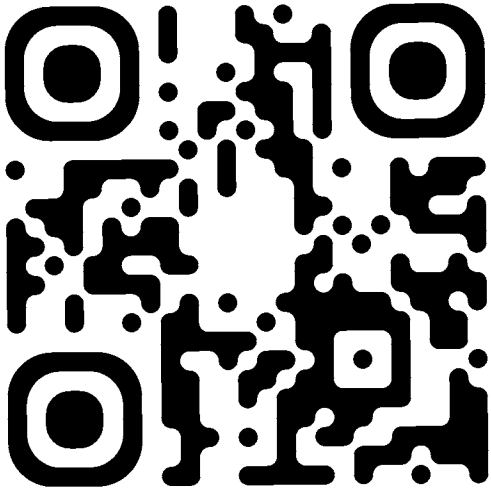
رواية



طريق السعادة

المركز الثقافي العربي

المؤلفة التي ألهمت أكثر من مليوني قارئ!



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مود أنكاوا

كيلومتر صفر

طريقُ السعادة

الكتاب
كيلومتر صفر
طريقُ السعادة

تأليف
مود أنكاوا

ترجمة
مصطفى الورياغلي

مراجعة
هيئة التحرير
في المركز الثقافي العربي

الطبعة
الأولى، 2023
الإيداع القانوني:
2023MO2471
الترقيم الدولي:
ISBN: 978-9920-657-64-8
جميع الحقوق محفوظة
© المركز الثقافي العربي
الناشر
المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء ـ المغرب
ص.ب: 4006 (سيدنا)
42 الشارع الملكي (الأحباس)
هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651
فاكس: 212+ 522 305726
Email: markaz.casablanca@gmail.com

العنوان الأصلي للرواية:

Maud Ankaoua
Kilomètre zéro
Le chemin du bonheur

© 2017, Éditions Eyrolles,
Paris, France
All rights reserved

مكتبة
t.me/soramnqraa

مود أنكاوا

مكتبة
t.me/soramnqraa

كيلومتر صفر
طريقُ السعادة

رواية

ترجمة: مصطفى الورياغلي

المركز الثقافي العربي

إليكم جميعاً يا من تُعلِّموني كلَّ يوم،
إليك أيها القارئ العزيز، يا من تُمسكُ هذا الكتابَ بين يديك،
أهدي هذا القليلَ الذي تعلَّمتُهُ في خمسة وأربعين عاماً،
راجيةً أن تصنع كلمةٌ، أو جملةٌ، من حياتكَ لحظةً فُضلى.
رحلة ممتعة.

فهرس

أحسرةٌ أم نَدَمٌ؟ 9
بعينَي طفلٍ 31
كتابة أو صورة 49
حُسن حظٍّ أو سوءُ حظٍّ 57
رفضُ الأسبقية 71
روحٌ إيجابيةٌ 85
معلَّقٌ 101
غضبي العزيز 117
بطاقة تعريف 137
حقيقة مشوّهة 145
طاقةٌ جميلةٌ 161
خيار واحد: بابان اثنان 169
الوحدة المطلقة 189
ابتداءً من الآن... 207
كيلومتر صفر 221

الحدس 241
كوكتيل 257
المرآة 269
منطقة ظلٍّ 283
خيانة 297
الغفران 315
الإقلاع 325
انطلاقة جديدة 329
خاتمة 341
وعلى سبيل الختام... 343
شكر 347

أحسرةٌ أم نَدَمٌ؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ما يحتاجه المرءُ من قوة الطبع ليفهم خصمَهُ، أكبر مما يحتاجه ليرفضَهُ».

سيباستيان بروفو

ناديتُ على سيارة أجرة وعبرتُ باريس إلى غاية البانثيون. لم أقصد ذلك الحيَّ منذ خمسة أعوام، عند آخر عمل لي في المدرسة العليا للأساتذة. كنَّا، بسبب قلة إمكانياتنا، اخترنا أن نمارس التأثير المباشر في أفضل مؤسسات المهندسين، آملين أن نستقطبَ بذلك عدداً من الموهوبين للعمل في المصنع الذي أنشأناهُ: مشروع عباقرة حيث كنتُ أقضي كلَّ ساعات صحوتي، منذ ثماني سنوات، في انتظار حدوث المعجزة. وكانت وظائفي، باعتباري مديرة مالية، سرعان ما توسَّعتْ: مديرة قانونية، مديرة الموارد البشرية، مديرة للفرع، وكنتُ أتعلَّمُ كلَّ ما أستطيع أن أتعلَّمه، إلى درجة الاختناق.

لم يكن أمامي سوى القليل من الوقت لأُكمِلَ جميع تلك الملفّات وأستمتع أخيراً ببضعة أيام من العطلة. ومثل كلِّ يوم خميس، غادرتُ المكتبَ في وقت مبكِّر لأذهب إلى قاعة الرياضة. في برنامجي تسعون دقيقة من آلة الجري الرياضية... قضيتُ نصفها

أحلُمُ، باديةَ السَّرحان أمامَ الأشخاص الذين كانوا يتعاقبون على مختلف الأجهزة. ثم تذكَّرتُ أنه لا يزالُ يتوجب عليَّ أن أُؤكِّدَ مشترياتي الأخيرة على الإنترنت.

ما هو الأمر المستعجل الذي جعل رومان تُلِحُّ كلَّ هذا الإلحاح؟

لم يردني أيُّ خبر عنها منذ عام.

«مايبل، يجبُ أن أتحدَّثَ إليك، التحقي بي في 26 شارع أُولْمْ، غداً في الساعة العاشرة.

- ما الذي يجري؟ ألا يمكن للأمر أن ينتظر نهايةَ الأسبوع؟

- لا، الأمر مستعجل حقاً. تعاليْ!»، كرّرتْ بنبرة حادة. ثم ختمتْ بصوت ناعم، كما كانت تتقن تصنُّعَهُ، قبل أن تُقفل الخطَّ ودون أن تُنصتَ لحِجاجي.

استبدَّتْ بي الدهشةُ لحظةً، ثم حاولتُ أن أتصل بها من جديد، غير أني لم أجد من جواب سوى مجيبها الآلي، فانتهى بي الأمرُ إلى أن بعثتُ إليها رسالة نصية: «**يصعبُ عليَّ الأمرُ غداً. فطور الأحد عند أنجلينا؟**». اعتدنا أن نحكي حياتنا إحدانا للأخرى ونحن نتناول فطوراً متأخِّراً في صالون الشاي الشهير ذاك تحت أروقة التويلري: أمورنا المستعجلة، وخيباتنا، وغراميّاتنا، وخصوصاً غراميّاتنا! لم تتأخر إجابتُها: «**أنا بحاجة إلى الحديث إليكِ، أعتمدُ عليكِ، صديقتي!**».

لم تكن رومان من الصنف الذي يطلب المساعدةَ. كانت تلك اللبنانية ذات الأربعة وثلاثين ربيعاً تفرضُ هيبتَها بقامتها ووضعها. الحياةُ لم تدلّلها، لكن كلَّ صعوبة جعلتْها أكثر قوة، مثلها مثل كسر يتصلَّبُ في موضع الجرح.

كنا قد تعارفنا في مدرسة العلوم السياسية، واختارت في الأخير أن تُصبح طبيبة. كانت تعرف كلَّ شيء عنّي وأخبرتني بالكثير عنها؛ كنَّا لا نفترق. كانت جميع المواضيع مباحةً بيننا، باستثناء موضوع طفولتها في بيروت الذي لم تثرهُ في حديثها سوى مرة واحدة ذات ليلة في أثناء إحدى مغامرات هروبنا السِّريّة. تحدَّثت عن أحداث بدَتْ لي أنها تنتمي إلى قرن آخر: الحرب، والقنابل، والرُّعب... ثم لم تعد إلى الحديث عن ماضيها قطُّ. كان يبهرني ما يصدر عنها من قوة وشجاعة. تزوّجتْ رومان صغيرةً، مراعاةً للتقاليد على الأرجح. أنجبتْ ثلاث مرات متتالية، ثم انهمكتْ في العمل كأنها تسعى إلى أن تستدركَ الزمن الضائع في تعلُّم الضرورات الثقافية. واستطاعت أن تستدركَ الزمن! نجحت، في خمسة أعوام، في أن تحصل على منصب ذي مسؤولية عليا في مجموعةٍ صيدليةٍ عالميةٍ شهيرة. كنتُ لا أراها إلا قليلاً، غير أنَّ الجرائد كانت تحمل إليَّ أخبارَها. وبادَرَتْ إلى دعوتي في العديد من المرات لتناول الفطور في الأشهر الأخيرة، غير أني كنتُ أعتذر عنها، إذ كنتُ أنا أيضاً أعبرُ فترة عمل كثيفة. لم يعد لي ما أحتجُّ به، فاستسلمتُ للأمر: **«أوكي، رومان، سأكون في الموعد»**.

كانت حركةُ السير سالكةً. في أقلّ من عشرين دقيقة، تجاوزَت سيارةُ الأجرة الكونسرفاتوار الوطني للفنون والصنائع وأنزلتْني عند زاوية شارعَيْ كلود-برنار وأُولْمْ. كنتُ متقدِّمة بربع ساعة على الموعد. اغتنمتُ ذلك لتناول قهوة في حانة أستعيدُ بها هدوئي بعد تلك الليلة المضطربة التي أمضيتُها في وضع الفرضيات حول هذا اللقاء الملغز.

كنتُ الزبونة الوحيدة، عدا رجل مستند إلى المشرب، في يده

كأس نبيذ أبيض، ويتفوَّهُ بنظريات حول عدم قدرة رئيسنا على إصلاح الوضع المتأزِّم. وكان نادلٌ شابٌّ، طويلٌ ويابسُ العود، بزيٍّ تقليديٍّ، يُنصِتُ إليه باهتمام غريب. وكانت الروائح التي يُصدرها دورقُ القهوة، ممزوجةً بروائح المطبخ، تُفسِد طبقَ اليوم: حساء يوم الخميس، مثلما تعلن السبورةُ، مُعَطَّرة بأبخرة منظِّف الأرضية المبلَّلة. جلب لي النادلُ ما طلبتهُ دون تأخُّر، ووضع الفاتورة على الطاولة واستأنفَ نقاشَهُ الشغوفَ مع زبون المشرَب.

انغمستُ في أفكاري من جديد. كانت لهجةُ رومان غير معتادة. وهذا الموعد الغريبُ في صباحِ وسطَ الأسبوع، ليس من عاداتها. ما الأمر المهمُّ الذي تريد أن تُحدِّثني عنه؟ ولماذا اليوم؟

التاسعة وخمس وخمسون دقيقة. خرجتُ من الحانة وعبرتُ الشارعَ، وأنا أدوس الخريفَ بقدميَّ. كانت أوراقُ الأشجار المتطايرة تتحرَّكُ عبر رقصة فالسْ من ثلاث حركات: تُبعثِرُها قدمي اليمنى، وتواصِلُ قدمي اليسرى الرقصةَ، ثم تُعيدُها الريحُ إليَّ في إعصار متواصل. وعلى الرغم من السماء الزرقاء، كانت برودة الصباح لا تخدعنا فيما يتعلق بالموسم.

صعدتُ شارع أولْمْ وتوقَّفتُ أمامَ مدخل من مداخل المدرسة العليا للأساتذة. عندما كنتُ لا أزالُ طالبةً، نجحتُ في الحصول على بطاقةِ ولوجٍ بفضل حبيبٍ ينتمي إلى المدرسة، وهو الأمرُ الذي مكَّننا من أن نستفيد، مدَّةَ سنة، من الأرشيفات، والمخطوطات غير المنشورة، ومن لقاءات دافئة! بدت لي دعوة رومان للقاء في هذا المكان أمراً مثيراً للدهشة، فنحن لم نعد إليه معاً قطُّ.

كانت ذكرياتي المحفوظةُ تتعاقبُ عليَّ، أمامَ البوّابة الحديديّة السوداء، فإذا بنظري يقع على الرقم: «45». إنه لا يناسبُ الرقم

الذي حدَّدَتْهُ لي رومان البارحةَ، الرقم 26. انتظرتُ خمس دقائق إضافية، وعندما لم أرها قادمةً، انتقلتُ إلى الرقم المحدَّد. لم تكن رومان من النوع الذي يتأخر، ولا تتحمَّلُ تأخُّرَ الآخرين أيضاً. لمحتُها عن بعد وهي تشير إليَّ، فأسرعتُ خطاي. لم يكن مظهرُها باللباس الرياضيِّ يُشبهُها بتاتاً. بدت بسترتها السوداء اللامعة، وسروالها الجينز الضيق، وحذائها الرياضي العالي، كأنها مستعدةٌ من أجل مشيٍ طويلٍ في الغابة. وزاد من ارتباكي قبعةٌ رمادية من الصوف تُخفي جزئيّاً عينيها. عانقتُها، فضمَّتني إليها بقوة، دأبها في كل مرة. «طيِّب، ما كلُّ هذه الألغاز؟ ما هو الأمر المهمُّ الذي ستُطلعيني عليه؟ لقد أتيتُ، لكنني ليس لديَّ إلا القليل من الوقت هذا الصباح، تعرفين كيف تسيرُ أمور... العمل!».

أنصتتْ إليَّ رومان من دون أن تقاطعني. كانت دقَّةُ تقاسيم وجهها، وبشرتُها الناعمة السمراء، وعيناها الوديعتان العازمتان تؤثِّرُ فيَّ بالغ التأثير. وعلى الرغم من القوة التي كانت تصدُرُ عنها، بدت هَشَّةً في ذلك الصباح. كانت قد نتفتْ حاجبيها بالكامل، مفضِّلةً عليهما خطّاً مرسوماً بالقلم. تأسَّفتُ للأمر، لكنني لم أُبْدِ لها ذلك. وعلى سبيل الجواب، رفعتْ رأسها في اتجاه الرقم 26. تعقَّبتُ نظرَها: كانت لوحة رمادية كبيرة مثبَّتة فوق باب الدخول كُتبَ عليها باللون الأبيض «مستشفى» بجانب شعار مكتوب بحروف مُبَرَّزة: «معهد كوري». رأيتُ لأول مرة تلك البناية الضخمة التي تَشغلُ ثلثَ الشارع.

«ما الذي نفعله... هنا...؟». تجمَّدَ دمي. أحسستُ بتيّار كهربائيٍّ يعبُرُ جسدي. كنتُ مشدوهةً، فاغرة الفم. حاولتُ أن أُطمئِنَ نفسي بالبحث عن شعرها الأسود الرائع من خلال عُقَد قبَّعتها

الصوفية، لكن سدى. وضعتُ يديَّ أمامَ شفتيَّ لأُداريَ ذهولي. لم تتمكن عيناياَ من أن تفارقا وجهها. سالت الدموعُ وظلّت الكلماتُ عالقةً. «سريعة البديهة كالعادة!»، همستْ وهي تحتضنني بين ذراعيها.

يصارع معهدُ كوري السرطانَ منذ عقود، فكان من السهل عليَّ أن أُخمِّنَ الأمرَ. امتحتُ القوَّةَ من أعماق ذاتي حتى لا أنهزمَ أمامَ سطوة عواطفي. كانت ساقايَ تفشلان، لكنني تماسكتُ. «تبّاً، يا رومان... أنتِ لا!». نظرتْ إليَّ، مستسلمةً. «أنا، مثلي مثل الآخرين، يا مايِيل».

ثم واصلتْ كلامَها بصوت حازم:

«طيّب، لم أطلب منك المجيء إلى هنا لأتباكى على مصيري. أعلمُ أنّكِ مستعجلة. لديَّ موعدٌ من أجل حصة العلاج الكيماوي، رافقيني وسأشرحُ لكِ موضوعَ طلبي.

- علاج كيماوي؟

- أجل، لكن لا تقلقي، الأمر غير مُعْدٍ! هيّا، اتبعيني، سوف أتأخّر».

تبعتُها، ذاهلةً. تجاوزتْ رومان مكتبَ الاستقبال دون أن تتوقف. أمسكتْ رائحةُ المستشفى بخناقي. جعلني ذلك المزيجُ من المعقِّم والألم أندمُ على جلستي في المقهى. لم أكن أعرفُ أيّنا كانت الأكثر مرضاً، لكن في تلك اللحظة، كنتُ أنا!

بعد ممرٍّ معتمٍ ليس له آخر، وصلنا أمامَ نوع من الفضاء الفاصل، رواق خارجيّ بطول عشرين متراً يربطُ بين مبنيَيْن. توقفت رومان لحظةً قصيرة. كان مركزُ العلاج الكيماوي في القطاع الآخر. كان المعبرُ المغطّى بالزجاج يسمحُ بنفوذ الضوء، لكنني كنتُ أشعرُ

كأني أعبرُ مَمَرَّ الموت. ترتعدُ ساقايَ اللتان أصابهما الوهنُ، وتتزايد قوّةُ نبضات قلبي، ويصيبُ الشللُ معدتي. مررنا بمريضة أولى، صلعاء الرأس، بلا رموش ولا حاجبين. ثم مريضة ثانية، في يدها الحقنة الموصلة للدواء، تتنفَّسُ بصعوبة. رسمتْ على وجهها ما يُشبه الابتسامةَ، فأجابَتْها رومان تلقائيّاً بابتسامة. لم أجرؤ على أن أرفع رأسي، فأخذتُ أتمتمُ عبارة «طاب يومك» التي ظلّت عالقة في عمق حنجرتي.

عند نهاية الممرِّ، يدير صفَّان من أربعة مقاعد فارغة الظهرَ أحدهما للآخر. ارتميتُ فوق المقعد الأول لأستردَّ وعيي في الوقت الذي كانت فيه صديقتي تُخبرُ كاتبةً، كارول، بوصولها. «مرحباً، سأُخرِجُ لكِ البطائق»، أكَّدت المرأةُ بلطافة. كانت حماسة رومان وثقتُها تحيِّراني، بدت كأنها لا تشعر بأيِّ خوف، كأنها تتحدث إلى بائعةٍ تقترحُ عليها أن تنتقل إلى مقصورة تجريب الملابس. «بالتوفيق، سيدتي».

حيَّتْها رومان والتفتَتْ نحوي. «ألا تأتي؟ إنه أبعد قليلاً». وأسرعت الخطى في الممرِّ المقابل. كيف سأفعل لأقف على قدميَّ من جديد؟ كيف سأجد القوة على مواجهة ذلك الألم؟ لم أكن مؤهَّلَةً لأعيش ذلك، فتجمَّدَتْ عضلاتي. كنتُ مشلولةً فوق المقعد، على حافة الإغماء. رجعتْ رومان وهرعتْ نحوي، مفزوعةً.

«لستِ بخير، أنتِ شاحبة، أتريدين كأس ماء؟

- لا... أوه نعم... الأمرُ قاسٍ بعض الشيء، لم أكن أتصوَّرُ...».

كانت أفكاري مرتبكة، وأصابني صُداعٌ ليزيد من تأزيم وضعي المثير للشفقة. «إنْ كنتِ تُفضِّلين الانتظارَ في الخارج، فسألتحقُ بكِ

بعد قليل. إلا إن لم يكن لديك الوقت». ودون أن تنتظر جوابي، هبَّتْ واقفةً. «سأجلُبُ لكِ كأسَ ماء، سأعود فوراً».

قامتْ كارول وجلستْ بجانبي.

«لا تقلقي، دائماً ما يكون الأمر هكذا في المرة الأولى، ثم نعتاد.

- نعتاد؟ على ماذا نعتاد؟

- على الروائح، وعلى مظهر المرضى الآخرين... وعلى ألَّا نتكبّد معاناتهم. فعندما تغضّين الطرفَ عن المظاهر، لا يتبقى سوى حقيقة واحدة: الصراع ضد المرض. إنَّ الطريقة الوحيدة لمساعدة صديقتك هي أن تمدِّيها بالقوة الضرورية التي تحتاج إليها.

- أودُّ ذلك، لكنني لستُ متأكِّدةً من امتلاك الطاقة اللازمة.

- أنتِ تمتلكينها، ما دامت أنها اختارتْكِ! أراها كلَّ أسبوع منذ ستة شهور، الروحُ القتالية ذاتها، والابتسامة على شفتيها دائماً. وعلَّمتني التجربةُ أنَّ هؤلاء الأشخاص هم الذين يحصلون على أفضل النتائج. إننا نداوي أكثر من 80% من حالات سرطان الثدي. إنها تسير في الطريق الصحيح.

- أنا واثقة من ذلك، لكن...

- هي المريضة، ولست أنتِ! إنها المرة الأولى التي تأتي فيها برفقة أحد، فمن المهم أن تكوني في المستوى المطلوب كي تعكسي لها صورة جميلة».

ربَّتَتْ على ساقي. «هيّا، تماسكي، إنها ستعودُ، كوني قوية، إنها بحاجة إليك!». عادتْ كارول إلى مكتبها. استقمتُ في جلستي، فقد أعادتني كلماتُها إلى رُشدي: ينبغي لرومان أن تعتمد عليَّ، فهي

المريضة. لكن لماذا اختارت صديقتي أن تدعوني للمجيء اليومَ، مع أنها كانت تأتي وحدها في العادة؟

ظهرتْ من جديد وفي يدها كأس ماء.

«كان عليَّ أن أُحذِّرَكِ.

- كلاَّ، كلُّ ما في الأمر أنني أحسستُ بضربة حَرٍّ. أنتِ تعلمين أنني لا أحبُّ المستشفيات!».

شربتُ الماء دفعةً واحدة ونهضتُ. كان وجه رومان يتصبّب عرقاً. كانت بدورها تبدو في حال سيئة، فخلعتْ معطفَها، وطوتْهُ فوق ساعدها.

«ما الذي يحدثُ لك؟ أنتِ مبلَّلة.

- إني أختنقُ، لكنني لستُ واثقةً من أنكِ مستعدةٌ لأن تريننني كما أنا.

- أنتِ تمزحين، إني أراك كما أنتِ بالفعل: مقاتلة ستنتصر. اخلعي قبّعتَكِ ولننطلقْ إلى الحرب. معاً نحن الاثنين، سنكون أكثر قوة».

هيَّأتُ نفسي كيلا أضعفَ عند رؤية رأسها الأصلع. خلعتْ قبَّعَتها، مُطْرِقَةً عينيها، حتى لا تتحمَّلَ نظرتي، فرفعتُ ذقنَها لأُقِيمَ وجهها. «أنت محظوظة لأنَّ لكِ جمجمة جميلة مثل هذه! أنتِ تُشبهين ناتالي بورتمان في فيلم V for Vendetta. الجاذبية نفسها، والابتسامةُ نفسُها، والجمالُ نفسُهُ!». أخذتُها بين ذراعيَّ وهمستُ في أذنها: «ليس السرطان من يستطيع أن يُفسد علينا حياتَنا!». غمزتْني كارول بعينها سرّاً، فأجبتُها بغمزة كذلك. «هيّا، يا رومان، لننطلقْ! اشرحي لي كيف تسيرُ الأمورُ». ابتسمتْ وأخذتْ بذراعي. وبعد أن أخبرتْ ممرِّضَةً بحضورها، جاءت لتنتظر إلى جانبي.

«احكي لي. . . متى انتبهتِ إلى وجوده؟ منذ متى يدومُ الأمرُ؟».
أخبرتني صديقتي بتفاصيل الشكوك الأولى، والفحوصات، والقلق من النتائج، وظهور النتيجة، والصِّراع، والألم، والنتائج، والخوف. . . أنصتُّ إليها، وأنا أتخيَّلُ ما يمكن أن تكون قد عانَتْ منه، فإذا بامرأة شابّة بوزرة بيضاء، باسكال، أعلنتْ عن بدء العلاج.

«جئتِ مرافَقَةً هذه المرة؟

- أجلْ، نزهةٌ مع صديقتي، مَرَّ زمنٌ طويل. . .».

غمزتْ رومان بعينيها. دخلنا قاعةً كبيرةً مشتركة حيث يجد كلُّ فضاء حميميَّتَهُ الافتراضيةَ خلفَ ستائر. اتخذْنا مكاننا كلَّ واحدة في موقعها: كشفتْ رومان، وهي مُمَدَّدَةٌ، عن كتفها وعن أعلى صدرها لتُفْسِحَ المجالَ للقسطرة، وأعدَّتْ باسكال الخليطَ، أما أنا فشعرتُ، وأنا جالسة على الأريكة، أنني على وشك الإغماء. . .

«في الأسبوع الماضي، تناولتِ التاكسول، واليوم سيكون الأمر أهدأ، لن تتناولي سوى الأفاستين». اقتربتْ باسكال من صديقتي، وفي يدها إبرةٌ كبيرة.

«مستعدَّة؟

- أجل»، أجابتْ رومان وهي تكزّ على أسنانها.

استنشقتْ نَفَساً طويلاً. فعلتُ مثلَها، وملأتُ رئتيَّ إلى أقصى حدٍّ. أدخلتْ باسكال الإبرةَ في أنبوب القسطرة، ثم علَّقتْ جيوبَ السائل في أعلى حقنة إيصال الدواء الموصولة بحاسوب تقطير، قامت ببرمجته. «أمامكما نصف ساعة من الحديث، يا بنات! إن احتجتُما إليَّ، ناديا عليَّ».

لم يكن يبدو على رومان أنها تتألَّم، رفعتْ مسندَ السرير بالضغط على جهاز تحكُّم كهربائي وابتسمتْ لي ابتسامةَ تعاطف.

«أعرفُ أنك تتحمَّلين في صمت. ليس من السهل أن تستحملي ما أُقَلِّدُكِ من معاناة معي، لكنني أريد أن أطلب منكِ خدمةً كبيرة.

- أجل، بالتأكيد، كل ما تريدينه!».

دفعتُ مقعدي بواسطة مسنديه وجلستُ على حافته لأكون أقربَ إلى صديقتي. أطرقَتْ برأسها. «من غيركِ أستطيع أن أستنجد به؟». قلقتُ ألاَّ أكون عند حسن ظنها وما ستطلبه مني، فاستقرَّت عيناياَ على شفتيها لا تحولان عنهما.

«تذكرين، عندما التقينا السنة الماضية، كنتُ قد التحقتُ بمجموعة من الباحثين في إطار بعثة إلى كاتماندو. كان عليَّ أن أقضيَ هناكَ شهرين، غير أني توصلتُ، بعد ثلاثة أسابيع على وصولي، برسالة من طبيبي المختص بأمراض النساء حول التحليلات التي كنتُ أجريتُها قبل السفر. كانت النتائج قاطعةً.

- السرطان؟

- أجل. انهرتُ، فأفضيتُ بالأمر إلى بروفيسورٍ أمريكي، جيسون، الذي كان يعيش هناك منذ خمسة أعوام. حدَّثني عن طريقة متوارَثة لدى النيبال قد تساعد، بواسطة تحقيق الوعي وتغيُّر في الحالة الذهنية، على الوصول إلى الشفاء».

عقدتُ حاجبيَّ. واصلت رومان كلامَها: «تَذكُر مجموعةٌ من الكتب هذه المقاربةَ، لكن ولا كتاب واحد منها يذكر محتواها. اعترفَ لي بأنَّ المعالمَ الموصلة إليها ضعيفة، لكنه مقتنع كلَّ الاقتناع أنها ستُغيِّرُ العالمَ؛ بل إنَّ وجوده في النيبال كان من أجل ذلك». استرجعت رومان نفَسَها وهي ترفع قميصَها إلى صدرها. «عرضَ عليَّ، إبَّانَ عشاءٍ، العناصرَ المحيِّرة التي جمعَها: في فترات زمنية

مختلفة، وفي بلدان متباعدة، أشارت جميعُها إلى تحقيق الإدراك نفسه».

غلب عليَّ الشَّكُّ، فانزلقت إلى عمق مقعدي وأنا أضعُ ساقاً على ساق:

«ولم يعثر عليها أحد منذ كل تلك الأعوام؟

- كلَّا، لقد اقترب منها عددٌ من الباحثين، لكن لم يكتشفها أحدٌ. الفرضية الأكثر احتمالاً هي أن تكون الحكومةُ قد خبّأت المخطوط على إثر الصراعات بين الصين والنيبال».

كنتُ أُنصتُ دون أن أفهم ما الذي تقصده رومان من كل ذلك، ولا ما كانت تنتظره مني.

«قررتُ أن أطرقَ بابَ السِّفارة، وأكثرتُ من زيارة الوزارات في كاتماندو، لكن لم يكن أحد يعرف شيئاً عن ذلك المخطوط. غير أنني كلما أثرتُ الموضوعَ، لاحظتُ الانزعاجَ على وجوه الكثيرين. ثم أمرني طبيبي أن أعود إلى فرنسا كي أشرعَ في العلاج.

- فعلتِ كلَّ ما في وسعكِ إذاً!

- انتظري البقيّة: يوماً قبل سفري، سلَّمني رجلٌ رسالةً في بهو الفندق قبل أن يهرب.

- تُشبِهُ حكايتُكِ قصّةَ البحث عن الكنز...

- أنا جدّيّةٌ، يا مايبل!

- عفواً، كلّي آذان صاغية. لكن، ينبغي أن تعترفي أنَّ...».

قَسَتْ نظرَتُها، فأمسكتُ عن السخرية. أخرجتْ رومان مظروفاً من حقيبتها وسلَّمتني محتواهُ: ورقة مجعّدة كُتِبَ عليها بإنجليزية ممتازة: «**انسي أبحاثَكِ، لن تجلبَ لكِ إلاَّ المشاكل**».

بدا أن تلك الحكاية تهيمنُ على مجامع تفكيرها، لكنني تساءلتُ عما إذا كانت الآثار الجانبية لعلاجها تجعلها حالمة. قرأتْ في أفكاري.

«أعرفُ أنَّ كلَّ هذا يبدو سخيفاً. وأنا نفسي بقيتُ أسيرةَ الشَّكِّ مدَّةَ أسابيع طويلة.

- بصراحة، الأمر مدعاةٌ للشَّكِّ!

- بقيتُ على تواصلٍ مع جيسون. لقد واصلَ أبحاثَهُ، على الرغم من التحذيرات المتكررة، فكلُّ رسالة مجهولة كانت تؤكِّدُ حقيقةَ تلك الأسطورة. وبيَّنَت الأحداثُ صوابَ موقفه. اتَّصَلَ بي أوَّلَ من أمس ليخبرني بأنَّ بين يديه نسخة من الطريقة وأنه مستعدٌّ ليُسلِّمها إليَّ! اكتشفَ، كما كنا نتوقَّعُ، أنَّ الحكومة كانت تُخفي المخطوط. فالرهانات المالية شديدة الأهمية بحيث لا يمكن المغامرة بالتسبُّب في تدنِّي مبيعات الأدوية. إنَّ الكشفَ عن ممارساتِ تفكيرٍ وقائي وعلاجي كهذه من شأنه أن يُزعزِعَ توازنات مجال صناعة الأدوية المُربح.

- لا تبالغي! قبل أن يُزعزِعَ القطاعَ، لا بد أن تمرّ بضعةُ أعوام! قرأتُ مؤخَّراً أنَّ السوق العالمي لصناعة الأدوية يُقدَّرُ بأكثر من 850 مليار دولار أي أربع مرّات أكثر من الرقم المسجَّل قبل عشرين عاماً. ولا يزالُ ينمو، وأنتِ تعرفين ذلك أفضل مني...

- تخيَّلي إذاً، مقاربةً يكون من شأنها أن تَحُدَّ من ذلك النموّ. سيتأثَّرُ اقتصادُ الكرة الأرضية بأكمله.

- بالله عليك يا رومان، لا تبالغي! ليس اليوم أول مرة يدور فيها الحديث عن كتابات تتناول تقنيات في التفكير، وفي التصوُّر، والتحوُّل. أتعتقدين أنَّ مخطوطاً يستطيع أن يُغَيِّر كلَّ شيء؟

- أجل، عن طريق تحقيق وعيٍ عامٍ، طبعاً! إنَّ ما ينقُصُ كلَّ واحد منا هي الطريقة».

تنهَّدْتُ.

«لنُسَلِّم بالأمر. ماذا تنتظرين منّي؟

- أن تجلبي لي ذلك المؤلَّف. أتُدركين ما يعني ذلك، يا مايل؟ يمكن أن يُشفيني!

- لكن يا رومان، لا يمكنكِ أن تُصدِّقي كلَّ هذه الروايات! ينبغي أن تضعي ثقتك في الطِّبّ وأن تواصلي المقاومة. معظمُ حالات سرطان الثدي تُداوى اليوم، وأنتِ تتقدَّمين في الطريق الصحيح. وأنا معكِ الآن. وما دمنا معاً، فالأمر محسومٌ مسبقاً.

- أريدُ أن أضع جميع الحظوظ إلى جانبي. إن لم يكن الأمرُ مهمّاً بالنسبة إليّ، ما كنتُ لأطلبه منكِ.

- أعرفُ، غير أني أعتقدُ أنَّكِ تركت نفسكِ تنغمرين في قصة خيالية ترتاحين للاعتقاد بصحَّتها. أتفهَّمُ الأمرَ. لكن يجب أن تكوني واقعية. ينبغي أن تُركِّزي جميعَ قواكِ في الملموس، أي العلاج الكيماوي، والراحة، وأن تساعدي الطِّبَّ على أن يُنجزَ عملَهُ».

اصطنعتْ رومان صوتاً طفولياً.

«ستذهبين من أجلي، هيه؟

- بالتأكيد لن أذهب!

- متى كانت آخر خدمة طلبتُها منكِ؟».

تغيَّرَت نبرةُ صوتها. كنتُ أعرفها شرسَةً شراسةَ أسدٍ يواجه فريسةً ليس لديها أيَّ مَنْفَذٍ للخلاص. كان سؤالُها ذكِيّاً، فأنا لم أذكرُ أنها لجأتْ إليَّ ولو مرة واحدة في كل تلك الأعوام. خفضتُ عينَي، فأجابتْ بدلاً عني كأنها توجِّه إليَّ ضربةً قاضيةً.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«لم أطلب منكِ يا مايبل، ولو خدمة واحدة مدَّةَ ستة عشر عاماً من الصداقة.

- هذا صحيح يا رومان، لكنَّ قبولي سيعني أنني أدعم كلَّ هذه الروايات، وأنا لا أرغبُ في الكذب عليك، تفهمين هذا، أليس كذلك؟».

أشاحت بنظرها عنّي. أخذتُ يدَها بين يديَّ.

«سأفكِّرُ في الأمر ونتحدَّثُ فيه بعد عطلتي.

- إن لم تسافري سريعاً جدّاً، فسيفوت الأوان. إنها مسألة حياة أو موت.

- لكنَّ الأمر مستحيلٌ بالنسبة إليَّ!

- ما الحياةُ إلا سلسلة خيارات.

- توقفي يا رومان، فأنا لم أعد أعرفك، إنَّكِ تُخيفينني. أنتِ بالكاد تعرفين ذلك الرجل!

- الخيار يعود لك».

في اللحظة نفسها، شرعَ حاسبُ القطرات يرِنُّ. لم تتأخَّر باسكال. أوقفَتِ المنبِّهَ، وسجَّلت المعلومات المقروءة على الشاشة وحرَّرت رومان من إبرتها. «أنا آسفة، سيداتي، حان الوقتُ لتتركا المكان للآخرين». التفتتْ نحو رومان. «أراكِ في الأسبوع القادم». ثم التفتت نحوي: «إلى اللقاء؟». بقينا صامتتين إلى أن خرجنا من المستشفى.

أصرَّتْ رومان على أن تصطحبني. سادَ الصمتُ فترةً طويلةً في السيارة، ثم اعترفتْ لي، قلقةً: «كنتُ أفضِّلُ أن أذهب بنفسي، لكنني مقيّدة بحصص العلاج». صمتتْ لحظةً، تنتظر رَدِّي الذي لم يصل. «أُعِدُّ نفسي لأتقبَّلَ أنّ تلك الطريقة قد لا تنجح معي، لكنني

أريدُ أن أكون واثقةً من أنني جرَّبْتُ كلَّ شيء». وصلنا إلى وجهتنا، فركنتْ سيارتَها وفتَّشَتْ في حقيبتها اليدوية وأخرجتْ مظروفاً سلَّمَتْني إياه.

«افتحيه بعدما تتخذي قرارَكِ. عديني ألَّا تفتحيه قبل ذلك.

– أعتقد أنني نِلْتُ ما يكفيني من الألغاز لهذا اليوم! أخبريني عن محتواه.

– عديني!

– طيّب، أعدُكِ!».

قبَّلتُ صديقتي التي ضمَّتني بين ذراعيها بإلحاح وهي تهمسُ في أذني «شكراً» طويلة، وختمتْ بقولها «لأشدَّ ما أُحِبُّكِ». فاجأني تعبيرُها عن عواطفها، فقد كانت كثيرة الاحتشام، ولم أحر جواباً. انطلقتُ في اتجاه متحف اللوفر، أحملُ الرسالةَ في يدٍ وأحيِّيها باليد الأخرى، وأحسستُ بنظرتها في ظهري تتابعني فترةً طويلة.

كنتُ مذهولةً بتلك الصبيحة التي مرَّتْ عليَّ. عبرتُ حديقة التويلري لأذهب إلى مكتبي في ساحة لامادلين. كان الوقتُ تجاوز منتصف النهار بقليل، غير أني لم أكن جائعةً. تبعتُ شعاعَ شمس إلى غاية ساحة اللوفر المربَّعة، ثم الهرم المعكوس، وأخيراً قوس نصر الكاروسيلْ، إلى غاية الحوض المستدير. لا بد أنني كنتُ في ذلك اليوم الشخص الوحيد الذي لا يرى شيئاً من ذلك المكان الرائع. أغراني منظرُ مقعد خفيضٍ، مِسندُهُ مائلٌ في اتجاه الشمس، بأن أجلس لحظةً. لم أحاول أن أقاوم، واتَّخذتُ مكاني، منهكَةً، في عمق المقعد، وأغمضتُ عينيَّ وعرَّضْتُ وجهي للنجم المشتعل الذي كان يُلَطِّفُ درجات الحرارة. كانت الريح قد هدأت، وتداعبُ خدَّيَّ بدفئها. أخذتني سِنَةُ نعاسٍ لحظةً، إلى أن أخرجتْني قهقهاتُ

أربعة سُيَّاح شباب من خَدَري. استويتُ فوق مقعدي وأنا أبحثُ عن هاتفي، الذي ظلَّ في الوضع الصامت، في جيب معطفي. خمسة وثلاثون اتصالاً، ثمان وأربعون رسالة إلكترونية، اثنتا عشرة رسالة نصية، وثلاث إشارات لمواعيد. قفزتُ وأسرعتُ الخطى لأغادر الحديقة من ساحة الكونكورد. حاولت أوراقُ الأشجار المُعَمِّرة أن تدعوني إلى الرقص مرة أخرى، غير أنه لم تعد لديَّ أيُّ رغبة في اللعب. طردتُها بركلةٍ قويةٍ، متضايقةً، وصعدتُ شارعَ رويال وأنا أُنصتُ إلى الرسائل الصوتية المتراكمة.

وما أن انفتح بابا المصعد حتى هرعتْ نحوي موظفةُ الاستقبال.

«ماييل، الرئيسُ يبحث عنكِ، حاولتُ أن أتصل بكِ مرَّاتٍ عديدة.

- رأيتُ ذلك. أَعلميه بوصولي».

وعندما تجاوزتُ باب الممرِّ الأول، جاء مدير المبيعات لملاقاتي. «أأنتِ بخير؟ هل لديكِ مشكلة؟ بيير يبحثُ عنكِ». صحيح أنه لم يسبق لي أن تأخَّرتُ، خلال ثمان سنوات، ولو ساعتين دون أن أُشْعِرَ بذلك. أما عن الرسائل، فإني اعتدتُ أن أجيب عنها في الرُّبع ساعة اللاحقة، لأن الهاتف لم يكن يفارق يدي.

دفعتُ باب مكتبي بعد أن استوقفني ثلاثةُ زملاء آخرين قلقين. شَغَّلتُ حاسوبي، فبهرتني الشاشةُ وضاعفتْ من صداع رأسي. ومرّتْ دقيقتان قبل أن يلجَ بيير الغرفة غاضباً. «ما الذي تفعلينه يا ماييل؟ كان ينبغي أن نحضِّرَ العرضَ من أجل المستثمرين هذا الصباح. أُذَكِّرُكِ أننا سنلقاهم يومَ الاثنين!».

هذا الرجل ذو الثلاثة وأربعين عاماً والذي قضيتُ معه الشهورَ المائة الأخيرة في التفكير في استراتيجية شركتنا، التي وهبتُها كلَّ حياتي يوماً تلو آخر، يسألني ماذا كنتُ أفعل! غبتُ نصفَ يوم فيكون من نصيبي عتابٌ ولومٌ كأننا في بيت الزوجية. لم يكن بإمكانه، بطبيعة الحال، أن يُدرِكَ أنَّ تلك الساعات الأخيرة أبطَلَتْ جميعَ أولويّاتي. نظرتُ إلى اضطراب عش النمل الذي كنتُ أشغل فيه منصباً هاماً، لكن لم يكن للأمور الطعم نفسه. وحدها رومان كانت تسكنُ أفكاري، إلى درجة أنني لم أعد أعرف أيّتنا كانت مصابة بالسرطان.

انهرتُ باكيةً، فاضطرب بيير لبكائي وغيَّرَ من نبرته. «طيّب، طيّب يا مايبل، لا تنفعلي بهذا الشكل، أنت تعرفينني، أنا سريع الغضب، وأنت معتادة على الأمر». لم أُفلِحْ في أن أحبس دموعي. كان محرَجاً.

«ما الذي يجري؟

- أنا متعَبة. سأنصرفُ إلى بيتي. لا تقلق، سأكون هنا غداً، وسيكون كلُّ شيء جاهزاً.

- ليس الاجتماع ما يقلقُني، بل أنتِ. ما الذي حصل لكِ هذا الصباح؟

- تسونامي، لكنني لستُ في حال تسمح لي بالحديث عن ذلك الآن.

- تعرفين أنني دائماً إلى جانبكِ. اتَّصلي بي متى تشائين وارتاحي ما يكفيكِ من الوقت، سأتصرَّفُ مع المستثمرين».

استعدتُ زمام نفسي شاكرةً إياه، وجمعتُ أغراضي وعدتُ إلى بيتي.

كانت السماء قد اسودَّت وصارت مُهدِّدةً، مُنذِرَةً بإعصار لم يتوانَ في الانطلاق. أسرعتُ داخل بهو عمارتي، وصعدتُ الدرجات إلى الطابق الأول واستلقيتُ مُتدَّثِرةً فوق أريكتي.

كيف كان الأمرُ ممكناً؟ ساعتان فقط كانتا كافيتين لإحداث انقلاب في حياتي. كانت كلماتُ رومان يتردَّدُ صداها في ذهني. ما الذي قصدتهُ بقولها «مسألة حياة أو موت»؟ وصحيح أنها لم تطلب مني شيئاً قطُّ كل تلك السنين. وكانت تقف إلى جانبي دائماً، في السرّاء والضرّاء. لكن أيمكنني أن أهجر كلَّ شيء وأسافر إلى النيبال؟ لم أكن أعرف حتى موقع ذلك البلد داخل جبال الهيمالايا. ثم إنَّ عملي لم يكن يسمح لي بأن أتغيَّبَ في الوقت الراهن. لكن كيف لي أن أرفض خدمةً لأعزِّ صديقة لي؟ ومن جهة أخرى، كيف لي أن أقبل تلك القصةَ الخرقاء؟ لو كنتُ مكانها لتشبَّثتُ بأيِّ شيء بكل تأكيد.

ظلّت الأسئلةُ تتزاحمُ في ذهني ثلاثَ ساعاتٍ من دون إجابات. كنتُ أُدرِكُ في أعماقي أنني سأندمُ طوال حياتي إن أصاب صديقتي أيُّ مكروه، لأنني لم أتِحْ لها هذه الفرصةَ. فكَّرتُ في ذلك الخيار، وفي الأمور المستعجلة للأيام القادمة: مثلما قال بيير نفسُهُ، يستطيع أن يتصرَّفَ بضعةَ أيّامٍ من دوني، كما يمكنني أن ألغي عطلتي المقرّرة. أما بالنسبة إلى الأمور الأخرى... فلا وجود لأمور أخرى!

كنتُ واثقةً من أنَّ رومان واهمةٌ حول حقيقة تلك الطريقة وقدراتها السحرية، لكنني لم أكن أطيقُ فكرةَ أن أخيِّبَ رجاءَها. ظللتُ عالقةً في حيرتي ساعةً أخرى، ثم قرَّ قراري: لا يمكنني أن أتنصَّلَ.

غرغرتْ معدتي: هذه علامة ارتياح! أدخلتُ شريحتَيْ خبز في المشواة ودهنتُهما بمعجون السمك، وعصرتُ عليه قليلاً من الليمون وملأتُ كأس نبيذ أبيض شربتُهُ دفعةً واحدةً. ملأتُ كأساً أخرى وتمدَّدتُ كي أستمتعَ بأكلتي الخفيفة. أذابَ الكحولُ أفكاري وأوهَنَ جسدي. وفجأةً، وجدتُني أهُبُّ من سريري إذ تذكَّرتُ الرسالةَ التي سلَّمتني إياها رومان عند افتراقنا. كنتُ قد دسستُها داخل جيبي، ثم نسيتُها. كانت استحلَفَتْني ألَّا أفتحَها إلا بعد أن أتَّخذ قراري. هل اتخذتُ قراري حقّاً؟ ألمْ أتعجَّل؟

لو كنتُ أعلمُ بالمَثَل القائل إن الليل يحمل النصيحةَ، لتوجَّبَ عليَّ أن أؤجِّلَ قراءتها. وضعتُ المظروف أمامي، فوق منضدة المطبخ، وجلستُ على كرسيٍّ عالٍ، وفكَّرتُ في الأمر مجدّداً. وبعد أن اجتررتُ الأسئلةَ نفسَها للمرة الألف، أفرغتُ كأسي، وصادقتُ على قراري: ذهابٌ وإيابٌ بدل ندمٍ أبديٍّ! مزَّقْتُ المظروفَ فانفتح لأكتشفَ داخله تذكرةَ طائرة باسمي إلى كاتماندو ورسالةً من رومان.

«مابيل،

كنتُ أعرفُ أنكِ لن تتخلَّيْنَ عني. لم أكن لأطلب منكِ هذه الخدمة لو لم يكن الأمر مصيرياً. يتوجب عليكِ، كما هو واضح على تذكرة الطائرة، أن تسافري غداً إن كنتِ تريدين أن تحظيْ بفرصة لقاء جيسون».

«غداً؟ لقد فقدتْ صوابَها!».

التقطتُ هاتفي. «رومان، اتصلي بي عندما تتوصلين برسالتي. أنا مستعدة للذهاب إلى هناك، لكن ليس غداً!». نظرتُ إلى موعد انطلاق الرحلة على تذكرة الطائرة: الساعة الثالثة وأربعون دقيقة عصراً من مطار رواسي-شارل ديغول. مستحيل!

استأنفتُ قراءتي: «**إنه ينتظركِ في كاتماندو، لكنه لا يستطيع أن يظلَّ هناك مدَّةً أطول. سيسلِّمُكِ نسخةً من المؤلَّف يداً بيد. حجزتُ لكِ غرفةً عند صديقتي مايا التي تشرفُ على فندق ماندالا في بودناث، قرب المطار. يكفي أن تذكري اسمَ الفندق، فجميع سائقي سيارات الأجرة يعرفونه. اغتنمي عطلة نهاية الأسبوع للتجوُّل في المدينة العتيقة. ستكون مايا سعيدةً بأن تزوِّدكِ ببعض النصائح.**

كما اعتدتُ بعد كلِّ حصة علاج كيماوي، سأذهبُ لأعتزل وأقطع كلَّ اتصال قبل ظهور الأعراض الجانبية. لن تتمكني من الاتصال بي قبل أن تصلي إلى هناك، لكنني سأتصلُ بكِ. أنا سعيدةٌ بقراركِ وفخورةٌ لأني لديَّ صديقة مثلك.

أحبُّكِ.

رومان

ملاحظة: اعتني بنفسكِ و... خذي معكِ ملابس دافئة، يسود البردُ (القارص) في المساء ؛-)».

كانت الرحلة مقرَّرَةً بعد بضع ساعات، مع توقُّف في الدوحة، ليكون الوصولُ إلى كاتماندو في الغد على الساعة الحادية عشرة. استبدَّ بي الهلعُ. حاولتُ أن أتصل برومان من جديد، لكن الكلمة كانت لمُجيبها الآلي منذ أول رنَّةٍ. أعدتُ، مشدوهةً، قراءةَ الرسالة مرة ثانية. يا له من كابوس! بدأتُ أندمُ على قراري. أيُّ مأزق هذا الذي انجررتُ إليه!

غفوتُ بصعوبة، وقد هدَّتني وقائعُ النهار. وعند الرابعة صباحاً، أزعجتْ نومي جُمَلُ رومان: «أحتاج أن تُسدي إليّ خدمةً»، «لم

أطلب منكِ ولو خدمة واحدة مدَّةَ ستة عشر عاماً من الصداقة»، «لو أنَّ لدي فرصةً، فلا أريد أنْ أُضيِّعها»، «أحبُّكِ» ثمَّ، جُمل كارول: «من المهمِّ أن تكوني في المستوى المطلوب»، «إنها اختارتْكِ أنتِ»، «أعز صديقة لها».

وبما أنني لم أعد قادرة على أن أنام من جديد، قررتُ أن أنهض. كانت لا تزال أمامي مهلة بضع ساعات لإعداد حقيبتي.

أخبرتُ بيير بسفري برسالة نصية وأنا في سيارة الأجرة التي تقلُّني إلى المطار، وطمأنته أنني سأعود سريعاً.

*

اخترقت الطائرةُ طبقةَ السُّحُب السميكةَ مُخلِّفَةً فوق باريس الرَّذاذَ وارتباكي.

بعينَي طفلٍ

«يمكننا أن نُدرِكَ وضعَنا إما باعتباره جنَّةً أو جحيماً: يرتبطُ الأمرُ كلُّهُ بإدراكنا».

بيما شودرون

«فيزا؟»، سألني نيباليٌّ قصيرٌ وبدينٌ، يَسبحُ في بدلته العسكرية. وجدتُ صعوبةً في فهم ما كان يقوله لي بإنجليزيته الركيكة، غير أني فهمتُ أنني لا أستطيع أن أدخل البلدَ من دون تأشيرة. وطبعاً لم تكن لديَّ. وعلى الرغم من أنني طلبتُ من الجمركيِّ أن يرشدني إلى ما يتوجب عليَّ فعله، لكنه أعاد إليَّ وثائقي وأشار إلى المسافر اللاحق بالاقتراب. لحسن حظِّي، ظهرتْ فرنسيةٌ لتمدَّ لي يد المساعدة: «إن لم تكوني قد طلبتِ التأشيرة قبل سفركِ، اذهبي إلى المكتب إلى اليمين. سيُكلِّفُكِ الأمرُ خمسين دولاراً».

انطفأ حماسي عندما شاهدتُ الطابورَ الطويلَ الممتد خلف الشبّاك. اضطررت أن أنتظر حوالي ساعتين قبل أن أتمكَّن من مغادرة المطار.

بحثتُ عن سيارة أجرة. أحاطَ بي شبابٌ تبتيّون ليحملوا حقيبتي، لكنني رفضتُ أن أطلقَها. وحاول مجموعةٌ من الأطفال أن يعرضوا عليَّ سلَعَهُم، لكنني أزحْتُهم بحركة بسيطة كانت كافية لإبعادهم. هذا أمرٌ جيّد! كنتُ قد سئمتُ من تلك البلدان حيث يتوجب على المرء أن يُفاوض لعشر دقائق ليتمكَّن من المرور.

شاهدتُ تجمُّعاً للسائقين إلى اليمين. كانت حوالي عشرين سيارة بيضاء متماثلة مركونةً في ثلاثة صفوف. خاطبتُ أوَّلهم بالإنجليزية، فأشار إلى زميله أن ينقلني. استولى هذا الأخيرُ على حقيبتي ووضعها فوق سطح السيارة دون أن يهتمَّ بربطها. أدهشني الأمرُ، لكنني لم أحتجَّ. لم تعد لديَّ القوة على العراك.

فتح لي بابَ السيارة الخلفيَّ الذي أصدر صريراً يَشي بحقيقة عمر المركبة. انزلقتُ فوق الكرسيِّ المغشّى بجلد صناعيٍّ يحميه غطاءٌ صوفيٌّ مخرَّمٌ بالأحمر والأصفر. ودار حول السيارة، وجلسَ إلى اليمين ثم التفت نحوي مبتسماً. كان يُهذرِمُ بالإنجليزية:

«مرحباً سيدتي، إلى أين تريدين الذهاب؟

- إلى بودناث، من فضلك!

- إلى الستوبا[1]؟

- كلَّا، أنا ذاهبةٌ إلى فندق ماندالا، في بودناث.

- لا يعني لي هذا الاسمُ شيئاً، لكن توجد الكثير من الفنادق حول المَعْلَمة، فلا بد أنه واحد منها. هل نذهبُ سيدتي؟».

نظرتُ إليه، حائرةً، لأني لم أتوَقَّع تردُّدَهُ. كتبتْ لي رومان أنَّ

---

(1) مَعلمة تاريخيّةٌ بوذيّةٌ، ومعلمة بودناث هي إحدى أعظم هذه المَعلمات في العالم - المؤلِّفة.

الجميعَ يعرف ذلك المكان. . . انطلق الرجلُ بسيّارته بسرعة، وهو يتعرَّجُ بين السيارات، والدرّاجات، والشاحنات، مثيراً غباراً شكَّلَ سحاباً لازمنا طول الطريق. هكذا حظّي دائماً، لا بدَّ أنني وقعتُ على السائق الوحيد الذي لا يعرف فندقي! كانت طريقة سياقته تصيبني بالدُّوار، وكنتُ أبتسمُ تأدُّباً، لكنني كنتُ أشعرُ بالغثيان يكبر بداخلي. وعندما نقلتُ بصري إلى الطريق، رأيتُ مشاهد لا تُصدَّق: إلى اليمين، سرير مزدوج مربوطٌ فوق ظهر سائق درّاجة نارية؛ وإلى اليسار، أُسرةٌ كاملة فوق دراجة موبيليت: أصغر الأطفال فوق المقود، ثم طفلٌ بين ذلك الصغير والسائق، ثم الأخير، في الخلف، يتشبّث بقوة بخصر والده كيلا يجد نفسه مرميّاً عند أول انطلاق سريع. يغامرُ الراجلون بحياتهم مع كلِّ خطوة، لكن لا يبدو عليهم القلقُ. وهناك، بقرة ترعى العشبَ الطالعَ من الرصيف، ثم تنغمرُ في السير. رفعَ شيخٌ عصاهُ وهو يصيحُ في وجه درّاجٍ شابٍّ متهوِّرٍ اصطدم به وهو يسوق بسرعة.

كانت بضع ساعات، وبضع كلماتٍ، كافيةً لتُلقِيَ بعالمي المعقَّمِ داخلَ صندوق قُمامة هائل، ساحة قتالٍ يعلوها الغبار. لكن ما الذي كنتُ أفعله هنا؟ توقَّفت الدُّوَّامة فجأةً بعد عشر دقائق. كنَّا قد وصلنا أمام مَعلمةَ ستوبا الشهيرة.

«ادخلي من الباب الرئيس، هناك، وستعثرين بلا شك على الفندق إلى يمينك.

- أأنتَ واثقٌ من ذلك؟

- أوه أجل! أظنُّ ذلك حقّاً!».

ربَّتَ على العدّاد الذي كان قد توقف عن العمل خلال جولتنا

المجنونة، وانتهى به الأمر إلى أن يطلب مني 300 روبية، ما يعادل 2,50 يورو، دفعتُهُا بلا جدال. استعدتُ حقيبتي التي كانت لحسن الحظّ لا تزال فوق سطح السيارة. استأنف سائقي طيرانَهُ وهو يودّعني بإشارة من يده. اتّخذتُ سبيلي وسطَ زحام المارة المتعجّلين، وأنا أجرُّ حقيبتي ورائي. كان حشد هائلٌ من الناس يرتّلون التعويذات، وهم يطوفون حول المعْلَمة البوذية في اتجاه عقارب الساعة، مُحَرِّكينَ عجلات الصلاة[1] وأجراساً صغيرة. نظرتُ إليهم لحظةً، مشدوهةً، ثم اخترقتُ الحشدَ في الاتجاه المعاكس، ترافقني حقيبتي. كانت روائح البخور تطفو في الشارع صادرةً عن متاجر صغيرة جدّاً تبيع التذكارات المتعلّقة بستوبا وجميع مشتقّاتها. كان التجّارُ يحاصرون الساحةَ، ينتظرون جالسين أمام عينَي بوذا، الرهبانَ الباحثين عن مسابح جديدة والسيّاحَ المنجذبين إلى ذلك المقام الفريد. لمحتُ لافتةً تشيرُ إلى فندقي في اتجاه زقاق سلكْتُهُ. اجتزتُ الباب الحديديَّ وعبرتُ حديقةً غنّاء إلى أن وصلتُ إلى المبنى. توقف الضجيجُ في الحال. كانت حوالي عشر طاولات مستديرة حديدية منتشرة فوق العشب تستمتع بالشمس.

رحَّبتْ بي شابَّةٌ وهي تضمُّ يديها، ثم خفضتْ رأسَها في اتجاهي. «**ناماستي!** مرحباً! هل كان سفركِ مريحاً؟»، قالت لي بفرنسية مدرسية، بلكنة حادَّة.

كان بهوُ الاستقبال بسيطاً: تقومُ منضدةٌ مقامَ المكتب؛ وتَحُفُّ

---

(1) أداة ثقافية يستعملُها سكان التِّبت الممارسين للبوذية. وتتكون عجلة الصلاة التقليدية من أسطوانة مليئة بالتعويذات، وتستطيع أن تدور بِحُريّة حول محور - المترجم.

أريكتان من جلد بالٍ بكنبةٍ ذات ثلاثة مقاعد، بالية كذلك، وتتكدَّسُ أمتعةٌ إلى يمين المنضدة. كنتُ أتوق إلى الاستحمام والاستسلام للراحة، فوضعتُ حدّاً للحديث. «حجزت صديقةٌ لي غرفةً باسمي: مايبل غارنييه».

فحصت موظَّفةُ الاستقبال السِّجِلَّ واستأنفتْ قائلةً بالإنجليزية: «أجل، إنها جاهزة، في الطابق الأول، سيدتي. إن كنت ترغبين في تناول الغداء... الطبّاخ سيكون هنا لساعة أخرى، ويمكنني أن أقدِّم لك الطعامَ في الحديقة». وافقتُ بإيماءة من رأسي.

«سيكون الماءُ الساخنُ متوفراً ابتداءً من الساعة الخامسة.

- كيف ذلك، في الخامسة؟

- نعم! نسخِّنُ الماءَ بالطاقة الشمسية. نحن مجهَّزون جيّداً. يمكننا أن نُشغِّلَ سخانات الماء قبل الجميع»، قالت بافتخار.

قبل الجميع؟ فكيف سيكون الأمرُ في الفنادق الأخرى؟

«لهذا السبب زبائننا راضون جداً، لقد استثمرنا كثيراً في هذا النظام الحديث في العام المنصرم.

- طيّب، شكراً»، تنهَّدتُ، مُرْهَقةً.

أخذتُ المفتاحَ الذي قدَّمتْهُ لي.

«أمرٌ آخر: تحدث هنا انقطاعات كهرباء متكررة يوميّاً».

انقطاعات كهرباء؟ رائع!

«لكن اطمئنِّي، إنها تحدث وفق تخطيط مسبق».

تخطيط مسبق... أكيد!

«بالنسبة إلى هذا المساء، سيحدث الانقطاعُ من الساعة السابعة إلى العاشرة. ستجدين شموعاً فوق منضدة السرير».

نظرتُ إليها وقد علَتْني الخيبةُ. لم أكن أعرف أيَّ عالم هبطتُ فيه، لكنني كنتُ واثقةً من أمر واحد: لن أبقى فيه طويلاً! صعدتُ الدرج خائبةً، يائسةً من أن يساعدني خادمٌ في حمل الحقيبة.

«معلومةٌ أخيرةٌ سيدتي!». ما الذي تبقّى لديها لتُخبرني به؟ شعرتُ وكأنني في أفظع كوابيسي. التفتُّ نحوها. دارتْ بخطى سريعة حول الشبّاكِ وقدَّمتْ لي رسالةً. «لديَّ بريدٌ من أجلكِ». بريد؟ التفاتةٌ لطيفةٌ منكِ يا رومان!

ارتقيتُ بصعوبة الدرجات المغطّاة بمربعات بيضاء ورمادية إلى غاية الطابق الأول. كان الوصولُ إلى الغرفة عن طريق ممرٍّ يُطِلُّ على الحديقة. فتحَ المفتاحُ قفلاً يربطُ بين حلقتين تكفي ركلةٌ خفيفةٌ لكسرهما.

كانت سعةُ الحجرة نحو عشرة أمتار مربَّعة: يحتلُّ سريرٌ كبيرٌ معظمَ الفضاء؛ منضدة السرير من خشب مصبوغ بالبرنيق، فوقها ثلاث شمعات داخل قدح؛ أريكةٌ من خوص مسندة إلى الجدار، مشجبٌ ثلاثيُّ الأرجل يحاكي برجَ بيزا، وفي العمق حمّامٌ من الواضح أنه لم يُرَمَّم منذ الأصل. ولجتُ الفجوةَ: رشّاش ماء على الطريقة الإيطالية، لا يُمسِكُ الصنبور سوى سلك حديديٍّ؛ وحوضٌ عتيق مصنوع من المينا ترقُدُ فوقه قطعةُ صابون ناجية، ومرحاض عليه طبقاتٌ من التكلُّس تسمحُ لأيِّ عالم آثار متدرِّب أن يُحدِّدَ سَنَةَ افتتاح الفندق. أدرتُ مقبضَ الصنبور، فشرعت الأنابيبُ ترتعدُ قبل أن تبصُقَ وهي تسعُلُ ماءً مصفرّاً من المنقار. واحتاجت الشبكةُ إلى بضع ثوانٍ لتستعيد صبيباً متسقاً. رفعتُ رأسي فلمحتُ في المرآة انعكاسَ سحنتي الكئيبة فضاعفَتْ كآبتُها من بؤس ذلك الديكور. رائع، يا رومان! لم تُبَذِّري مالَكِ، لقد عوَّدْتِني على أفضل من هذا.

كنتُ منهكةً، فتمدَّدتُ فوق السرير. فتحتُ الرسالةَ، المكتوبةَ بالإنجليزية.

«عزيزتي مايبل،

سيتعذَّرُ عليَّ أن أُسلِّمكِ الكتابَ في الفندق. أنا مضطّر أن أسافر اليومَ إلى منطقة في الهيمالايا تبعد بضعة أيام من المشي، استجابةً لحالة طبيّة مستعجلة في أحد الأديرة.

سأحملُهُ معي. طلبتُ من شانتي[1]، وهو مرشد نيبالي، أن يقودكِ إليَّ. إنه صديق، وسيعرفُ كيف يُنظِّمُ هذا السفر من أجلك ويحرص على سلامتكِ. سيزورك في فندقكِ يومَ وصولكِ ويشرحُ لكِ كلَّ التفاصيل.

أنا آسف لهذا الطارئ، لكنني واثق من أنَّكِ ستتفهّمين الأمر.

بكلِّ تقدير،

جيسون».

هذا مزاح! لماذا لم يترك الكتابَ عند مُرشده؟ هذا الرجل يسخر مني! استعر الغضبُ بداخلي، فقفزتُ من السرير وحاولتُ الاتصالَ برومان. ومرَّةً أخرى، لم أجد من مُحاور سوى علبة الرسائل الصوتية. بدأت البطاريةُ تومِضُ، تُعلِمُني أنها ستخذلني، هي الأخرى. بحثتُ عن مقبس كهربائي فوجدتُهُ خلف الأريكة. خبرٌ سارٌ: المقبس يعملُ! استغرقتُ ربع ساعة كاملة لأستعيد هدوئي. استبدَّ بي تعبُ السفر، فنمتُ وأنا أرجو أن تكون أفكاري جليَّةً عند الاستيقاظ.

---

(1) اسم نيبالي يعني «سلام» باللغة السانسكريتية - المؤلِّفة.

مرّتْ أكثر من ساعتين قبل أن أستعيد وعيي بالوضع. أمرٌ تلو الآخر: الحمَّامُ أوَّلاً، ثم الغداء. استعاد جسدي، تحت الماء الساخن، بعضَ طاقته. ارتديتُ ملابسَ نظيفة ونزلتُ إلى بهو الاستقبال. كانت الشابّةُ قد تركتْ مكانَها لسيِّدةٍ في حوالي الستين من العمر، طويلة القامة، وأنيقة، ذات شعر طويل وناعم. خاطبتني بإنجليزيةٍ لا بأس بها.

«أنتِ مايبل، أليس كذلك؟ أنا مايا، صاحبة الفندق. حدَّثَتْني صديقتُكِ رومان عنكِ. أنا سعيدة بالتعرُّف إليكِ!».

لم أعرف ما أقول. اختفى غضبي أمامَ لُطف تلك المرأة.

«أنا سعيدة أيضاً.

- لا بدَّ أنَّكِ جائعة! أعدَّ كاراس، طبّاخي، لهذا المساء، **كاشي كو ماسو**، كاري ضأن نيبالي تقليدي. إنه لذيذ جدّاً!».

قبلتُ بسرور. «أترغبين في الاستمتاع بالشمس في الحديقة؟». فكرة جميلة! التحقتْ بي مايا في الفضاء الأخضر. كان الهدوءُ الذي يسود في ذلك المكان على بعد أمتار قليلة من الزحامِ أمراً لا يُصدَّق.

«اتَّصلَ شانتي حينما كنتِ نائمة. سيأتي إلى الفندق بعد ساعتين». بدا أنَّ مايا تعرفُهُ، فعبَّرتُ عن دهشتي بطريقتي الخاصة في تحريك الحاجبين.

«أوه! شانتي صديق قديم! لقد رافقني في مهمّاتٍ إنسانية بالهيمالايا. وُلِدَ في بانكبوش، وهي قرية صغيرة قربَ الإيفريست.

- هو يعرفُ الجبلَ إذاً؟

- أكيد! يعرفُ جميع أسراره، سترين! ما كنتِ لتجدي مرشداً أفضل منه، سيقودكِ إلى وجهتكِ بسلام، لا تشكّي في ذلك!

- هل تعرفين وجهتي؟

- لا! أنتِ وحدكِ تعرفين ذلك، قالت مازحةً.

- آه كلّا، عليَّ أن ألتحق بشخص يُدعى جيسون وليس لي أدنى فكرة عن المكان الذي يوجد فيه...

- أجل، لقد شرحتْ لي رومان الأمر، يتعيَّنُ عليه أن يُسلِّمَكِ كتاباً من أجلها.

- أأنتِ على علمٍ بالأمر؟ ما رأيكِ في ذلك؟».

فكَّرتْ لحظةً، ثمّ قالت:

«يجب فعل كلّ ما يمكن فعلُهُ من أجل إنقاذ شخصٍ نُحبُّهُ. كلُّ شيء، بلا استثناء.

- لهذا أنا أتيتُ. لكني أريدُ أن أعرفَ رأيَكِ في جيسون. هل تعرفينه؟

- رأيتُهُ مرّة واحدة. إنه شديد الانشغال بأبحاثه حول السرطان، ويمنحُ ما يتبقى من وقته للتِّبتيِّين. فمنذ أن تعرَّضوا للنفي، استقبلهم النيبال، لكن دون أن يمنحهم أيَّ صفة اجتماعية، فتسعى جمعيّتُهُ إلى علاجهم ودمجهم في المجتمع.

- وهل تعتقدين أنّه يمكن لكتاب أن يكشف حقائقَ لا نعرفها؟

- لستُ أدري، لكن يحدثُ كثيراً أن يقودنا السبيلُ الذي سلكناهُ إلى أماكن أخرى غير تلك التي تخيَّلْناها».

نظرتُ إليها حائرةً. «ليس لديَّ حلٌّ لسؤالكِ، لكنَّكِ لو أصخْتِ السمعَ إلى ما سيحدُثُ، فسترين أنَّكِ ستجدين إجاباتٍ على أسئلةٍ لم تطرحيها على نفسكِ بعدُ!». لم أفهمُ شيئاً، لكن تعبَ اختلافِ التوقيت منعني من إبداء أي ردّ فعل. وضعت امرأةٌ شابَّةٌ طبقي فوق المائدة. نهضتْ مايا. «سأتركُكِ لتستمتعي بالطعام. يمكننا، إن

شئتِ، أن نتجوَّلَ قليلاً في بودناث قبل حلول موعدكِ مع شانتي». وابتعدتْ بأناقة الفراشة وخفَّتها.

كانت روائحُ الكاري، سمفونيةُ عطورٍ غريبةٍ حقيقيةٌ، تناغي منخريَّ. صنع ذلك الطبقُ الهنديُّ تشكيلةَ ألوان من الأصفر، والبُنِّيِّ، والذهبيِّ. غاصت بي اللقمةُ الأولى في نكهات الشرق الأقصى المتَبَّلَة. وكانت العطور تستدعيني من الجهة الأخرى من الحدود: الهند، آخر رحلة لي رفقة توماس! قبل خمس سنوات تقريباً... بوليودُ سعادةٍ انقلبَ كابوساً ثلاثةَ أشهر بعد ذلك، عندما تخلَّى عني من أجل حمقاء ناقصة عقل، في اللحظة التي كنّا على وشك الانتقال للعيش معاً. يا له من وغد! اكتفى برسالة نصية ليضع بها حدّاً لثلاث سنواتٍ من الحبّ المجنون. لكن، ما الفائدة من العودة إلى ذلك الفصل من حياتي الذي كنتُ قد خلَّفتُهُ ورائي ومضيتُ قدماً، وإن كنتُ في الحقيقة لم أنتقل إلى أمر يؤبه له...

نظرتُ إلى هاتفي، باحثةً عن شبكة اتصالٍ متعذِّرة المنال. وأعادني ذلك الانقطاعُ عن العالم إلى وحدتي من جديد. جاء عصفورٌ ليحطَّ فوق الطاولة، وراح يلتقط فتات الخبز المنثور، وهو يفحصني بطرف عينه. خفَّفت تلك الغراماتُ القليلةُ المجنَّحةُ، وقد امتزجتْ بجمال ورود الحديقة في الخلفية، وتناغم العطور، من وطأة وحدتي. وعندما ابتلعتُ آخر لقمة، ظهرت مايا من جديد. كانت طمأنينتُها تُهدِّئُ من مخاوفي.

«يبدو من فراغ صحنكِ أنَّ الطعام أعجبكِ، أو إنك كنت جائعةً حقّاً، قالت ضاحكةً.

- طعامٌ ممتازٌ، فعلاً.

- أترغبين في جولة حول بودناث؟

- أجل، فالأمر يثيرُ فضولي!».

تقدَّمتني مايا نحو الباب في الطريق الضيّق المكوَّن من ألواح صخرية. كان حشد من الناس قد استولوا على المقام ويطوفون حول المعلمة بخطى حثيثة. كان بودناث مكاناً مهمّاً يحجُّ إليه البوذيون، وأحدَ معابد النيبال الرئيسة. كان المشهد مهيباً! كان الحيُّ يضمُّ بضعةَ آلاف من اللّاجئين التبتيين. منذ هروب الدالاي-لاما الرابع عشر عام 1959، أدَّى تدفُّقُ العديد من التبتيين على بودناث إلى تشييد ما يقاربُ الخمسين ديراً، و عدد من المعاهد البوذية، دلالة على أهمية ذلك المقام المرتبط بشدة بتأسيس لاسا[1]، حيث كان يقعُ على الطريق التجارية القديمة الرابطة بين المدينة ووادي كاتماندو. يتربَّعُ الستوبا في الوسطِ، وهو المعبد الأكثر هيبةً في النيبال بعلوِّه وقُطره البالغين أربعين متراً. ويوجد أسفله ثلاثة أرصفة تُمثِّلُ ماندالا[2]، يمكن للمؤمنين أن يسلكوها.

شرحتْ لي مايا، كأنها مرشدة حريصة على أن تعطي أكبر قدر من المعلومات لجمهورها، أنَّ كلَّ شيء في معمار ذلك المقام إنما هو رمز. يجسِّدُ الفضاءُ وعناصرُ الكون الأوَّليةُ العقيدةَ البوذيةَ: يمثِّلُ الأسفلُ الأرضَ، والقبَّةُ الماءَ، والبرجُ فوقها النارَ، والتاجُ الهواءَ، واستدارةُ السقف الأثيرَ. دعتْني إلى أن أسير بالإيقاع نفسه الذي يسير به روّاد المقام، ثم توقَّفت عند بعض تلك الكُوى التي يبلغ عددها مائة وثمانية، مشتملة كلُّ واحدة منها على تمثال لبوذا، لتُفسِّر لي تاريخَها. كان حضورُ تلك المرأة الشغوفة يأسرني.

---

(1) العاصمة التقليدية للتبت، وتقع عند سفح جبل جيفيل - المترجم.

(2) جدول بيانيٌّ يرمزُ في معظم الأحيان إلى تطوُّر أو تقهقر الكون. يشكِّلُ وسيلةَ تأمُّل للكثيرين - المؤلِّفة.

«كما يمكنك أن تشاهدي في الأعلى، رُسِمت عيون مُعَبِّرةٌ على الواجهات الأربع، تستقصي نظراتُها الاتجاهات الرئيسة الأربعة، مُذَكِّرةً البوذيين بحضور بوذا وتدخُّله في حياتهم. يتكون الجزء العلويُّ، ذو الشكل الهرميِّ المستطيل، من ثلاث عشرة درجة، هناك، أترين؟ تفصلُ نصفَ الكرة عن استدارة السقف وترمزُ إلى الدرجات الثلاث عشرة التي يجسِّدُها الطريقُ نحو الصحوة، ثلاث عشرة مرحلة والوصول إلى المعرفة الكاملة: 'بوذي' أو 'بوذا' ومن ثَمَّ اسم 'بودناث'».

أمسكتني مايا من ذراعي وانخرطتْ في مبنى عبر باب ضيِّق. «اتبعيني، أدعوكِ إلى شرب شاي بالزنجبيل». ارتقينا بسرعة درجات عالية مغطَّاة ببلاط أبيض عبر خمسة طوابق، تُفضي إلى سطيحة محاطة بأشجار التُّويا حيث كانت توجد كراسي متناثرة يتسابق عليها سيّاحٌ من كلِّ صنف. كانت روائحُ الدهان تفشي الترميمات الحديثة، كما تكسو خريطةُ كاتماندو ووادِيه الجدارَ إلى اليسار، بين عودين كبيرين من أعواد الخيزران. دلَّتْني مايا على موقعنا البعيد عن المركز على حدود المدينة الشرقية.

«هيّا، جهد أخير! أريد أن أقودكِ إلى هناك في الأعلى». أشارتْ إلى سُلّمٍ في العمق إلى اليمين وسبقتْني إلى ارتقائه بخفَّةٍ. وما أن وصلتُ حتى وجدتني أسيرةَ نظرة بوذا التي تقابلني. كانت عيناه المبتهجتان في علو ثلاثين متراً تخترقاني بحكمتهما، وكسوتُهُ البيضاء المصبوغة بأشعة الشمس الأخيرة تُرخي بانعكاساتها البرتقالية. تقدَّمتُ إلى طرف السطيحة وأطللتُ متأمِّلةً مشاهدَ الصلاة البالغة الصغر.

دعتْني مايا إلى الجلوس إلى أقرب طاولة إلى عينيِ العملاق

العطوفتين. هرعت نادلةٌ نحونا وانحنتْ علامة على الاحترام. طلبتْ مايا الشاي. كان المكان ساحراً وتوقَّفَ الزمنُ لحظةً.

«هل تعيشين هنا منذ مدة طويلة؟

- منذ عشرين عاماً. ولدتُ في الهند، في دارامسالا. عشتُ فيها طفولتي كلَّها، ثم تزوَّجتُ. اغتنمَ سالاج فرصةً في مجال العقار هنا في كاتماندو، فجئنا لنستقرَّ فيها. وهذا ما مكَّنني من أن أُكَرِّسَ عملي للجمعية التي أنشأتُها لمساعدة التِّبتِّيات على الاندماج».

توقفتْ عن الكلام، مركِّزةً نظرَها على الستوبا. تحقَّقتُ من شبكة الاتصال: لا تزال منعدمة. أطفأتُ هاتفي وأعدتُ تشغيلَهُ لأعيد ضبط الاتصال، لكنني لم أحصل على شيء.

«وأنتِ، كيف حالكِ، يا ماييل؟

- كيف حالي؟... بخير...

- هذا ليس سؤال مجاملة، أنا أسألكِ كيف حالكِ حقاً».

فاجأني إلحاحُها، إذ كانت هذه، بلا شك، المرة الأولى التي أُسألُ فيها ذلك السؤال ويُنتَظَرُ مني أن أجيب إجابةً صادقةً. تأثَّرتُ لانشغالها بحالي.

«أنا بخير، يا مايا، متعبة قليلاً بفعل السفر.

- أُشعرُ بكِ قلقةً بشأن هاتفكِ.

- شبكة الاتصال غير متاحة منذ وصولي.

- هل أنتِ بحاجة إليها على بعد ثمانية آلاف كيلومتر من حياتكِ؟

- أجل، دائماً! يتوجب عليَّ أن أتابع عن كثب الملفّات التي تركتُها معلَّقَةً قبل أن أسافر.

- هل أنتِ ضرورية إلى هذا الحدّ؟ أتعتقدين أن غيابكِ مدَّةَ

بضعة أيامٍ يمثّلُ مشكلةً بالنسبة إلى زملائك؟ هل لديكم خلل في التنظيم بحيث ينزل الثقلُ كلُّهُ على كاهلكِ؟».

لم أستطع أن أُدرِكَ إن كانت ساذجةً أم ساخرةً. غير أنَّ نظرتَها ونغمة صوتها أكَّدتا ثانيَ الافتراضين، وهو الأمر الذي لم يرقني.

«أديرُ شركة يعمل فيها ثلاثمائة شخص، ونحن نمرُّ بمرحلة دقيقة ترتبطُ ببيع الشركة لمجموعة كبيرة في غضون بضعة أيام، وغيابي هو مشكلة بالفعل، فالأمرُ يتعلق بملايين اليوروهات.

- لماذا جئتِ إذاً؟

- من أجل رومان، ينبغي أن أحصل على ذلك المخطوط، وأعتقد أنَّكِ على علمٍ بالأمر!».

أغاظتني أسئلتُها. من تكون لتطلق عليّ الأحكام؟

«مايبل، إنْ كان ذهنُكِ وقلبُكِ منشغلين بعيداً، كيف ستستطيعين أن تعيشي هذه الرحلة بصفاء؟ أيّ سعادة ستجدين فيها؟

- أوه، يا مايا، اهبطي إلى الأرض! أنا لستُ هنا من أجل الاستمتاع، لستُ في عطلة! جئتُ لآخذ ما طلبتْهُ مني صديقةٌ وسأعود إلى فرنسا لأستأنف حياتي. هذا ليس خياراً، إنما هو واجبٌ، ألا ترين ذلك؟

- أتقولي إنَّ أحداً ما أرغمكِ؟».

تنهَّدتُ بصوتٍ عالٍ.

«مايا، أنت ذكيّة، لا تتظاهري عدمَ الفهم. رومان مريضة جدّاً، وإذا كانت تلك الكتابات يمكن أن تساعدها بطريقة أو بأخرى، كان عليَّ أن آتيَ إلى هنا، أليس كذلك؟

- طيّب، لكن الآن وقد اخترتِ أن تكوني هنا، لِمَ لا تعيشين هذه التجربة في البهجة بدل الاضطرار؟

- كيف لي أن أجد أيَّ متعة هنا؟ لا أريد أن أسيء إليكِ، لكن انظري، لا شيء يسود سوى البؤس، والبرد، والغبار، ولا وجود لشبكة اتصال، والكهرباءُ عرجاء، والراحةُ مهدَّدَةٌ، وغرفة الفندق نتنة! أشعر أني تراجعت عدةَ قرون!

- أنت على حق، ظروف المعيشة هنا مختلفة عن تلك الموجودة في الغرب، غير أني أعتقدُ أنَّ انزعاجكِ له مصدرٌ آخر.

- حقاً؟ أتعتقدين ذلك؟ وما هو مصدر انزعاجي في رأيكِ، أنتِ التي تبدين أنَّكِ تعرفين كلَّ شيء؟

- الأفكار المسبقة التي تكوَّنَتْ لديكِ عن هذا المكان».

أعترفُ أنَّ تلك الأفكار لم تكن تساعدُ على تجميل المشهد الحزين الذي كان يبدو أنَّ مايا لا تراهُ بالصورة نفسها. وضعت النادلةُ كأسين ساخنين على الطاولة، ثم انحنَتْ أمامنا واختفتْ.

«نحن الآن في يوم سبت، فلا بد أنَّ زملاءكِ مستريحون في هذه الساعة. انسيْ هاتفكِ، لن يفيدكِ هذا المساءَ، اعرضي وجهكِ لأشعة الشمس الأخيرة واستمتعي بهذه اللحظة». شربتُ جرعةً ساخنةً. كانت مايا على حق، لن أحصل على شيء من باريس. امتثلتُ لاقتراحها واستسلمتُ لدفء آخر النهار، تهدهدني تراتيلُ الحشود المنظَّمة. كانت العصافيرُ تُغرِّدُ على بعد أمتار منّا، في الشجرة التي كانت تقوم لنا مقامَ المظلَّة، كأنها تُصلِّي مع المصلِّين.

أخذتُ نَفَساً عميقاً، فتبخَّرَتْ جميعُ أفكاري مع مخاوفي. كنتُ بخير. فتحتُ عينيَّ بعد دقائق على منظر رائع: اكتسَتْ بودناث لوناً برتقالياً لامعاً، بفعل آخر أشعة كرة النار التي كأنها كانت تنتظرُ أن أعيرها انتباهي كي تنزل للغروب. شاهدتُ الشمسَ تعرضُ أجملَ مشاهدها وأنا أكملُ تناول مشروبي. وأعادت إليّ عذوبةُ الشراب

الابتسامةَ التي كانت مايا تحاول أن تهديني إياها على الرغم مني. غمرني هدوءٌ غير معهود. تركنا الشمسَ تعملُ عملَها وتأمَّلنا من أعلى المشهد الساحرَ بصمت.

«أودُّ أن أقول لكِ أمراً أخيراً قبل موعدكِ مع شانتي. كلُّ لحظة تُضيِّعينها في الاستسلام للحزن لن تُرَدَّ إليكِ أبداً. فأنتِ تعلمين أين تبدأ حياتُكِ، لكنك لا تعلمين متى تتوقف. كلُّ ثانية نحياها إنما هي هديّة لا يَجْمُلُ بنا أن نهدرها. السعادةُ نحياها الآن. فإنْ كنتِ تعتقدين أنَّ وجودَكِ هنا هو من باب أداء واجب فحسب، فإنك ستعيشين أوقاتاً صعبةً في الساعات القادمة، لأنَّ الجبل مرآةٌ عملاقةٌ. إنه انعكاس روحكِ... انعكاس حالة وجودكِ. يمكنكِ أن تختاري اغتنام الفرصة المتاحة لكِ، أن تعيشي هذه الرحلة بطريقة مغايرة، بالتوقف عن المقارنة مع ما أنتِ، وما تعرفينهُ، وثقافتكِ، ومستوى عيشكِ، ورفاهيتكِ. إذا قبلتِ أن تلاحظي، من دون أن تحكمي، بنظرة جديدة، وأن تنسي كلَّ ما رأيتِهِ من قبل، فعلى الرغم من جميع هذه الاختلافات، ستكتشفين عالماً جديداً يمكنكِ أن تستمتعي فيه استمتاعاً أكبر من ذاك الذي تعرفينه. ليست الغاية أن تُقيمي في النيبال، بل أن تُجرِّبي أمراً آخر. أأنتِ مستعدة لقبول التحدِّي؟».

كنتُ حديثة العهد بتجربة بصرية وسمعية نادرة، لم أشعر بها منذ زمن طويل. دفعني اقتراحُ مايا إلى التفكير. لِمَ لا أحاولُ؟ استهوتني اللعبة. ما دمتُ هنا الآن، فلأغتنم الفرصة.

«أنا سيدةُ التحدِّيات!

- ستستمتعين إذاً.

- ما الذي ينبغي أن أفعله؟

- أن تتخلّي عن يقيناتكِ وأن تكتشفي كلَّ شيء لأول مرة، مثل طفل صغير ينبهر بكلِّ شيء.

- أظنُّ أنني أستطيع أن أفعل ذلك!».

ابتسمت مايا ثم نظرت إلى ساعتها. كان قد حان وقتُ العودة، فلا بد أنَّ شانتي في انتظاري.

وبينما كنا نُنهي طوافَنا حول الستوبا، اقترحتْ عليَّ مايا أن أبدأَ التمرينَ: «تحدَّيْ جميعَ حواسِّكِ وأنصتي إلى هسيس الحياة». صمتتْ وتأمَّلتْ. ألقيتُ نظري على الألوان، وأحسستُ بالبَخور يقتحمُ منخريَّ، وأرخيتُ سمعي، أُنصِتُ إلى كلِّ واحد من المريدين وهو يهمسُ بصلواته. ابتسمتُ وأنا أكتشفُ نفسي مختلفةً. كان كلُّ شيء جديداً فعلاً. صحيح أنَّ الإطار والعادات لم تكن لهما صلة بحياتي اليوميَّة، وأنَّ ساعدني ذلك على أن أتأمَّلَ كأنني أتأمَّلُ لأول مرة. وكانت هذه في الحقيقة أول مرة!

نظرتْ إليَّ مايا بعطف. أربَكَتْني نظرتُها فبادرتُها بأسئلة أخرى: «أيُصلُّون طول الليل في الظلام، من دون كهرباء؟

- لا تقارني بما تعرفينه، انسي المصابيح، تخيَّلي طائراً يكتشف المكانَ، من دون وعيٍ محدَّد. أتعتقدين أنه سيتساءلُ عن هذه الأمور؟ كلَّا، سيعيشُ اللحظةَ. واصلي التأمُّلَ كأن دماغكِ بكر. انظري دون أن تُضيفي أي تفكير».

بدأتُ أفهمُ أنَّ اللعبة لم تكن بهذه السهولة. كلَّما واتَتْني فكرةٌ، تكون مسكونةً بمعارفي، وثقافتي، وعقائدي. أبعدْتُ أسئلةً عديدةً لأنها جميعها كانت تُبعِدُني عن اللحظة، ولكنني لم أكن أُفلِحُ في فصل الحاضر عن ذكرى ما، مهما تكن.

سلكتْ مايا الممرَّ الصغيرَ الذي يُفضي إلى رواق الفندق ثم إلى بوابته الحديدية. التفتتْ نحوي، فقاطعت أفكاري.

«لا تقلقي، فأنتِ إن شئتِ، ستتمكَّنين من ترويض دماغكِ. لا يتطلَّبُ تحقيقُ الوعيِ سوى لحظة عندما يكون المرءُ مستعدّاً، لكن تغيير العادات المكتسبة على مدى أعوامٍ عديدة يتطلَّبُ بعضَ الوقت.

- لستُ أدري إن كان ذلك يطمئنني...

- أتعتقدين أنكِ إن شرعتِ في ممارسة الرياضة، ستنحتين جسدَكِ في بضع دقائق من المجهود؟ كلُّ حصة تدريب ستُساهِمُ في نجاح المشروع. الرغبةُ لا تكفي، لكنها أصل كلِّ إبداع».

بيد أنني كنتُ بعيدة كلَّ البعد عن قاعة الرياضة!

كتابة أو صورة

«لا يمكنكَ إيقاف الأمواج، لكن يمكنك
أن تتعلَّمَ ركوبَها».

جوزيف غولدشتاين

كانت شموعٌ تُنيرُ الطاولاتِ حول الممرِّ الذي يعبُرُ الحديقة، وصار الهواءُ بارداً، لكنَّ الجوَّ المريح كان يدعو إلى الاستمتاع بذلك الملاذ، ملاذ السِّلم. كان شانتي جالساً قرب المدخل، فنهض لرؤيتنا. سلَّمَ على مايا بعناقٍ ودودٍ والتفتَ نحوي. شدَّ على يدي مصافحاً، ثم غطَّاها بيده الأخرى بحرارة.

كان الرجلُ قصيراً، وكان وجهه الذي لوَّحتْهُ أشعةُ الشمس وعيناهُ الضاحكتان اللتان تُفاقمان من تجاعيد وجهه الرفيعة، يؤكِّدان أصولَهُ. «لي الشرف أن أقودَكِ في الهمالايا من أجل تلك المهمة النبيلة وسأبذلُ كلَّ ما في وسعي لتستمتعي بالرحلة قدر الإمكان». كانت لكنَتُهُ النيبالية تجعلُ إنجليزيته مستعصيةً على الفهم. دعاني إلى الجلوس إلى طاولته.

«يجبُ أن نتفق على المسار الذي سنسلُكُهُ وينبغي أن أُحذِّركِ

من الأخطار التي تنتظرنا. هل نبَّهَكِ أحدٌ إلى الظروف المناخية التي يمكن أن نواجهها في هذه الفترة؟

- عمَّ تتحدثُ يا شانتي؟ إنَّ من يستمع إليك يظنُّ أننا ذاهبان في رحلة إلى مركز الأرض»، قلتُ ضاحكةً.

أدهشَهُ قولي فالتفتَ نحو مايا التي هزَّتْ كتفيها دون أن تنبس ببنت شفة.

«أخبرني، إلى أين نحن ذاهبان؟ كان من المفترض أن أستلمَ كتاباً عند وصولي إلى الفندق وأعود بعد ذلك بساعات قليلة.

- إن كنتِ ترغبين في العودة بذلك الكتاب، فستحتاجين إلى أكثر من بضع ساعات!».

أخرجَ خريطةً من محفظته ونشرَها فوق الطاولة. تعرَّفتُ على سلسلة الهيمالايا المترامية. أشار بأصبعه إلى موقعنا ثم إلى موقع جيسون، في قلب سلسلة أنابورنا.

«كما ترين، موقع جيسون ليس قريباً. يوجد أمامنا العديدُ من المسارات، لكنني أقترحُ أن ننطلق من كانديه، ونَمُرَّ عبر أوستراليان كامب، ونصعد عبر لاندروك، وجينو داندا، وبامبو، وأخيراً دورالي للوصول إلى معبد أنابورنا. يتطلب الأمرُ يوماً إضافياً من السير، لكن هذا الطريق أقلّ وعورة من طريق الشرق. سنحتاج إلى خمسة أو ستة أيام لبلوغ القمة، ويومين أقل من ذلك للنزول منها، إنْ سار كلُّ شيء على ما يُرام. ما رأيكِ في هذا؟

- أظنُّ أنَّ هناك خطأً ما. أنا لستُ مستعدَّةً لهذا النوع من النشاطات وليس لديَّ من الوقت ما يسمحُ لي بأن أسافر مدَّةَ عشرة أيام».

ارتبكَ شانتي، فطوى الخريطةَ وتنهَّدَ.

«سينبغي إذاً أن تتخلّي عن الحصول عمّا جئتِ في طلبه.

- مستحيل! هذا هراء! لا بد أنَّه يوجد وسيلة لبلوغ المعبد بواسطة مروحية. سأتكفَّلُ بالمصاريف، طبعاً!

- بالتأكيد، لكنَّ هذا سيثيرُ الانتباهَ إلينا، وليس الأمرُ في صالحنا حالياً!

- لماذا؟ أنتَ لا تُخبرني بكل شيء؟».

استبدَّ بي القلقُ. التفتَ شانتي نحو مايا التي أومأتْ إليه برأسها مؤكِّدةً ثقتَها في شخصي.

«يُؤوي المعبدُ تبتيّين مطلوبين للشرطة النيبالية. وقد عقدت الصينُ اتفاقاً مع السلطات كي يُسلِّموا لهم أولئك الأشخاص الذين يعتبرونهم مصدر تحريض وتهديد. يتوجب علينا أن نكون حذرين. سافر جيسون إلى هناك على عجلٍ، لأنَّ وباء الأنفلوانزا ضربَ المنطقة. وبما أنه لم يكن يعلمُ إن كنتِ ستحضرين، فقد فضَّلَ أن يحتفظَ بالمخطوط معه. فصديقتُكِ لم تؤكِّد وصولَكِ إلا البارحة، وكان جيسون حينئذ قد غادرَ كاتماندو.

- أليس من وسيلة أسرع للوصول إلى هناك؟

- كلا، لا وجود لعربة تسيرُ في الجبل».

بحثتُ عن حَلٍّ، لكن كان من الواضح ألَّا وجود لحلول. ما العمل؟ استولى عليَّ الإحباطُ، وأمهلني شانتي ومايا ما يكفي من الوقت لأستوعب الخبرَ. لم ينبسا ببنت شفة إلى أن قرَّ قراري.

«كلَّا! كلَّا، كلَّا، يجب عليَّ أن أعود، لا يمكنني أن أتغيَّبَ عن باريس وقتاً أطول. زملائي في حاجة إليَّ، لا بد أنكما تفهمان ذلك! ثم إنِّي هنا لا أستطيع حتى الوصول إلى شبكة اتصال...

- خيارُكِ سيكون صائباً، إنِ اخترته لأسباب صائبة. تلك الأسباب التي يُمليها القلبُ.

- لا أفهمُ ما تحاول أن تقوله لي!

- دعيني أُخمِّن الأمرَ. أنا واثقٌ من أنَّ لديكِ مساراً دراسيّاً ناجحاً مكَّنَكِ من أن تستخدمي عقلكِ بشكلٍ صحيح. وهذا أمرٌ مفيدٌ في حالاتٍ كثيرة. لكن ماذا عن قلبِكِ؟ مَنْ علَّمَكِ أن تُنصتي إليه؟ إنَّ الحسمَ في اتِّخاذ هذا النوع من القرارات من دون الشعور بأيِّ نَدَمٍ لا يتطلَّبُ من المرء أن يكون قويّاً في حساب الاحتمالات، بل يكفي أن يُنصتَ إلى ذلك النبض الداخليِّ. إنه الوحيد القادرُ على أن يقودَكِ في طريق حياتِكِ، في الطريق الذي يناسبُكِ والذي سيأخُذُ بيدِكِ إلى تحقيق ذاتِكِ».

كان حديثُهُ، الذي لم أجرؤ على مقاطعته، يشبه حديثَ غورو[1] تابع لطائفة دينية، غير أنَّ طمأنينته كانت مثيرةً. كان يشعُّ منه نورٌ غريب، وحضورُهُ يُشعرني بالارتياح. شعرتُ بفضولي يتَّقدُ.

«دماغي وقلبي عضوان ضروريّان لاستمراري في الحياة. لا أعتقد أنه يمكنني أن أتَّخذ قراراً بواسطة أحدهما دون الآخر. كلُّ خيار في حياتي إنما هو تأمُّلٌ عميقٌ في مختلف البدائل. لم أعدْ في عمر يسمحُ لي بالإقبال على أمر دون رَوِيَّةٍ.

- لا يتعلَّقُ الأمرُ بالتصرُّف بطريقة غير معقولة، إنما المقصود تهدئة صراخ الهلع لتتمكني من سماع نشيد رغباتكِ. أأنْصَتِّ إلى ما يرغبُ فيه قلبُكِ أم أنَّكِ استسلمتِ لضوضاء مخاوفكِ؟

---

(1) Gourou: مرشد روحي تابع لتقاليد دينية نابعة من الهندوسية، أو البوذية، أو السيخية أو غيرها - المترجم.

- أوه. . . لستُ أدري، لم أطرح على نفسي هذا النوع من الأسئلة من قبل.

- هنا يكمن الإشكال! لماذا جئتِ؟

- أنتَ تعرفُ ذلك، لأحصل على تلك الطريقة!

- لماذا التخلّي عن الأمر إذاً وقد وصلتِ إلى هنا؟

- لأنه لم يكن عليَّ سوى القيام برحلة ذهاب وإياب. لا يسمح لي عملي بأن أبقى عشرة أيام، سيكون ذلك تصرُّفاً غير مسؤول مني في فترة عمل تشهد ضغطاً مثل هذه الفترة».

أريتُهُ شاشةَ هاتفي المحمول بانفعالٍ.

«انظر، ما زلت لا ألتقطُ أيَّ شيء!

- أجل، أرى ذلك، لكن هل تعتقدين أنَّ مؤسَّستكِ ستنهارُ في عشرة أيام؟

- نعم، أقصد لا. . . لكنَّ يوماً ضائعاً يصعبُ استدراكُهُ.

- طيِّب. ما الذي يجعلُكِ تتخلَّين عن الأمر إذاً؟».

فكرتُ لحظةً. كانت لديَّ فكرةٌ، لكنني كنتُ أجد حرجاً في عرضها.

«لا أظنني مستعدَّةً جسديّاً للسفر في الجبل، خصوصاً برفقة أشخاص لا أعرفهم، وإلى وجهة غير آمنة.

- أفهم اختيارَكِ على نحوٍ أفضل الآن: أنتِ تخافين ألاَّ تتمكَّني من ذلك، وأنْ تجدي نفسَكِ وحيدةً مع غرباء، وأن يخيبَ أمَلُكِ وألَّا تعودي بالمخطوط. دماغُكِ يُثَبِّطُ من عزيمتكِ ويجد لكِ الأعذارَ ليُقنِعَكِ بالعودة: 'ليس الأمرُ من مستواكِ، لستِ رياضيةً، وإنما مثقفة، قد يكونَ هؤلاء الناس محتالين، وإذا كان الكتاب لا وجود له. . .'. وإن كانت هذه الشكوكُ غير كافية لإقناعِكِ، فإنَّ ذلك

الصوتَ يستعملُ أسلحةً أخرى من قبيل الشعور بالذنب: 'كيف يمكنكِ أن تتخلَّيْ عن موظَّفيكِ؟ أتعتقدين أنَّكِ لديك من الوقت ما يسمح بهذا الضرب من التسلية؟ إلخ'».

ابتسمتُ. كان هذا بالفعل ما أسمعُهُ يتردَّدُ في ذهني.

«الآن وقد حدّدتِ مخاوفَكِ، أيمكنُكِ أنْ تُخبريني بما كنتِ ستفعلينه لو لم تكن تلك المخاوفُ موجودة؟ ما هو القرار الذي كنت ستتخذينه لو أنَّ المسار سهلٌ ولا يحتاج إلى جهد، ولا يريد لكِ مرافقوكِ سوى الخير، ويوجد احتمالٌ كبيرٌ أنْ تعثري على ذلك الكتاب؟

- كنت سأذهبُ بالتأكيد، لأنَّ رومان مهمة جدّاً بالنسبة إليَّ، وإن توجدْ فرصةٌ لشفائها، أريد أن أمنحَها إيّاها. ثم... لأنَّ عشرة أيام من حياتي لا تساوي شيئاً مقابل إنقاذ حياة شخص أحبُّهُ كلَّ ذلك الحبّ».

كانت الكلماتُ تخرجُ من صدري. هزَّ شانتي رأسهُ عدّة مرّاتٍ، وركَّزَتْ عيناهُ في عينيَّ.

«وحدهُ قلبُكِ من شأنه أن يتَّخذَ هذا النوع من القرارات. فعندما تجاهلتِ مخاوفكِ، سمعتِ صوتهُ الهادئَ. لماذا لا تغتنمين هذه الفرصةَ وتتجاوزين مخاوفكِ؟ ألن تندمي على قراركِ غداً وأنتِ جالسة خلف مكتبكِ؟ أنا أعرفُ الجبلَ، سنمُرُّ بأوقات عصيبة، وستكون أحوالُ الطقسِ قاسيةً في هذه الفترة، لكن لا يخامرني شكٌّ في قدرتِكِ على إنجاز ذلك. فإنْ كانت لديك الرغبة، فسأقودُكِ إلى القمة، لكنني لا أستطيعُ أن أفعل أيَّ شيء من دونك.

- والفريقُ؟

- أنا أعرفُهُ جيِّداً، بما أنني أنشأتُهُ بنفسي: نيشال، الحمّالُ

الأول، يمتهنُ هذا العمل منذ ثلاثين عاماً، إنه صديق الطفولة. تيم، الحمّال الثاني، هو ابن أخيه، وهو يرعاهُ منذ صغره، إذ تخلّى عنه أبوهُ عندما أدركَ أنَّ الولدَ أبله. قد يكون فهمُهُ أبطأ من المتوسِّط، لكن لديه قلب كبير. سترين بنفسكِ، السَّفر معه متعةٌ، وهو متعلِّمٌ جادٌّ. وأخيراً، غومار، طبَّاخُنا، رجلٌ مُسَلٍّ، دائب المرح، وسيعرف كيف يُتحِفُنا في طعامنا أثناء الطريق. عبرتُ الهيمالايا سنواتٍ رفقتَهُ هو ونيشال. سينالان رضاكِ، هذا مؤكَّد! السؤال الذي ينبغي أن تطرحيه على نفسكِ هو: لماذا ستثقين فيَّ؟ لأنني المُرشد الذي اختارَهُ جيسون من أجلكِ ولأنه مقربٌ من صديقتك العزيزة. ألا يكفي ذلك؟».

ابتسمتُ.

«أنتَ مُفاوضٌ محنَّكٌ، يا شانتي.

– ليس لديَّ ما أبيعُهُ لكِ، لكنني سأحتفظُ بالإطراء. إذاً، إلامَ ستُقرِّرين الإنصاتَ؟ إلى دماغكِ ومخاوفكِ، أم إلى قلبِكِ وحبِّكِ لصديقتكِ؟».

غاصَ رأسي بين يديَّ، ومرفقاي يستندان إلى الطاولة. تضاربت الخياراتُ مدةَ دقيقة، ثم اعتدلتُ في جلستي، ودلكتُ صدغيَّ بحركة دائرية وأخذت نفساً طويلاً وأنا أُركِّزُ عينيَّ في عينيْ شانتي. «متى ننطلق؟».

حُسن حظٍّ أو سوءُ حظٍّ

«لا أرى سوى طريقة واحدة لمعرفة المدى الذي يمكننا أن نصل إليه. أن ننطلقَ ونشرعَ في السَّير».

هنري برغسون

كنتُ بصدد الانتهاء من تناول فطوري في شرفة الفندق. أُنصِتُ للصلوات الصاعدة من المعبد المجاور والأجراسِ الصغيرةِ التي ترنُّ بين التراتيل، وقد عرضتُ وجهي للشمس. كنتُ أخشى وصولَ شانتي، قلقةً ممّا سيتلو ذلك. السفر إلى الهيمالايا، أنا التي لم أكن أتحمَّلُ البقاءَ وحدي يوماً واحداً في البادية! بالإضافة إلى أني سأكون رفقة أشخاص لا أعرفهم ويتوجب عليَّ أن أثق فيهم. هل كان ذلك أمراً حكيماً؟ وكانت رومان لا تزالُ مستعصيةً على الاتصال. كيف أمكن لي أن أتخذ هذا القرار المجنون؟ كلما فكرتُ في الأمر، ازدادت سرعةُ ضربات قلبي، وأحسستُ بألمٍ قاهرٍ في معدتي.

اجتاز شانتي البوابةَ، وأشار إليَّ من بعيد. عبرَ الحديقةَ وارتقى الأدراجَ اثنتين اثنتين إلى أن وصل إليَّ.

«إنه اليوم الكبير! هل أنتِ مستعدّة؟

- كلّا، لم أعد واثقةً كلَّ الثقة في ذلك. لم أنَمْ جيّداً ولا أظنُّ أنني أملكُ اللياقةَ الجسديةَ لأجل... ثم إني...

- لا تقلقي، في اليوم الأول، سنسافرُ في السيارة أكثر من المشي. ستجدين الوقتَ للتعوُّد، سنسيرُ وفق إيقاعِكِ».

فحصَ شانتي نظرتي القلقة، ثم لاحظَ بمرح: «واصلتِ حديثَنا في ذهنكِ مساء أمس، وظلَّ ممسكاً بكِ طوال الليل. لذلك تشعرين بالقلق هذا الصباح. سيكون الأصعب أن تُروِّضيه وأن تُذكِّريه بمن يملكُ الزِّمامَ!». ودعَّمَ جملتَهُ بغمزة. «يجب أن ننطلقَ، فالطريق طويل، وينبغي لنا أن نصلَ إلى أوستراليان كامب قبل الليل».

انسقتُ خلف حماسه إلى غاية الباب. قبَّلتُ مايا، التي ضمَّتني إليها بقوة وهي تهمسُ في أذني: «استمتعي بهذه الرحلة. فكّري فيما قلتُه لكِ أمس: عيشي كلَّ لحظة كأنَّكِ مصابة بمرض النسيان، كأنكِ لا تعرفين شيئاً عدا ما تكتشفين».

قدَّمَ لي شانتي كارما، سائقَنا، ثم شحنَ أمتعتَنا في الحافلة الصغيرة. اتَّخذتُ مكاني في الصفِّ الثاني، وسطَ المقاعد الفارغة. عبرنا كاتماندو بصمت، يغمرُنا اضطرابُ حركة الناس في الصباح. كانت الشاحناتُ تُفرغُ حمولاتها، قاطعةً الطريقَ في وجه أصحاب السيارات الذين يفقدون صبرهم. وحدها ذواتُ العجلتين من كلِّ صنف كانت تتسلَّلُ ببراعة بين متاريس العربات. وكانت أبواقُ السيارات توقِّعُ بزعيقها ذلك البهاجان[1] النَّشاز.

توقفنا مدةً قصيرةً في تاميل لأقتنيَ ملابسَ للجبل - خاصة أنني

(1) نشيد ديني هندوسي - المؤلِّفة.

لم أحمل معي من اللباس إلا ما يكفي ليوميْ نهاية الأسبوع - ثم انطلقنا في طريق بريتفي السريع، وهو الطريق الرئيس المزفَّت ذو مسارين، يربطُ بين كاتماندو وبوكارا. لا وجود للأرصفة، فلا يفصلنا عن المساكن سوى شريطٍ أرضيٍّ رمليٍّ. وكانت البيوتُ، الصفيحيةُ في معظمها، تعرضُ على المارّة في جزئها السفليِّ خدماتٍ مختلفة: إصلاح الدرّاجات، جزارة، خياطة، بيع بضائع متنوعة... قد تكون تالفة!

أخبرني شانتي بأن علينا أن نقطع مائتي كيلومتر، أي ما يعادل خمس ساعات من الطريق. كنتُ مرهقةً. كنتُ قد قضيتُ ليلةً صعبةً وأُشعر بآثار اختلاف التوقيت. هجعتُ بعض الوقت، وعندما استيقظتُ، كانت تحفُّ بنا سلسلةُ جبال ماهابهارات، وتتعاقبُ قرى صغيرة تاريخية ومعابدُ عتيقة.

تثاءبتُ ملء حنجرتي. كنتُ أشعرُ بنوع من الدّوار. فركتُ عينيَّ بكلتا يديَّ والنومُ لا يزال يهدهدني، في تثاؤب جديد متواصل. نظرتُ إلى ساعتي، كانت الساعة قد بلغت الحادية عشرة. نمتُ ساعتين! ابتسم لي شانتي. كنّا قطعنا نصفَ الطريق، ولا يزال أمامنا ساعتان ونصف من السير.

بعد ذلك بوقت قصير، أوقفَ كارما المحرِّكَ أمامَ كوخ صغير. قبض رجلان بلباس مدنيٍّ رسمَ المرور. لا وجود لحاجز ولا لإشارة، بل مجرّد مثلث السلامة. ينبغي أن تكون على علم بالأمر!

كانت أشعة الشمس تخترق الزجاج، فتُوَرِّي جسدي المشتعل أصلاً. نظرتُ إلى مشاهد الطبيعة تتعاقب. كانت كلماتُ مايا تتردَّدُ في ذهني: «عيشي كلَّ لحظة كأنَّكِ مصابة بمرض النسيان». لم أجد صعوبةً في ذلك، فكلُّ شيء كان بعيداً جداً عمَّا كنتُ أعرفُهُ. كانت

تلك الطريق التي تسلكها الشاحناتُ المزدحمة، والدرّاجاتُ المرتَّقة، والبقرُ الهائمُ بحثاً عن غصن عشب تجترُّهُ، تعرضُ على ناظري مشاهدَ غير متوقَّعة. حدَّثتُ شانتي عن التجربة التي أوصتني بها مايا.

«يسهُلُ عليَّ، في بلد مثل النيبال، أن ألاحظَ الجديدَ، فلا شيء فيه معتاد لديَّ! غير أنَّ الأصعب هو ألَّا أنتقده! ذلك أني أقارنُ فوراً مع ما أعرفُهُ. وأُدْرِكُ أني أُعلِّقُ على كلِّ شيء.

- ذلك لأنَّ دماغَكِ يحتاجُ إلى أن يطمئنَّ. فالجديدُ، كما فهمتِ البارحة، يُخيفُ الأنا الذي ينتقدُ، ويستغلُّ قدراتك الذهنية في المقارنة ليطمئنَّ، بإعادتِكِ إلى منطقة معرفته. إنَّ ما اقترحتْهُ عليكِ مايا تمرينٌ جيّدٌ. يقتضي نسيانُ كلِّ ما تعلَّمتِهِ ألَّا يظلَّ في إمكانكِ التقريب بين أيِّ شيء. وبذلك تظلِّين مجرّد ملاحِظَةٍ لما ترينهُ. لا يعود في إمكانكِ أن تحكمي، بما أنَّ لا شيء آخر يوجد غير ما هو موجود. لا يعود من وجود للمعروف وغير المعروف، لا توجد إلّا الصُور التي تعبُرُ أمامَ ناظريكِ.

- وفيمَ يفيد هذا؟

- في ألَّا يتركك تتعرضين لأفكار ملوِّثةٍ تمنعُكِ من الاستمتاع باللحظة الراهنة. فعندما تُقصينها، لا شيء يستطيعُ أن يصيبَ راحتَكِ بسوء. أليس هدفاً جميلاً أن يشعر المرءُ أنه بخير في كلِّ آنٍ ولحظة؟».

أومأتُ موافقةً، وأنا أطلقُ ضحكةً صغيرةً مشكِّكَةً. سألني شانتي إن كان ذلك حالي.

«كلاَّ، من المؤكَّد أنَّ حالي ليس كذلك!

- لماذا؟

- أشياء كثيرة! خارجة عن إرادتي في معظم الأحيان. العملُ

يسبِّبُ لي ضغطاً عصبيّاً، والحياةُ تفرضُ عليَّ أن أتصرَّفَ رضوخاً للواجب وما يَلزم. . .».

وفي تلك اللحظة زاحمتْنا سيارةٌ، ولولا أنَّ كارما تفاداها بسرعة لاصطدمتْ بنا. شتَمَنا السائقُ المتهوِّرُ بإشارة من يده في المرآة المركزية وهربَ بالتهور نفسه، متسلِّلاً بين العربات. «انظر إلى هذا الوغد! كيف للمرء أن يحتفظ بهدوئه؟ تذمَّرتُ بصوتٍ عالٍ. يُخطئ ثم يشتمنا، أمرٌ لا يُصدَّق!». لم ينبس مرافقايَ ببنت شفة. استعاد كارما هدوءهُ، محرِّكاً رأسَهُ يميناً وشمالاً، وهو لا يزالُ تحت وقع الصدمة.

فكَّر شانتي، متحيِّراً، بصوتٍ عالٍ:

«أنا مندهشٌ لمصادفات الحياة. ما عشناهُ الآن هو أفضل مثال لما كنتُ أودُّ أن أشرحه لكِ!

- لا أرى علاقة ذلك بنقاشنا، قلتُ بعصبية وأنا لا أزال مغتاظةً من تصرفات السائق المتهوِّر.

- كنتِ تقولين لي إنَّ بعض الظروف الخارجية قد تمنعكِ من أن تشعري أنَّكِ بخير.

- أجل، وما حصل الآن مثال ممتازٌ على ذلك! فذلك الشخص نغَّصَ عليَّ راحتي بتصرُّفه الغبي وغير المسؤول، ثم جرؤ على أن يشتمنا بدلَ أن يعتذر. فهذا أحد المواقف التي تثيرُ غضبي. ويبدو لي أنَّ في الأمر ما يثيرُ حقّاً!».

لم يغفل شانتي عن طابع السخرية الذي طغى على نبرة صوتي لكنه ظلَّ هادئاً:

«في الأمر ما يثيرُ فعلاً. أو لا!

- لا ماذا؟

- قد لا يكون في الأمر ما يستحق أن يثير الغضب.
- مهلاً، لا أفهم ما تقصد. أتجدُ سلوكَهُ عادياً ومقبولاً؟
- عادياً، كلَّا! لكن مقبولاً، لِمَ لا؟
- هكذا إذاً! أنتَ ترى أنَّ من المقبول أن يُعرِّضَ ذلك المتهوِّرُ حياةَ الآخرين للخطر؟
- تخيَّلي أن يكون لدى ذلك الرجل سببٌ مقبولٌ للسير بتلك السرعة والتعرض للأخطار. قد يكون تلقى مكالمةً مستعجلة، ربما زوجته تضع مولودَها، أو طفلُهُ أصيبَ بمرض...
- نستطيع بالطبع، يا شانتي، أن نختلق كلَّ شيء، لكنني لا أعتقد أن الأمر كان كذلك. كُفَّ عن أن تكون ساذجاً!
- ولِمَ لا؟ لماذا لا ينبغي لنا أن نرى في الآخر سوى سلوكٍ مُعادٍ لنا؟ لنحاولْ أن نلاحظَ الوقائع...
- الوقائعُ واضحةٌ: معتوهٌ يسيرُ كيفما اتّفق وكاد أن يصدمنا بسيارته. ويُخرجني البلُهُ من أمثاله عن طوري. هذا كلُّ ما في الأمر!
- تجاوزَنا رجلٌ بسرعة كبيرة. فاجأَنا الأمرُ غير المتوقَّعُ، فشعرنا بالخوف. يمكن للأمر أن يتوقف عند هذا الحدِّ، لكن الفزع يُوَلِّدُ لدينا ردودَ أفعال متسلسلة، لأننا في حاجة إلى تبريره. نتوقَّعُ منه اعتذارات لم تأتِ، وبدل ذلك، يتهمنا بأننا نعرقلُ مرورَهُ. فيعقبُ الخوفَ شعورٌ بالعدوان، والإهانة، والظلم. أتعتقدين أنه حاولَ أن يسيء إلينا؟».

عبستُ، وأنا أفتش ذاكرتي. استأنف شانتي أسئلتَهُ:

«لماذا نحن بحاجة إلى أن نشعر بأننا نُهاجَمُ؟

- مثلما شرحتَ الأمرَ: يولِّدُ سلوكُهُ استجاباتٍ ولا يمكننا أن نَقبلَ كلَّ شيء دون أن ننطق بكلمة!

- لدينا الخيار في أن نستعيد راحَتَنا النفسيةَ التي كنّا عليها قبل الوقائع، أو أن نؤجِّجُ غضبَنا ضدَّ ذلك الشخص ما شئنا من وقت، غير أنَّ ذلك الجزء من الثانية الذي شعرنا بالخوف في أثنائه لا يمكن أن يبرِّرَ ما يعقُبُهُ من سوء حالنا.

- لستُ واثقةً من أني أفهم ما تقصدهُ. أنا غاضبةٌ، وهذا أمرٌ طبيعيٌّ، أليس كذلك؟

- نحن وحدَنا المسؤولون عن الحالة المعنوية التي نُقرِّر أن نعيشها كلَّ لحظة».

كان هدوءُ شانتي يثير سخطي. خلعتُ سترتي، فالحرُّ كان يخنقني.

«ما الذي عليَّ أن أفعله إذاً، في رأيكَ؟

- يمكنكِ أن تُغيِّري من موقفكِ وألَّا تتأثَّري بالموقف. إذا ما استبعدْنا الحادثة، فإننا نبحثُ عن المُذنِب المسؤول عن انفعالنا. والمخطئ معلومٌ، أليس كذلك؟ لكن ألا ترينَ مُذنِباً آخر غير بَيِّنٍ مسؤولاً عن غضبكِ؟

- كلا... إنه ذنبُ ذلك الشخص!

- شخصٌ واحدٌ هو المسؤول: إنه أنتِ!

- معذرة؟ أنا؟ ذلك الشخص عرَّضَ حياتَنا للخطر وأنا التي ارتكبتُ الخطأَ؟ هذا رائع!

- لا، يا ماييل، أنتِ لستِ مسؤولةً عن أفعاله، وإنما عن عواطفكِ وغضبكِ. شعرتُ، مثلي مثلكِ، بالخوف من وقوع حادثة، ثم حاولتُ أن أتحكَّمَ في أفكاري كيلا أستسلمَ لمشاعر سلبية يمكن أن تنقلبَ ضدّي. وهكذا استعدتُ توازني. لو أقررْنا أنَّ السعادةَ تولَدُ داخلنا وألَّا شيء يستطيعُ أن يُعكِّرها، فإننا نقفلُ البابَ أمامَ الظروف

الخارجية السامة. فنحنُ نلاحظُها دون أن نُضيفَ إليها أفكاراً ملوِّثةً».

استوقفتني كلماتُ شانتي. بدأتُ أُدركُ أن في إمكاني أن أُخْرِجَ نفسي من كلِّ وضعٍ مؤلِمٍ بتغيير حالتي الذهنية، وبإقراري بمسؤوليتي في تغذية انفعالاتي السامة. لم يكن من السهل عليَّ أن أعترف بخطئي، لكنه كان مُحِقّاً في كلامه.

غُصتُ في مقعدي، وأنا أتابع مشاهد الطريق تتوالى. اختفى ذلك الثقل الذي كنتُ أشعر به يضغطُ على معدتي، وارتخت توتُّرات جسدي. صار صوتي أكثر رقّةً. «أعترفُ أنَّكَ ربحتَ نقطةً! أعترفُ أنَّكَ تثير فضولي وإعجابي!». أخذ يضحكُ.

«يكفيكِ القليلُ!

- كلاَّ، لا تظن هذا... لستُ من النوع الذي يُنصتُ إلى دروس الأخلاق الكبرى، ولا حتى الصغرى! يشتكي زملائي من كوني لا أعيرهم ما يكفي من الاهتمام!».

غلبَ الحرُّ نظامَ التهوية الواهن في شاحنتنا الصغيرة. وكان مضادُ الصدمات يجد صعوبةً في امتصاص عدم استواء شريط الأسفلت الذي كان يبدو كأنه مُدَّ، من دون أيِّ عناية، فوق طريق من تراب. توقفنا برهةً لتنشيط سيقاننا وتناول شراب ما. كان لا يزال أمامنا ساعة من السير قبل الغداء، وساعة أخرى لبلوغ نقطة انطلاقنا نحو مغامرتنا. ركنَ كارما السيارةَ في جانب الطريق. أثارَ الكبحُ غباراً كثيفاً، أعقبَهُ حشدٌ من البائعين المتجوِّلين الذين سارعوا ليعرضوا علينا منتوجاتهم الشخصية من جميع الأصناف. أبعدهم شانتي بحركة من يده وقادني إلى معرض صغير للفواكه والخضر لنحو عشرة من الفلاحين. كان كلُّ واحد منهم قد رتّب منتوجَهُ حسب

اللون. ذكّرني قوسُ قزح المجسَّد أمامنا بسوق المنتوجات العضوية في شارعي: تفاح، وبرتقال، وطماطم، وموز، وكوسة. لا شيء خارج عن المألوف! وكان اليوسفي مهيمناً في هذا الفصل الخريفيّ. اشترى شانتي منه كيلوين اثنين، ثم تذوَّقَ بعض الفواكه المجففة قبل أن يجمع منها تشكيلة متنوِّعة ويقدِّمُها لي. واتَّخذ كارما مجلسه فوق ركام حجارة في مكان بعيد قليلاً، وقاسَمَ أحدَ معارفه سيجارةً ملفوفةً.

تبعتُ شانتي إلى مسكن متواضع مبنيٍّ من صفائح خشب ومعدن مرقَّعة. عند عتبة الباب، ربَّتتْ امرأةٌ ترتدي أسمالاً على كتف مُرشدي، ثم استدارتْ نحوي لتصافحني. دعتْنا إلى الجلوس إلى الطاولة الوحيدة المكوَّنة من ثلاثة جذوع شجر، واندفعتْ إلى داخل البيت الصغير، وعادتْ بفنجانين ساخنين. تبادل معها شانتي بعض الكلمات بالتّبتيّة. كنتُ أنصتُ من دون أن أفهم، وأنا أفحصُ باشمئزاز فنجان الماء العكر المخضرِّ الذي وضَعَتْهُ أمامي. لا سبيل إلى أن أتجرَّعَ هذا الشرابَ، سيكون في ذلك حتفي. وعلى الرغم من كلمات مايا التي عادتِ إلى ذهني، كان يستحيل عليَّ أن أُغامر بأن أتسَمَّمَ بسبب وجبة خفيفة!

ابتلعَها شانتي دفعةً واحدةً ثم لاحظَ قلّةَ حماسي. «يمكنكِ أن تشربيه، فهو يغلي منذ ساعاتٍ. سيساعدُكِ هذا المزيجُ من النباتات على تحمُّل الحَرِّ. لا تخافي». قرَّبتُ شفتيَّ، متردِّدةً، وأنا أشمُّ الفنجانَ، ثم غمستُ طَرَفَ لساني. احتفظتُ لثوانٍ بالقليل من السائل في فمي، مستعدة لبصقه فوراً. فاجأني مزيجُ النباتات الرقيق، حيث هيمن طعم المريمية. شربتُ جرعتي الثانية بحماس أكبر، ثم شربتُ ما تلاها باستمتاع وانتهيتُ إلى أن قبلتُ بفنجان آخر. شرح لي

شانتي أنَّ تلك المرأة ملِمَّة بفوائد النباتات الجبلية، وتعالِجُ بطِبِّ الأعشاب السكّان المجاورين. بل إنَّ أشخاصاً يقصدونها من أماكن بعيدة ليستفيدوا من معرفتها.

شعرتُ بالخجل من أحكامي المسبقة. كنتُ أريد أن أعيش تلك الرحلة من دون أن أُجْريَ مقارنات مع ما كنتُ أعرفُ. وكان ينبغي أن أعترف بأن الرغبة في اكتشاف ذلك البلد، بثقافته وعقلياته، كانت تمنحني نوعاً من المتعة، وإنْ لم يكن لكلِّ ذلك علاقة بحياتي. فقد مرَّتْ ساعةٌ لم أراجع فيها هاتفي!

أعلن شانتي عن الانطلاق، فسحب كارما نفساً عميقاً من الدخان إلى أن كاد يحترق عقبُ سيجارته وودَّعَ صديقه. وقدَّمَ لي شانتي، ونحن نستأنف الطريق، حفنة من الفول السوداني تصبيرةً إلى وقت الغداء وغفوتُ من جديد.

*

أيقظني أنينٌ عنيفٌ صادرٌ عن سائقنا، فاستفسرتُ شانتي عن الأمر، وكارما لا يزالُ يُبرطِمُ. حدَّثَهُ شانتي بعض الوقت ونجح في تهدئته. لم يخرج من الطريق في الوقت المناسب، فكان علينا أن نسلك طريقاً التفافيّاً سيؤخِّرُنا نصف ساعة. صدمني الخبرُ بدوري. كانت الرحلةُ طويلةً بما يكفي ولا تحتاجُ إلى أن نزيدَها طولاً. لكني لم أعلِّق على الأمر، فسائقنا كان باديَ التأثُّر بسبب خطئه. لم يبدُ شانتي متأثِّراً، ولما شعر بقنوطي، حكى لي قصةً:

«كان في قرية رجلٌ فقيرٌ يملكُ حصاناً رائعاً. كان الحصانُ غايةً في الجمال بحيث كان أسيادُ القصر يرغبون في شرائه منه، لكن الرجل كان يرفضُ في كلِّ مرة: 'هذا الحصانُ، بالنسبة إليَّ،

ليس حيواناً، بل صديقٌ، فكيف تريدون مني أن أبيعكم صديق؟'. وذات صباح، قصدَ الإسطبل فألفى الحصان قد اختفى. فقال له أهلُ القرية: 'قلنا لك ذلك! كان من الخير لك لو أنَّكَ بعتَهُ. ها هو الآن سُرِقَ منكَ... يا له من سوء حظ!'. أجابهم الشيخُ: 'حُسن حظٍّ أو سوءُ حظٍّ، من يستطيع أن يجزمَ بذلك؟'. سخر منه الجميعُ. لكن عادَ الحصان بعد انصرام خمسة عشر يوماً، ورفقته حشدٌ من الخيول البريّة. كان قد هربَ وأغوى فرساً، ورجعَ مستصحباً بقية القطيع. 'يا له من حسن حظ'، قال الجميع. فشرع الشيخُ وابنُهُ في ترويض الخيول البريّة، لكن بعد أسبوع، كسر الابن ساقَه في أثناء التدريب. 'يا له من سوء حظٍّ'، قال أصدقاؤُهُ. 'كيف سنفعل، أنتَ الفقيرُ، إن كان ابنُكَ الوحيدُ لم يعد يستطيعُ أن يساعدكَ؟'. أجابهم الشيخُ: 'حسن حظٍّ أو سوء حظٍّ، من يستطيعُ أن يجزمَ بذلك؟'. بعد ذلك بوقت قصير، وصل جيشُ أمير البلاد إلى القرية وجنّد جميعَ الشباب المتاح. جميعهم... ما عدا ابن الشيخ، الذي لم يستطع أن يخرج معهم بسبب ساقه المكسورة. 'يا له من حسن حظ، جميع أولادنا ذهبوا إلى الحرب، وأنتَ الوحيد الذي احتفظت بابنكَ إلى جانبكَ. فقد يُقتَل أبناؤنا!'. أجابهم الشيخُ: 'حسن حظٍّ أو سوء حظٍّ، من يستطيعُ أن يجزم بذلك؟'.

وإذاً، أكان الغفول عن الخروج من الطريق في الوقت المناسب حُسنَ حظٍّ أم سوءَ حظٍّ؟».

قهقهتُ ضاحكةً. «من يستطيعُ أن يجزم بذلك، يا شانتي؟». فعلاً، من كان يستطيع أن يجزم بذلك؟ قد نكون جميعاً ميِّتين لو أنَّ كارما تبع الطريق الأقصر. ذكَّرني ذلك برحلات الميترو التي كنتُ أتأخَّرُ عنها في الصباح: كانت الأبواب تُقفَلُ في الوقت الذي أصلُ

فيه إلى رصيف المحطَّة، فيركبني الجنون! لعلِّي لا أزالُ على قيد الحياة بفضل ذلك!

سلكَ كارما طريقاً ترابيّاً وعراً. دارتْ عجلاتُ الشاحنة الصغيرة في الفراغ دورةً كاملة، ثم انطلقتْ صاعدةً المرتقى بعد أن سلكتْ ثلاثة أو أربعة منعطفات ضيِّقة. لم تكن الطريقُ لضيقِها تسمحُ بمرور أيِّ سيارة أخرى. لكن لحسن حظِّنا، لم نواجه أي عربة قادمة من الاتجاه المعاكس.

كانت شرفةُ مطعمٍ واقعٍ عند نهاية الطريق، تمنحُ رؤيةً رائعةً تُطِلُّ على وادي بوخارا، إلى غاية سلسلة الهيمالايا التي تَحُدُّ الأفقَ. ظللتُ برهةً ساكنةً أمامَ المنظر، متجاهلةً هديرَ معدتي التي أثارتْها الروائحُ المنبثقة من المبنى. اقترحَ عليَّ شانتي طاولةً قريبةً من النباتات.

«هنا يمكنكِ أن تتذوَّقي أفضلَ **دال بهات** أعرفُهُ! إنها وجبة بلدي النموذج! تتشكل في الأساس من أرز أبيض وشربة عدس، **دال** بالنيبالية، والتي نتناولُها مرَّتين في اليوم. يُضيفُ إليها الميسورون كاري ومخلَّل خضروات. إنه طبقٌ نباتيٌّ في عمومه، لأنَّ اللحمَ باهظ الثمن، لكنك هنا تجدين لحمَ الياك[1] لتتناوليه معه. اتبعيني، سَتَسْ-تَمْ-تِعين!».

نهضَ وأخذَ بيدي إلى المطبخ. كانت المكوِّناتُ التي حدَّثني عنها شانتي موزَّعةً في أوعية معدنية كبيرة، ومرفوعةً فوق قاعدة مسخِّنة: الأرز الأبيض، وشربة العدس، والنكهات القوية الصادرة عن مخلَّل الخضروات، ومرق الكاري، ثم لحم الياك المحفوظ في

(1) ثور التبت - المترجم.

صلصة بنيّة ذات لمعان فضّيّ. استنشقتُ الروائحَ الصاعدةَ من القدور الساخنة التي كانت تمتزجُ فيما بينها لتُشكِّلَ الطَّبَقَ التقليديَّ، بينما كانت عيونُ شابّين متعلِّقةً بشفتيَّ في انتظار الحكم. «بالنسبة إليَّ، أريد **دال بهات** ملكيّاً!».

انجلَت النظراتُ القلقةُ عن فرحة غامرة. أسرعَ الشابُ الأولُ يناولني آنية معدنية، تحملُ أربعَ زبديات فارغة. وأشار لي إلى القدور. شرح لي شانتي أنَّ الأرز ينبغي أن يكون في الوسط وأنَّ كلَّ زبدية من شأنها أن تستقبل مكوِّناً واحداً من تلك المكوِّنات. قدَّمَ لي الشابُّ الطعامَ وفق القواعد، مضيفاً لصحني الممتلئِ سلطةَ كرنب وجزر وخيار. ثم وضعَ فوقها رقاقةَ كمون مقلية. اتَّخذ شانتي مجلسهُ أمامي، لكن بقي كارما يتناول غداءه في المطبخ.

أغمدتُ شوكتي في كل زبدية من الزبديات لأستمتع بمختلف النكهات، ثم حاكيتُ مرافقي في السفر الذي كان يمزج المكوّنات في وسط صحنه، مكرِّراً حركاته بعد كلِّ لقمة. كانت مخلَّلاتُ الخضروات، المحلَّاةُ بحذقٍ، والأرزُ الأبيضُ يُلطِّفان من لسعات الفلفل الممزوج بلحم الياك المحفوظ. وكان العدسُ يضيفُ رابطاً ناعماً لذيذَ الطعم، يفاقمُ جميع النكهات. استمتعتُ بالطعام وأنا أتأمَّلُ المنظر الطبيعيَّ الخارقَ. كانت الشمسُ ترافقُ استراحَتَنا بهدوء لذيذ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رفضُ الأسبقية

«لنُفَكِّرْ فيما لديه قيمة حقّاً، فيما يمنح معنى لحياتنا، ولنرتِّبْ أولويّاتنا وفق ذلك».

تينزن غياتسو، الدالاي لاما الرابع عشر.

استأنفنا الطريق بعد قيلولة قصيرة لنصل عصراً إلى كانديه، قريباً من بوخارا.

كان باقي أعضاء الفريق ينتظروننا هناك. اضطلع شانتي بمهمة التقديم للتعارف: تقدَّمَ غومار أوَّلاً، أكبرُ الثلاثة، ومدَّ لي يدهُ مصافحاً بحماس وتوقير. أجبرتني عيناهُ الضاحكتان على الابتسام؛ يُغطّي شعرُهُ الأسودُ قفاهُ، ويتشكَّلُ عثنونُ لحيته من شاربَيْن رفيعَيْن وزغيباتٍ متفرِّقةٍ على ذقنه. بدت ملامح وجهه صينيّة. يشي أسفلُ بطنه، من تحت سترة الفراء المقلسَنة، بوظيفته ضمن الفريق. لم يكن الرجلان الآخران يتجاوزان متراً وستّين سنتيمتراً.

اقترب نيشال، الذي كان أكثر تحفُّظاً، خافضاً راسَهُ. بدا ضئيلاً، غير أني اندهشتُ لقبضة يده القوية عند المصافحة. كان جسمه كلُّه عضلاتٍ، يرتدي بنطالاً من قماش متين، بلون الصوف الطبيعيّ، وسترة زرقاء وبيضاء، ينتعلُ صندلاً، وتُخفي عينيه النافرتين

قبَّعتُهُ البُنّيةُ التي حشر فيها رأسَهُ. كانت ملامحُهُ المشدودةُ ووجهُهُ المنحوتُ تُرجِّحُ كونَهُ في الخمسين من العمر. سمعتُ تحيَّةً خافتةً: «ناماستي» تتسرَّبُ من شاربيه الرفيعين. خفضتُ رأسي احتراماً، فتراجع.

وأخيراً، استقبل تيم يدي، بفارغ الصبر. كان أقلَّ خجلاً من عمِّه، فرحَّبَ بي بحماس غامر. كان يرتدي سروالَ جينز رماديّاً، وسترةً ذاتَ لون بُنّيٍّ فاتحٍ تحملُ شعارَ شرطة نيويورك، ووشاحاً عنّابيّاً، وقبَّعةً صوفيةً خضراء تعلوها شُرّابةٌ، جامعاً في لباسه بين الموضة المحلية والدولية بنزعة تقليدية مدهشة.

توجَّهَ نيشال نحو الأمتعة ووزَّعَ الأثقالَ إلى كومتين متساويتين، ثم ربطَ الرزمتين بمساعدة ابن أخيه الذي كان يُقلِّدُ كلَّ حركة من حركاته، ودلَّ حذقُ حركاته على أنَّ هذه لم تكن رحلته الأولى.

تناولنا مشروباً غازياً أخيراً في الشرفة المشكَّلة من كوخ خشبيٍّ ذي سقيفة صفيحيّةٍ متقدِّمةٍ تُظلُّ طاولةً ومقعدين. وضغطَ كارما على بوق السيارة متمنِّياً لنا طريق السلامة.

نادى شانتي على غومار، الذي كان قد انصرف ليُدخِّنَ سيجارةً، فهبَّ واقفاً. كنا في ارتفاع ألف وسبعمائة وسبعين متراً عندما بدأنا رحلتَنا على الأقدام بإشارة من مُرشدي. وضعَ الحمَّالان حملهُما فوق سور صغير، ثم أدارا له ظهريهما، ووضعا الحزامَ على جبهتيهما، ثم رفعا معاً المتاعَ فوق كاهليهما. أمرَ شانتي نيشالَ بأن يصعدَ أوَّلاً، متبوعاً بتيم وغومار، ودعاني إلى أن أسيرَ خلفهم، ثم تقدَّمَ على أثري ليقفل السير. كنتُ أضعُ قدميَّ على آثار خطوات غومار. يتطلَّبُ الطريق الترابيُّ المحصَّبُ يقظةً كبيرةً. وفي قرية صغيرة من أربعة بيوت، توقَّفَ بصري عند كلِّ مشهد. إلى اليمين،

تغسلُ امرأةٌ ثيابَها تحت صنبور بدائي صبيبُهُ هزيل، وكلبُها ممدّد، بجانبها، يستمتع بآخر أشعة الشمس. وإلى اليسار، عنزةٌ تحُكُّ أعلى رأسها إلى عمود مأواه من الخيزران.

انشغلتُ بأنشطة السكان، فلم أنتبه إلى أننا نزدادُ ارتفاعاً في سيرنا. كان المنظر يتغيَّرُ: يعرضُ الوادي كيلومترات من زراعة المصاطب التي كانت ألوانُها تختلف من طابق إلى آخر؛ وتُكمِلُ غاباتُ البلوط، والبتولا، والقيقب، والصنوبر تلك التشكيلةَ الشاملةَ المخضرَّةَ، وتتقابَلُ زرقةُ السماء مع التماعات أشعة الشمس البرتقالية وقد صارت بلون الكهرمان الأصفر.

كانت الظروف المناخية مثالية. تَسنُدنا درجةُ الحرارة اللطيفة في وقت العصر، وقد امتزجت بنسيم خفيف، في ارتقائنا الطريق الذي كان يتحوَّلُ إلى سُلَّم حجريٍّ. تساءلتُ عن عادات أولئك السكّان، غير أنني عجزتُ عن التفوُّه بأدنى سؤال من شدة انقطاع أنفاسي.

كان الحمّالان قد سبقانا بمسافة، فلم أعد أراهما. ويحيطُ بي غومار وشانتي مثل حارسين شخصيين، ويسيران وفق إيقاع خطواتي. كانوا بين الفينة والأخرى يتوقفان برهةً قصيرة مبرِّرين ذلك بشرحٍ ليُبطئا من السرعة. مررنا ببعض الأشخاص عند منعطف مسكنٍ من ناحية الممرِّ أو الأخرى، في المرتقى. كانت البيوت مبنيَّةً بالطريقة نفسها: أساساتٌ من حجر، وتشكِّلُ ألواحٌ من صنوبر متفاوتةُ الانتظامِ الواجهةَ؛ وتزيدُ السقوفُ القصديريةُ بمترٍ عن حدِّها معتمدة على دعامات، لتُأويَ السطيحةَ. وكانت الضيعاتُ تُحَدُّ بواسطة حواجز تقليدية من خشب مدوَّر عموديٍّ وأفقيٍّ. التفتُّ برأسي ناحيةَ ضحكات طفلٍ يجري خلف جدْيٍ، متسلِّلاً بين الثياب الملوَّنة المنشورة بين عمودين.

وبعد أن سرنا ساعتين صعوداً، توقَّفَ شانتي مرةً أخرى وقدَّمَ لي أولى قمم الهيمالايا. استأثر المنظرُ الرائعُ بكلِّ انتباهي، حتى أني نسيتُ مصاعبَ الصعود. وكانت الشمسُ قد شرعتْ، في ذلك العصر، تمُدُّ الظلالَ.

كان لا يزال أمامنا قطع مسافة مائتي متر لبلوغ مرحلتنا الأولى: قرية من حوالي عشرين مبنى متماثلة على مستويين، عُلِّقَتْ على معظم المداخل لافتةٌ مدهونةٌ: «بيت الضِّيافة أستراليان كامب»، لا يُفرِّقُ بعضَها عن بعض سوى الألوان. وكانت إحدى تلك المباني تتميَّزُ، عند طرف القرية، بلونها الأمغر الطينيّ، وموقعها المميّز، إذ بُنِيَتْ في معزل، فوق تلَّة صغيرة، تُشرفُ على باقي القرية. كانت تولِّيه ظهرها لتستمتع بأجمل منظر مفتوح مائة وثمانين درجة على سلسلة الهيمالايا. وكانت طاولاتٌ بلاستيكيةٌ منصوبةٌ بعنايةٍ في الحديقة، فوق مساحة كبيرة من العشب، تدعو الزّوّار للاستمتاع بالمشهد.

كان نيشال وتيم ينتظراننا منذ فترة، هناكَ، جالسَين أمام فنجان قهوة. كانا قد أنزلا الأمتعةَ عند أسفل سُلَّمٍ خشبيٍّ يؤدِّي إلى الغرف. لم أكن أستطيع أن أنتزع عينيَّ من النظر إلى الجبل الذي كان يُغيِّرُ من لونه في كلِّ دقيقة. كانت الشمسُ توشكُ أن تلقي علينا الوداع. اقترح عليَّ شانتي أن أقومَ ببعض حركات التمدّد تجنُّباً لوجع العضلات في الغد، وعملتُ بنصيحته، على الرغم من رغبتي الجامحة في الاستلقاء فوق أول مقعد ألقاه. اكتشفتُ وجودَ عضلاتٍ كنتُ أجهلُ حضورَها في جسمي.

خرجت من المبنى امرأةٌ في الثلاثين من عمرها. كان شعرُها الأسودُ المشدودُ إلى الخلف وبشرتُها السمراءُ يُخبران عن أصولها الهندية. وكان يتبعُها مراهقٌ كلُّ انتباهه منصبٌّ على الطبق الذي

يحملُهُ، حيث حرص على تحضير كأسين من الشاي ترحيباً بنا. عانقَ شانتي مضيفتَنا، أميتا، بحرارة، وتبادلا كلماتٍ بالنيبالية، ثم قدَّمها إليَّ. دعاني شانتي إلى الجلوس وأدار كرسيَّهُ جهةَ الشمس الغاربة. كانت أشعَّتُها البرتقاليةُ تعكسُ طبقاتِ السُّحُب الناعمة، مُضفِيَةً على المنظر بروزاً وجلاءً.

كان شروقُ كرة النّار وغروبُها سيصيران لحظتين أثيرتين من النهار، وأخبرني شانتي أنه يجتهدُ منذ سنوات في ألَّا تفوتَهُ لحظةٌ من تلك اللحظات. أما فيما يخصُّني، فإنني لم أشهد تلك اللحظات منذ زمن بعيد.

«ألا تحبين ذلك؟

- بلى، أحبُّهُ بالتأكيد! هل من منظر أجمل من هذا؟ لكنني لا أجد الوقتَ أبداً... ولا أرى من مكتبي شيئاً سوى البنايات».

فرضَ الصمتُ نفسَهُ. سحرَنا المنظرُ، فتوحَّدَتْ وجهةُ أنظارنا. وحدَها العصافيرُ كانت مؤَهَّلةً لأن تواكبَ بأناشيدها الألوانَ المتغيِّرةَ برقَّةٍ سماوية.

«هل أنتِ متزوِّجة؟»، سألني مرشدي. رفعتُ حاجبيَّ وأنا أميلُ نحوه برأسي. تحمَّلتُ نظرتَهُ بثباتٍ، فأدركَ أنه سؤالٌ غير ملائم.

«سامحيني، لم أكن أقصدُ الإساءة إليكِ، ولا تظني أنَّ...». اتسعتْ عيناهُ، وصمتَ ثم استأنف قائلاً: «أحاول أن أفهمَ مَنْ أنتِ فحسب». ابتسمتُ لارتباكه.

«قبل أن أتزوَّج، ينبغي أن أجد الشخص المناسب، ومع كلِّ ما عانيتُ منه، أفضِّلُ أن أظلَّ وحدي. الرجال لا يختلفون بعضهم عن بعض، ولا وقت لديَّ أضيِّعُهُ معهم.

- لا تريدين أطفالاً إذاً؟

- أوَدُّ ذلك، لكن لا أطفال من دون زواج، فأنا لا أرغبُ في أن أُهْدِيَ طفلاً صغيراً أُمّاً عزباء.

- أتُمارسين الرياضة؟

- أجل، في قاعةٍ، وإن كنتُ في الحقيقة لا أمارسُها إلا قليلاً، بسبب توقيت عملي، الأمر ليس سهلاً ثم... قلَّما يكون لديَّ عطلة نهاية أسبوع.

- يشغَلُ عملُكِ الحيِّزَ كلَّهُ. لا بد أنه عملٌ مُشوِّقٌ بما أنه يملأُ عليكِ وجودَكِ إلى درجة أن تنسيْ ما هو جوهريٌّ!».

أخذ شانتي يميلُ إلى السخرية، فلم يُعجبني الأمرُ. لم أفهمْ تغيُّرَ سلوكه. كيف لهذا الرجل الذي يعيش في بلد بهذه الدرجة من البؤس أن يسمح لنفسه أن يحكم عليَّ وهو لا يعرفُ أيَّ شيء عني؟ التقطتُ هاتفي، علَّ ذلك يهدِّئني. ويا للمعجزة، كانت شبكة الاتصال متاحة! ظهرت على الشاشة الحروف الثلاثة NTC[1]. أنصتُّ إلى رسائلي الصوتية. وأخيراً رسالة من رومان: «**مايبل، سيكون الاتصالُ بي صعباً في الأيام القادمة، لكن لا تقلقي، كلُّ شيء على ما يُرام. وأرجو أن يكون الأمرُ كذلك بالنسبة إليك. تعرفين أنَّ حولكِ أُناساً رائعين. استمتعي بذلك البلد الخارق وليتحققْ أملُنا في أن تعودي إليَّ بذلك الكتاب. أقبِّلُكِ بحرارة يا صديقتي. أنت دائماً على البال**». حاولتُ أن أتصل بها، لكنَّ علبة رسائلها هي التي استلَمَت اتصالي من جديد.

كان الليلُ في بدايته، وشانتي لا ينزع عينيه عن الجبال التي

---

(1) Nepal Telecommunications Corporation (شبكة الهاتف النيبالية) - المؤلِّفة.

صارت شبه خفيَّةٍ في تلك الكتلة السوداء. أزاحَ نظرَهُ وأعاد توجيه كرسيّه نحو الطاولة. ثبَّتَ نظرَهُ عليّ واستأنف حديثَهُ بلطف:

«لم أقصد إغضابَكِ. تأكَّدي أنّي لا أحكمُ عليكِ، إنما أحاولُ أن أفهمَ أولويَّاتك.

- أعرِضْ عن ذلك!»، قلتُ بامتعاض.

لم يُلحّ في حديثه وأشار إلى تيم أن يُصعِدَ أمتعتي إلى الغرفة إلى اليسار. قدَّمَ لي قائمة الطعام واقترح عليَّ أن أستمتع بحمّامٍ ساخنٍ في انتظار أن يُقدَّمَ العشاء.

«لستُ جائعةً كثيراً، فأنا متعبةٌ، وسأذهبُ لأنام.

- ينتظرنا يومٌ طويلٌ غداً. يجب أن تحصلي على بعض الطاقة، وإلا فإنَّكِ لن تستطيعي التحمُّلَ. سأتكفَّلُ بالاختيار من أجلكِ».

لم أكن أرغبُ في الخوض في جدال، وكان يُضايقني أن يكون مُصيباً دائماً فيما يقول!

رافقني تيم إلى غرفتي وهو يحمل حقيبتي فوق كتفه. اقتفيتُ خطواته في السُّلّم. وكان، من شدة رغبته في أن يُريني الحجرةَ، يقفزُ مثل طفل أمامَ المدخل، ويتحدث بحماس بإنجليزيته البدائية. «ستكونين بخير هنا. احتفظتْ صاحبةُ الفندق بأفضل غرفة من أجلكِ وحدَكِ». وأضافَ وهو يؤكِّد على الكلمات: «مع الكهرباء!».

فتحَ البابَ، وأدار مفتاح الكهرباء: ارتجلَ مصباحٌ متذبذبٌ دورَ «الضوء»، فاكتشفتُ «الجناحَ الإمبراطوريَّ» الذي خُصِّصَ لي: خمسة أمتار مربَّعة، لوحتان من خشب رقيق تقومان مقامَ جدار الفصل عن الجانب «المؤثَّث» المجاور، فراشان من اسفنج عاريان مرفوعان، وقطعة ثوب رفيع ستاراً للنافذة. «ما هذا؟»، همستُ من بين أسناني.

«هاه، ما رأيكِ؟ مفاجأة، أليس كذلك؟

- آآآآه هذه فعلاً مفاجأة، أنا في قمة الانبهار! والحمام، هل أجدُهُ تحت السرير؟».

قهقه ضاحكاً. «كلاَّ، طبعاً! إنه يوجد عند طرف الرواق. سأبيِّنُ لكِ كيف يعمل». ثم قدَّم لي مفتاحَ قفلٍ يُغلقُ مغارةَ علي بابا!

«أتصوَّرُ أنَّ المرحاض هو أيضاً في الجهة المقابلة.

- أجل! لدينا مراحيض أيضاً!».

كان حماسُهُ يتجاوزُ إدراكي، فتبعتُهُ، مشدوهةً. كنتُ أظنُّ أننا عشنا الأصعبَ في فندق كاتماندو، غير أنني لم أكن بلغتُ نهايةَ مفاجآتي... كان الحمّام، حاله حال الغرفة، يقتصر على ماسورة سقيٍ في حجيرة غير صحيّة. أما المرحاض، فكان ينبغي أن تقطع أنفاسَكَ قبل أن تدخله. وقفتُ جامدةً أمامَ المشهد، أنظرُ إلى تيم الذي لم يبْدُ عليه أنه يُدركُ حقيقةَ الموقف. كان يواصلُ التعبيرَ عن افتخاره واعتزازه بمحاسن الفندق: «استمتعي بالماء الساخن، لن يتوافر لدينا دائماً».

ثم سألني إن كنتُ في حاجة إلى شيء آخر، فوددت أن أصيحَ أنه ينقصني كلُّ شيء، لكنني فضَّلتُ ألاَّ أعكِّرَ متعتَهُ، فأجبرتُ نفسي على الابتسام وشكرتُهُ على مساعدته لي.

وما أن انصرفَ حتى فتحتُ كيسَ النوم وأخذتُ بعضَ الأمتعة من أجل الليل. استحممتُ، على مضض، عملاً بنصائح حمّالي حول الغياب اليوميِّ لرفاهية الماء الساخن! وعلى الرغم من الظروف الكارثية، زاد الماءُ الشديدُ السخونةِ من تدفُّق جريان دمي وهدَّأَ آلامي العضلية. أراحَني الحَرُّ. ارتديتُ ملابسي بسرعة كيلا أعانيَ من فارق درجات الحرارة، ثم نزلتُ إلى الحديقة.

استرجعت برودةُ الليل هيمنتها على حَرِّ الشمس المتواريةِ في الجهة الأخرى من الأرض. تأملتُ من أعلى السُّلَّم، متلفِّعةً بسترة الريش السميكة، المشاهدَ الحميمةَ التي خلقتْها شموعٌ صغيرةٌ تُنيرُ كلَّ طاولة. لم يكن شانتي قد تحرَّكَ من مكانه. كان يرشفُ من جعّةٍ وعيناهُ شاخصتان إلى السماء.

اقترحَ عليَّ، دون أن تتركَ عيناهُ دربَ التّبّانة، أن أتناول شراباً ساخناً لأتدفَّأ. قبلتُ فنجانَ شايٍ بالزنجبيل فأسرعَ ليأتيني به. جلستُ، مولِّيةً وجهي جهةَ الكون، عندما خدشَ شهابٌ وجهَ الليل. عاد شانتي، يحملُ طبقاً متوازناً فوق يدٍ واحدة، بحذق نادل مقهى. قدَّمَ لي الشراب الساخن، ثم وضع على الطاولة فنجانين من القهوة وإناءً زجاجيّاً فارغاً. اختفى لحظاتٍ في ظلام الليل في عمق الحديقة وعاد حاملاً كيساً أودَعَهُ عند رجل كرسيِّه، وملأَ الإناءَ بثلاثة أحجار كبيرة.

«مايبل، هل الإناء مليء؟». نظرتُ إليه، مستفهمةً، غير مُدْرِكةٍ لمعنى سؤاله. أخرجَ من محفظته، دون أن ينبس بكلمة، حفنةً وافرةً من الحصى ووضعَها بعناية داخل الإناء الزجاجيِّ. حرَّكَهُ، فاندسَّتْ الأحجارُ الصغيرةُ بين الفراغات. سألني حينئذ من جديد إن كان الإناءُ مليئاً. اعتدلتُ فوق الكرسيِّ. حاولتُ أن أتأكَّدَ من الأمر قبل أن أجيبَ، بعد تردُّدٍ، بالإيجاب. التقطَ الكيسَ وأفرغَ بقيّةَ محتواه: ردمَ الرملُ الثقوبَ، ثم أعاد طرح سؤاله. ابتسمتُ، متسلِّيةً. «هذه المرة، أعتقدُ أنه مليء!». نظَّفَ شانتي الطاولةَ بحركة من ظهر يده.

«تخيَّلي أنَّ هذا الإناء هو حياتكِ، وأنَّ الأحجارَ الثلاثة ترمزُ إلى الأمور الأشدِّ أهميةً بالنسبة إليك: أي تلك التي لا تستطيعين الاستغناء عنها لتكوني سعيدةً. واعتبري الحصى كأنها الأولوياتُ

الثانوية، أي تلك التي تأتي مباشرة بعد الضروريّات». نظرتُ إليه غير مدركةٍ لما يودُّ أن يقوله لي.

«وتخيَّلي أنَّ الرمل يمثّل كلَّ ما عدا ذلك: لحظات السعادة البسيطةُ، تلك التي تبهجك، لكنها ليست سوى مُكمِّل لِما هو 'جوهريّ' أولاً ولِما هو 'مُهِمّ' ثانياً.

- طيّب، ما الذي تقصدُ إليه من كلامكَ هذا؟

- إن كنتُ ملأتُ الإناءَ بالرمل، فما كان ليفضل لي مكانٌ للحصى أو الحجارة. والأمرُ نفسُهُ بالنسبة إلى حياتكِ: إن أنتِ كرَّسْتِ وقتَكِ وطاقتَكِ للعناصر الثانوية، فلن يتبقّى لكِ مكانٌ لما هو جوهريّ، وبذلك أنت تُخطئينَ طريقَكِ. تلهثين خلف ما هو سطحيّ وتتساءلين عن سبب كونكِ غير سعيدة».

صفَّقتُ مبتسمةً. يا لها من برهنة رائعة!

«والآن، عليكِ أنتِ أن تُحدِّدي أولويّاتِكِ. ما الذي يناسبُ الحجارةَ في حياتك، ما هي الأمورُ الجوهرية بالنسبة إليكِ؟ أقصدُ الأمورَ التي لن تُضحّي بها، أو تلك التي تحرصين عليها كلَّ الحرص في هذا العالم.

- لستُ أدري... أوه، في هذه اللحظة بالذات، أنا مرهقة.

- فكِّري!»، أمَرَني بحزم.

وضعتُ رأسي بين يديَّ وشرعتُ أفكِّرُ في الموضوع، مُطرقةً ببصري نحو الأرض. كنتُ أعرفُ ما يسكنُ قلبي، لكنني عانيتُ منه كثيراً فلا أتَّخذُ منه أولويَّةً. الألمُ، ممتزجاً بالذكريات، عكّر رؤيتي. رفعتُ رأسي، وفكّايَ على راحتيَّ، وأصابعي تُخفي خديَّ، وتركتُ دمعي يسيلُ دون أن أحبسه واعترفتُ بحزن: «بطبيعة الحال، أتمنى أن أصحو كلَّ صباح بين ذراعَيْ شخصٍ أحبُّهُ، وأن يكون لديَّ فائضٌ

من الوقت لنفسي، ولأصدقائي، وأسرتي. أن أعبِّر لهم عن حبِّي. أودُّ أن أضحكَ من لا شيء، وأتشارك لحظاتٍ بسيطة، وأن أسافر...». لم يكن موضوعٌ واحدٌ من هذه المواضيع ذات الأولوية يشكِّلُ جزءاً من حياتي اليومية. كنتُ أخطئُ طريقَ حياتي.

وضع شانتي يده على يدي وقال لي بتعاطف: «توقَّفي إذاً يا مايبل عن ملء إنائكِ بالرمل. عيشي أحلامَكِ، واهتمِّي بنفسكِ، وبقلبكِ، وبجسدكِ، وبرغباتكِ، وبالناس الذين تحبينهم. املئي نفسَكِ بما هو أنتِ وتوقَّفي عن الخوف من المعاناة، فذلك الخوف هو الذي يمنعكِ من أن تكوني سعيدةً ويحبسُكِ داخلَ جراحكِ». نظرتُ إلى شانتي، باكيةً. واصل كلامَهُ: «غامري بالحياة وبأن تكوني ما يسكُنُكِ. املئي إناءكِ، حَجَراً حَجَراً، حصاةً حصاةً، حبَّةَ رملٍ حبّةَ رملٍ، مراعيةً كلّ أولويّةٍ من أولويّاتكِ. فكلَّما وضعتِ عنصراً، ينبغي أن يهيمن على العناصر اللاحقة. اختاري بالأسبقية الحجرَ الأوَّلَ، ثم أضيفي الحجر الثاني وأنتِ تقولين لنفسكِ إنَّكِ لن تُضحِّي أبداً بالأول من أجل الثاني. وواصلي بالتفكير نفسه، إلى آخر حبَّةٍ. لكن كوني حذرةً فيما تريدينه، لأنكِ قد تحصلين عليه!».

أفرغَ شانتي الإناءَ فوق الطاولة ومدَّ لي الأحجار الثلاثة الكبيرة. فكَّرتُ في الحجر الذي يمكنني أن أضعه أوَّلاً داخل الإناء. كان من الواضح أنَّ عملي هو الذي يهيمن على أكبر مكان في حياتي ويشكِّلُ أولويَّتي رقم واحد. لكن شانتي كان مُحِقّاً، ألم يكن ذلك من باب الاضطرار فحسب؟ ألم يكن ذلك بسبب خوفي من أن أقعَ في الحُبِّ؟ هل خصَّصتُ بعضَ الوقت في الأشهر الأخيرة لأهتمَّ بنفسي، وبأصدقائي، وبأسرتي؟ هل تأنَّيتُ لأفكِّر في قيمي، وفيما يجعلني سعيدة؟ لم أعد أنبضُ منذ مدة طويلة. كنتُ شغوفة بعملي،

لكن ألم يكن ذلك الشغف بدافع نسيان فراغ حياتي؟ أدرتُ الأحجار الثلاثة فوق الطاولة، عاجزةً عن تعيين ما أُفضِّلُهُ. شعر شانتي بحيرتي.

«لو أنَّك تملكين عصاً سحريةً، ماذا ستكون الحياةُ المثلى بالنسبة إليكِ؟

- أوه... سأعيشُ إلى جانب رجل رائع يفهمني، أسندُهُ ويدعمني. سأسافرُ رفقته وأكتشفُ معه العالمَ! سأقضي أمسياتٍ وعطلاتِ آخر الأسبوع مع أسرتي، وأصدقائي، ويكون لديَّ حياةٌ يوميّةٌ بسيطة، مفعمة بلحظات السعادة الصغيرة: نزهةٌ في البادية، غروبُ شمس، كأسُ نبيذ، مناقشاتٌ في وقت متأخِّر، اهتمامٌ، حُبٌّ... كلُّ هذا لطيف جداً، إلا أن لا وجود له سوى في الخرافات!

- كلاَّ، إنه حقيقةٌ بالنسبة إلى الأشخاص الذين جعلوا منه أولويّاتهم. لكن ليس هذا حالُكِ بما أنَّكِ في الوقت الراهن، ليس لديكِ من أمرٍ جوهريٍّ سوى عملِكِ».

دعكتُ الأحجارَ بِيَدٍ، ثم نشرتُ الرملَ فوق الطاولة باليد الأخرى وأنا أبرِّرُ موقفي من دون اقتناع. كنتُ أتعلَّقُ بما هو موجودٌ لديَّ، بما أنَّ الباقي كان ينقصني. «فكِّري في الاتجاه المعاكس. فعندما تحدِّدين أولوياتِكِ، ستعيشينها، لأنَّ كلَّ طاقتِكِ ستكون مركَّزةً على ما هو جوهريٌّ».

انتقيتُ حجراً أوّلاً، أدرتُهُ بين يديَّ، ونفختُ عليه لأُدفئهُ وأنا أفكِّرُ في الاسم الذي سأمنحه إيّاهُ. ورفعتُ نظري نحو مرشدي. «وأنتَ، يا شانتي، ما هو الأهمُّ بالنسبة إليكَ؟».

أجابني الرجلُ بلا تردُّد وبكلِّ وضوح:

«صحَّتي!

- بالتأكيد! لا نستطيع أن نفعل أيَّ شيء من دونها، جوابُكَ سهلٌ جداً.

- سهلٌ جداً؟ كلَّا! الصحةُ أعظمُ رفاهية موجودة بالنسبة إليّ وأنا واعٍ بهشاشتها. كلَّ يوم، أنتبهُ إلى ما آكُلُهُ كيلا أسيء إلى جسدي، وأتحكَّمُ في أفكاري كيلا أجرح روحي. الصحةُ ليستْ مكتسَبَةً أبداً وتتطلَّبُ رقابةً منتظمةً، إنها تُمثِّلُ أولويَّتي العليا، التي لن أضحِّي بها من أجل أيِّ أولوية أخرى في إنائي».

أفرغتُ يديَّ وشربتُ جرعةَ شايٍ. مرة أخرى، كان شانتي على حق. فكرتُ فوراً في رومان، في الذي تعاني منه منذ بضعة أشهر وفي حسن حظي أنا التي أستمتعُ بكامل صحَّتي. وفي تلك اللحظة، أدركتُ أنَّ صحَّتي حجري الثمين. أخذتُ أكبرَ حجر فوق الطاولة ووضعتُهُ في قعر الإناء. سيكون حجري الأول: سأسمّيه «صحّة». ثم أتبعتُهُ، دون تردُّد، بحجر ثانٍ. سأسمِّي هذا الأخيرَ «حُبّ»، حيث ستتعايشُ حياتي العاطفية، وأسرتي، وأصدقائي. وأخيراً، سيشكّل الحجرُ الأخيرُ «المشاركة والسعادة». والغريب أنَّ هاتين الكلمتين الأخيرتين تردَّد صداهُما بشكل متواصلٍ داخل قلبي، باعتبارهما أولويةً. ولم يبدُ شانتي متفاجئاً من هذا الاختيار، بل من غيابِ اختيار آخر.

«لَمْ تُحدِّثيني عن عملكِ؟ عن المال؟

- لأنني مقتنعةٌ أنهما لا يملكان شرفَ هذه الطبقة. ما قولكَ في هذا؟ أهو جوابٌ جيّد؟

- لا وجود لجواب جيّد، يا ماييل. وحدهُ قلبكِ يعرفُ ما هو

الأهمُّ بالنسبة إليكِ، وستُدركين من أنتِ بإنصاتِكِ إلى ما يُمليه عليكِ».

أنجزتُ التمرينَ نفسَهُ بالحصى. ربطتُها برغباتي، وبعملي، وبطموحاتي، وبأحلامي، وبأسفاري، وبمحيطي البعيد، وبشقَّتي. ثم، دون أن أقطع تفكيري، سَمَّيْتُ حبّاتِ الرمل التي وجدتْ مكانَها في البعد الماديِّ، والمظهر، وما هو سطحيّ.

نظر إليَّ شانتي بصمتٍ وأنا أفركُ يديَّ لأتخلَّصَ من الرمل المتبقِّي. كنتُ واثقةً من أولويّاتي، وإن كانت شديدةَ البعد عن تلك التي أعيشُها، لأنَّ قلبي كان ينبضُ نبضاً لم ينبضْهُ منذ زمن بعيد. نظرتُ إلى شانتي، وكُلِّي امتنانٌ.

«هل إناؤُكِ مليءٌ الآن؟

- هذه المرة، أنا واثقةٌ من ذلك! وهو جيِّدُ التنظيم!».

تأملتُ التضاريسَ التي شكَّلتْها مختلِفُ الأحجار وأنا أُدير الإناءَ ثم أرجَعْتُهُ له. تأمَّلَهُ بدوره، ووضعهُ فوق الطاولة، ثم صَبَّ فيه الفنجانين اللذين كان قد احتفظَ بهما. رحتُ أضحكُ.

«ما الذي يُفترَضُ أن يمثِّلَهُ السائلُ؟

- لا شيء. أن يُذكِّركِ فحسب أن حتى لو كانت حياتُكِ مملوءةً جيِّداً، يوجد دائماً مكانٌ من أجل تقاسم فنجان قهوة مع صديق!».

روحٌ إيجابيةٌ

«نحنُ ما نُكرِّرُهُ كلَّ يومٍ».
أرسطو

فتحتُ عينيَّ عند الساعة السادسة، قبل جرس المنبِّه. لم ينل الليلُ القاسي من نومي بفضل الرّاكسي[1] الذي أهدانا إياهُ غومار قبل انصرافنا للنوم. كانت رشفةٌ واحدةٌ منه كافيةً لتُشعرني بالدوار. شعرتُ في ذلك الصباح أني في كامل لياقتي. أزحتُ السّتارَةَ بعزمٍ، فهالني المنظرُ الرائعُ قدرَ ما هالتْني درجةُ الحرارة المتجمِّدة داخل الغرفة. جلستُ القرفصاءَ أمامَ النافذة، ملفوفةً في كيس النوم. كانت السماء لا تزالُ بزرقة الليل، تنتظرُ أولى أشعة الشمس لتُنوِّع من درجات ألوانها.

تسبَّبَتْ أنفاسي الدافئة، المناقضة لدرجات حرارة الغرفة المتدنّية، في حدوث تفاعلاتٍ كيميائية ذكَّرتْني بطفولتي في بيت جدَّتي أثناء عطلنا في البادية. كنّا أنا ومارغو نتسلَّى بزفيرنا لبخار الماء، كأننا نُدخِّنُ. كانت اللعبة المفضَّلة لشقيقتي أن نختلقَ لأنفسنا

(1) كحولٌ يُصنعُ من الدخن أو الأرز في النيبال - المؤلِّفة.

أدوارَ سيِّداتِ المجتمع، نضعُ عوداً في فمنا نحاكي به السيجارةَ التي كنّا نمسكُها بين أصبعينا السبابة والأوسط ونحن ننفخُ بتعالٍ. مارغو! عندما سأروي لها ما كنتُ أعيشُهُ، لن تصدِّقني أبداً! أكادُ أسمعُها وهي تقول: «كفاك مزاحاً... أنتِ؟ في الجبل؟ في الهيمالايا؟ من دون كعبك العالي وماكياجك؟ أتودِّين أن تُقنعيني بأنك تستطيعين البقاءَ على قيد الحياة أكثر من ساعة من دون هاتفكِ، ومن دون رسائل بريدكِ الإلكتروني، وأنتِ تُنصتين إلى حقائق أخرى غير تلك التي تخرج من دماغكِ الهائل؟... احكِي هذا لآخرين، يا شقيقتي الصغرى!».

ابتسمتُ. كانت مارغو تُهديني بانتظامٍ كتباً حول التنمية الذاتية كنتُ أودِعُها جميعَها في عمق مكتبتي دون أن أفتح واحداً منها. وحاولتْ مراراً أن تُسجِّلني في دورات تدريبية حول مواضيع لستُ أذكرها، لم ألتحق بأيٍّ منها. وكانت، بين الفينة والأخرى، تلجأُ إلى الاستفزاز لتُفهِمَني بطريقتها أنّي أهدر حياتي. كانت تبدو لي غريبةَ الأطوار، لكنني كنتُ أحبُّها. أعتقدُ أنَّ أكثر ما كان يؤثّر فيّ هو عطفُها تجاه العالم.

بدأ جبلُ ماتشابوتشير يلمعُ قبالتي. كان ذلك العملاقُ ذو القمَّتين يحملُ اسمه عن جدارة: «ذيلُ السمكة». كان الزمن معلَّقاً، يبدو كأنه غير موجود. فكّرتُ في وجودي هنا، وفي رومان، وفي هذه الرحلة، وفي هذه المهمة، وفي هذا اللقاء مع شانتي الذي يقلبُ حياتي ويقينياتي، إذا بشعاعٍ قويٍّ يصدمُ عينيَّ. خبتْ ألوانُ العمالقة المغطَّاة بالثلوج، وانتقلت من البرتقاليِّ المُشِعِّ إلى تنويعات صفراء لتلتحف في الأخير فستانَها الأبيضَ على إيقاع كرة الشمس التي كانت تتقدَّمُ في السماء. كان العدُّ العكسيُّ قد انطلق، ويمكنُ للنهار أن يبدأ.

سمعتُ أصواتَ الحركة الصباحية في الدور السُّفليّ. كانت روائحُ القهوة تتسرَّبُ عبر الجدران، فتُداعب منخرَيَّ. أخذتُ نفَساً عميقاً وخرجتُ بشجاعة من غشائي لأرتديَ ثيابي المجمَّدة بالبرودة. شعرتُ بنفسي خفيفةً. لا شيء يسيطر عليَّ. فكّرتُ في كلمات مايا، ثم في كلمات شانتي في مواجهة أولويّاتي.

نزلتُ السلالم والتحقتُ بحركة الدار. اقترحت عليَّ أميتا أن أختار من قائمة الطعام ما يطيبُ لي. كنتُ جائعةً فتناولتُ فطوراً كاملاً: عجّة بيض، فطائر بعسل الجبل، وعصيدة. سيسمحُ لي ذلك أن أصمد بضع ساعات...

كان الموقدُ المركزيُّ يدفئُ الغرفةَ كلَّها. وكان تيم، وغومار، ونيشال يستعدُّون واحداً تلو الآخر أمامَ قطعة المرآة الوحيدة في المطبخ. جاء شانتي ليجلس بجانبي وفتح خريطةً. «سنصعدُ هذا الصباح إلى غاية مرتفع دورالي، على علو ألفين ومائة متر، ثم سننزلُ، من الجهة الأخرى، إلى قرية لاندروك، في الأسفل».

كان الطريقُ يبدو بلا نهاية بالنسبة إلى اليوم الأول، لكنني ركَّزتُ انتباهي على طاقتي الجديدة. «سأسيرُ خلفكَ، أو سأحاول!»، تمكَّنتُ من أن أتمتمَ بِفَمٍ مليء بالطعام. «سننطلقُ بعد نصف ساعة، ستكون الشمسُ قد ارتفعت بعض الشيء فتدفئ أشعَّتُها درجات الحرارة». وأعادني الصمتُ الذي أعقبَ ذلك إلى انشغالي الأول من جديد.

منذ أن وصلتُ إلى كاتماندو، لم يستطع أحدٌ أن يُلقيَ لي بعضَ الضوء على تلك الطريقة التي بدت أجمل من أن تكون حقيقةً. كيف يمكن أن تكون مجهولة في حين أنَّ ملايين الأشخاص يعانون من السرطان؟

«ما رأيكَ في الكتابات التي نحن ذاهبون للبحث عنها، يا شانتي؟ هل سمعتَ بها؟

- كلاَّ، لكن توجد أسرارٌ كثيرة محفوظة في الهيمالايا، تسبّب بعضُها بحروبٍ بين الصين والتِّبت ولا تزالُ مصدرَ صراعاتٍ إلى يومنا هذا. إنْ كان من حظِّكِ أن تَصِلي إلى نهاية الطريق، فستحصلين على إجابتكِ.

- لماذا الحظّ؟ أنتَ تُقلقُني...

- لأنَّ الطريق طويلٌ ولا يعلمُ سوى الله إن كنّا سننجح في الوصول».

ظلَّ شانتي غامضاً حول الموضوع وقليل الإفصاح، وهو أمر لم يساعد في طمأنتي. شعرتُ أني مكلَّفةٌ بمهمة أوسع من تلك التي تخيَّلتُها.

«لكن، هل تؤمن بتلك الكتابات؟

- كي أومن بها، لا بد أن أعرفَ ما الذي تشتملُ عليه. لا تشغلي بالكِ. خطوةً تلو أخرى. نحنُ على الطريق الآن، وسنحصُلُ على إجاباتنا في الوقت المناسب».

أنهيتُ صحني وخرجتُ أنشِّطُ ساقيَّ المتعبتين ممّا بذلتُهُ من جهد في الأمس. استنشقتُ روائحَ الغابة المتسرِّبةَ من السطوح المجاورة فأثلجَتْ شُعبي الهوائيةَ. نزلتُ إلى القرية وتوقفتُ مرّاتٍ عديدة أمامَ الجبال الشامخة، ثم عدتُ صاعدةً إلى الفندق.

كانت ساعةُ الانطلاق قد دقَّتْ. كان نيشال يُنهي سيجارتَهُ، جالساً فوق حاجز حجريٍّ قصير بجانب أمتعةٍ، في الوقت الذي كان تيم يعدو خلف فراشة.

سارَ غومار في المقدِّمة، وسرتُ في عقبه، يتبعني شانتي.

ارتقينا السلالمَ التي لا تنتهي، في صمت، درجة تلو أخرى، تحت الأشعة الخفيضة التي كانت تُلوِّنُ المنظرَ بأنوار ذهبية. ركزتُ انتباهي على الجبال العملاقة التي بدت أنها تحمينا وتزوِّدنا بالقوّة على التقدُّم. أجبرتُ عضلاتي الأليمة على الانقباض، فأطلقتِ الحرارةَ المتوقَّعة منذ الأمتار الأولى.

كان جسدي يحترقُ من الجهد. عند أوَّل استراحة، تخلَّصتُ من بعض ملابسي، ونيشال يُشعل سيجارةً جديدة: كأنَّ الأوكسجين في المرتفعات يصيرُ شديد الكثافة بالنسبة إليه. اقتربتُ من شانتي الذي كان يتفحَّصُ الوادي.

«فكرتُ فيما شرحتَهُ لي أمس عن الأولويات. كلامُكَ مصيب، لكن لا يتوقَّفُ كلُّ شيء عليَّ. أحد هواجسي هو أن أعيش الحُبَّ. ومن أجل ذلك، ينبغي أن أجد الشخصَ المناسبَ، وإلى حدِّ الآن، لم يحصل ذلك.

- أنتِ محقّةٌ، الفرصُ حاسمةٌ، لكن هل أنتِ منفتحةٌ على اللقاء بالناس؟ على جميع أشكال المواعيد؟ لقد وضعتِ أسماءً لأولويّاتِكِ، وعليكِ الآنَ أن تُغيِّري من حالتكِ الذهنية كي تستقبلي الفرصَ دون أن تُكرِّري الأخطاءَ نفسَها. لتحصلي على السعادة، يجب أن تفكِّري بطريقة مغايرة، أن تكوني إيجابيةً، وأن تؤمني بما ترغبين فيه وبالحياة، لأنَّكِ تجذبين ما أنتِ عليه.

- أنا شخص متفائل!

- هذه بداية جيّدة. لكن أن تكوني إيجابية، يعني أن تنفتحي نحو الخارج. لنأخذ مثالاً: إن كنت تريدين أن تسألي عن الوقت في الشارع، هل ستتوجَّهين إلى الشخص المستعجل، والمنشغل بمكالمة هاتفية، أم إلى الشخص الذي يبتسمُ لكِ؟

- سأتوجَّهُ إلى الشخص الذي يرحِّبُ بي بنظرته، أليس كذلك؟ لن أرغب في إزعاج الشخص الآخر.

- سأفعلُ الشيء نفسَهُ! غير أن هذا لا يمنعُ الشخصَ المنشغلَ بمكالمته الهاتفية من أن يكون متفائلاً، أليس كذلك؟

- نعم، أنا الآن أفهمُ ما تقصده. لكن كيف ينفتح المرءُ نحو الخارج؟

- يتعلّق الأمر بالامتلاء من الداخل. عندما تجترِّين أفكاركِ المؤذية، فإنَّكِ تزفرين السِّلبيَّ، وجسمُكِ كلُّهُ يعبِّرُ عن هذا الوضع: تتوتَّرُ عضلاتُكِ، وينقبضُ وجهُكِ، ولا تستطيعين اغتنام الفرص التي تُتاح لكِ. وعلى العكس من ذلك، عندما تكون أفكارُكِ إيجابيةً، فإنَّ كيانَكِ يرتخي، وتصيرين أكثر انفتاحاً، ويشعرُ الأشخاصُ الذين يلتقون بكِ بالرغبة في التقرُّب منكِ».

خلعَ شانتي معطفَهُ ووضعهُ حول خصره. اغتنمنا ذلك لنرتاح برهةً قصيرة، وقال لي شارحاً ونحن ننطلقُ من جديد:

«تقولين إنَّ إحدى أولويّاتِكِ هي أن تجدي الحبَّ، غير أني أسمعُكِ تقولين إنّكِ لستِ مخلوقةً للعيش مع زوجٍ، وإنّ هذا النمط من العيش لا يناسبك، وإنّك عانيتِ ما فيه الكفاية. وما دمتِ تحتفظين بهذه الحالة الذهنية، فلا شيء يمكن أن يتغيَّر. إن السعادة على بابِكِ، لكن ينبغي لكِ أن تقبلي بأن تفتحي لها البابَ.

- ضعْ نفسَكَ مكاني! لقد التقيتُ برجالٍ لا يستحقون أن أضحِّيَ بوقتي من أجلهم.

- لماذا فعلتِ ذلكَ إذاً؟

- لأنني لم أكن أدرك الأمر إلا بعد الانفصال.

- من المهمّ أن تستخلصي الدروسَ من تجاربِكِ، وإلاَّ فإنَّكِ ستبقين تكرّرين الأفعال نفسها.

- أتفقُ معكَ! ولذلك لن أسقطَ في الفخِّ من جديد، صدِّقني!

- إنَّ الأخطاء الحقيقية الوحيدةَ هي تلك التي نقترفُها باستمرار، أما الأخطاء الأخرى فهي فرصٌ فريدةٌ للتعلُّم. لا تخشي الفشل، لأنه رائدُ النجاح. كوني جريئةً، فإنَّ الحبَّ يقتضي المجازفةَ. فإنْ كنتِ منغلقةً على ذاتكِ، لن يقصدكِ أحد ليسألكِ عن الوقت.

- ليس من السهل أن يحافظ المرءُ على روحٍ إيجابيّةٍ!

- إنه أمر يُعمَل عليه مثله مثل الجسد. إذا رغبتِ في نحت جسدكِ، فينبغي لكِ أن تُمرِّني عضلاتكِ وأن تكوني حريصةً على الالتزام بنمط حياة صحيّ. لن تحصلي على النتيجة المبتغاة وأنتِ لا تمارسين سوى نصف ساعة من الرياضة في الشهر وتبتلعين الأطعمةَ الدسمة. والأمرُ سيان بالنسبة إلى الذهن. ينبغي لكِ أن تراقبي أفكارَكِ كلَّ يوم وأن تحرصي على ألَّا تسمحي للنزعة السلبية بأن تُلوِّثَكِ. أن نكوّن إيجابيين يعني أن نتمكَّنَ من التحكُّم في مخاوفنا؛ وأن نؤمن بأحلامنا، وأن نتصوّرها ونغتنمَ الفرصَ المتاحةَ. أنتِ أنجزتِ الأهمَّ: قرَّرتِ وجهَتَكِ بتحديد أولويّات حياتِكِ، إذ يسهلُ علينا أن نتقدَّمَ في الطريق عندما نعلَمُ إلى أين نسيرُ.

- أجل، لكن يصعُبُ علينا أن نؤمن بأحلامنا عندما نكون قد تأذينا»، قلتُ متنهِّدةً.

عبرتْ إوزَّتان مخطَّطتا الرأس فوقنا. تابعَهما شانتي باندهاش لحظاتٍ وهما تبتعدان، وشرح لي أنَّه من النادر أن تُشاهَدَ في هذه الفترة، ثم واصل كلامَهُ:

«ألَّا ترغبي في الحُبِّ من جديد لأنَّكِ تألمتِ هو خيارُكِ، لكن

ينبغي لكِ حينئذ ألّا تتشبّثي بأولويّة أن تعيشيه. أليست كلُّ حالة مختلفة؟ أليس كلُّ شخص متفرّداً؟

- أجل، بالتأكيد، لكن يُهيَّأُ لي أنني لا أحسنُ التصرُّفَ في هذا الأمر، فلا ألتقي إلا بأناسٍ يسيئون إليَّ.

- إنَّكِ تجذبين ما تعتقدين. لا يسمحُ خوفُكِ من المعاناة لأحدٍ أن يدخل إلى عالمكِ. وعندما تقفلين الولوجَ إليكِ، فإنَّكِ تحبسين نفسَكِ».

زفرتُ نفساً طويلاً. كان شانتي مرةً أخرى على حق: كنتُ أُعاني في حياتي بسبب ما أقيمُهُ من حواجز من حولي. كنتُ أختلقُ الأعذارَ كيلا أُقِرَّ بذلك وأُغرِقُ نفسي في العمل لأنسى أحلامي.

«ما الذي ينبغي عليَّ أن أفعل لأعيشَ مُثُلي؟

- أخبرتُكِ بذلك: أن تُغيِّري حالتكِ الذهنية. وهذا يعني أنه يتوجب عليكِ أن تتحكَّمي في كل فكرة من أفكاركِ وتتأكَّدي من أنها متناسقة مع الهدف الذي تسعين إليه. وما أن تَضِلَّ إحدى أفكارك، إلَّا وأعَدْتِ صياغتَها لإعادتها إلى الطريق المستقيم. ليس من الضروري أن تنسيْ انفصالاتِكِ السابقةَ المؤلمة. خذي منها الدروسَ والعِبَرَ وتوقَّفي عن الاختباء خلفها. تصوّري الهدفَ: إنْ كانت أولويَّتُكِ أن تلتقي بشخصٍ ما، فأيُّ نوعٍ من الرجال هو؟ ما الذي تودِّين أن تُقاسميه؟ أيُّ نوع من الحياة تتمنَّين؟ تأكَّدي من عدم وجود أيِّ فكرة ضارَّةٍ تُبعِدُكِ عن ذلك الموعد الذي يُقبلُ عليكِ بخطى حثيثة. أما بالنسبة إلى الباقي، فاتركي الأمرَ للكون، سيتكفَّلُ به!».

وبينما كنتُ أبحثُ عن مَزَادتي في حقيبة ظهري، إذا بي أشرعُ في الحلم بأميري الساحر، نسيرُ يداً في يد فوق رصيف نهر السين، ونحن نُشيِّدُ خطط حياة مشتركة، كلُّها عشاءات رومانسيةٌ في جهات

العالم الأربع، وضحكٌ من القلب، والتحامٌ بين جسدينا... فغمرَ قلبي دفءٌ ناعمٌ. كان شانتي قد جلسَ فوق صخرة، وتركني لأحلامي العاطفية. اتَّخذتُ مكاني إلى جانبه، وشربتُ جرعةَ ماء واعترفتُ له:

«بدأتُ أفهمُ.

- بِمَ تشعرين؟

- بالسعادة.

- هل تشعرين بالطاقة التي تتحرَّكُ داخلكِ؟

- أجل، أشعُرُ بالصفاء والهدوء. أشعر أنَّ قيودي تتلاشى.

- هذه هي الحالة التي ينبغي لكِ أن تقتربي منها ما أمكنكِ الاقترابُ. تريَّثي وأنتِ تفحصين هذه الراحة التي تشعرين بها واسترجعيها كلَّما راودَكِ شَكٌّ».

شعرتُ بالحركة تدبُّ في قلبي والانفعال يغلبني. أدهشني صمتُ دماغي؛ لم أعد قادرةً على التفكير، كنتُ بخير. كانت قيودي تنفكُّ قيداً تلو الآخر.

كان رفاقُ الطريق قد التحقوا بنا وأقاموا على بضعة أمتار منّا. نهضَ مُرشدي، فنهضتُ بدوري وقد دوَّختْني تلك الطاقةُ الجديدةُ. كان إحساسٌ بالخفَّة يرافقُ ابتسامتي البهيجة، التي أضحكت الرجالَ الأربعة. استأنفنا سيرَنا مسرورين.

ربَّتَ غومار على كتفي، ثم واصلَ بحركةٍ واسعة ودائرية، منحنياً بوقار جميل يدعوني إلى المرور. سِرْنا بعض الوقت جنباً إلى جنب، وحدَّثني عن أسرته بعد أن أراني صورةَ أطفاله الثلاثة. كانت هذه المرة الأولى في أربع وعشرين ساعة التي أتبادل فيها تواصلاً يتجاوز النظرات مع هذا الرجل الشديد الحساسية، والذي اكتفى

بدور الملاحظ إلى غاية تلك اللحظة. وكان تيم يتسلّقُ أمامي، يقفزُ مثل الجديان التي كنّا نمُرُّ بها في المزارع في طريقنا، سعيداً بأن يشاركَ في تلك اللحظات الخاصة. بدا أنَّ حراسي الشخصيين الأربعة قد شعروا بسعادتي وبآثارها المباشرة على جماعتنا الصغيرة. وكان شانتي يقفلُ المسيرَ بصمتٍ، وعلى شفتيه ابتسامةٌ. وكنتُ ألتفتُ بين الفينة والأخرى لأطمئنَّ على حضوره، فكان يؤكدُ لي ذلك بغمزة من عينه.

سمعتُ أصواتَ حوافر ورنينَ أجراس صغيرة تصلنا من بعيد وتقتربُ منّا. كانت قافلة من الحمير، محمَّلَةً بأكياس مليئة بالبضائع على جنبيها، تتقدَّمُ في صفٍّ طويل، تقودُها صيحاتٌ صغيرةٌ متتالية يُطلِقُها ولدٌ مراهقٌ. وعندما حادثْنا البهائمُ، بدا القلقُ في عيونها وأسرعت خطاها. تأملتُ مرورَ القطيع، ثم استأنفتُ صعودي إلى جانب شانتي.

«لقد أجمعتُ قراري، سأحاولُ أن أغيِّر من حالتي الذهنية بمجرد أن أعود إلى باريس.

- ولماذا ستنتظرين إلى أن تكوني في فرنسا؟

- بالله عليك يا شانتي... ليس هذا هو المكان الذي سألتقي فيه بشخص ما!

- ولِمَ لا؟».

قهقهتُ ضاحكةً.

«أنا أتحدَّثُ عن حياتي العاطفية.

- فهمتُ ذلك! المستقبلُ لا يحدث أبداً، يا ماييل، وحدهُ الحاضرُ حقيقيٌّ. تريدين أن تكوني سعيدةً وأن تُحقِّقي أحلامَكِ، فلا تنتظري 'فيما بعد'، غيِّري حالتكِ الذهنية الآن. كوني منفتحةً على

الفرص المتاحة وعلى اللقاءات. إنما الحياةُ مجموعُ لحظاتٍ راهنة. وكلُّ ثانية مهدرة إنما هي ثانية ضائعة لن نستعيدَها أبداً».

تغيَّرتْ نبرةُ شانتي. لم تعد قناعتُهُ تتركُ مجالاً لأي شَكٍّ. أدركتُ أنَّ نظامَ أفكاري الآلية يقودني نحو أماكن محفوفةً بالمخاطر، فكان ينبغي لي أن أعيد توجيهه صوبَ أهدافي. لكن، كيف أفعلُ ذلك؟ استبق شانتي سؤالي. مكتبة سُر مَن قرأ

«هل تعلمين أنَّ المرءَ يحتاج إلى واحد وعشرين يوماً ليكتسب عادةً؟

- أتقصدُ أنني في إمكاني أن أتحوَّلَ في مدة ثلاثة أسابيع؟

- كلَّا! يمكنكِ أن تتغيَّري في ثانية واحدة، لكن هذا هو الوقتُ اللازم في العموم كي تحلَّ أفكارُكِ وأفعالُكِ التلقائيةُ الجديدةُ محلَّ القديمة.

- لكن، كيف لي أن أغيِّرَ أفكاري؟ إنها تأتي دون أن أنتبه إلى الأمر. هل يمكنكَ أن تساعدني على أن أضبطها؟

- لا أستطيعُ أن أكون داخل رأسكِ. واعلمي أنكِ لن تستطيعي أن تتحكَّمي فيها جميعاً، بما أن هنالك ستين ألف فكرة تدور في دماغكِ كلَّ يوم. غير أنَّكِ ستُسكتين، شيئاً فشيئاً، أصواتَ لجنة المحتجِّين التي تأخذ من الأهمية أكثر مما تستحق. إنَّ أفكارك السلبية هي عدوُّكِ اللدود، لأنها تحول دون التغيير. ألا تسمعين نفسَكِ وأنتِ تُردِّدين قائلةً: 'هذا ليس واقعيّاً، لا يستحقُّ الأمرُ حتى أن يُجرَّب. لقد حاولتُ: لم تجر الأمور بخير، أنت تضيِّعين وقتَكِ، ما تفعلينه لا يصلحُ لشيء، لا تستمرِّي في وضع ثقتك في أيٍّ كان، أنتِ تعرفين نتائج ذلك...'».

لم يكن لي بُدٌّ من أن أوافق على كلامه. كأنَّ شانتي قد ولَجَ إلى داخل رأسي.

«أنتِ لا تتخيَّلين مدى السلطة التي تمارسُها تلك الأفكار علينا. إنها تحتفظُ بحياتنا في نمط 'الإيقاف'.

- طيِّب، لنفترضْ أنني سأتمكَّنُ من تحديد الأفكار السيِّئة من بين الستين ألف فكرة التي تعبُرُ نهاري، وهو أمرٌ غير مضمون، فكيف لي أن أطردَها؟

- حاولي أن تُعوِّضي كلَّ فكرةٍ سلبيةٍ تتولَّدُ، ولو كانت تافهةً، بفكرة أخرى إيجابية تعاكِسُها، ثم امنحي هذه الأخيرةَ أهميةً أكبر. فعلى سبيل التمثيل، عندما تستيقظين ويكون الجوُّ ماطِراً، ما هو الإحساس الذي ينتابُكِ أوَّلاً؟».

تخيَّلتُ المشهدَ فخرجت الجملةُ بتلقائية من فمي:

«يومٌ لعين آخر من المطر...!». ابتسمَ شانتي.

«وهكذا تفتتحين صباحَكِ دون أن تُدركي إلى أيِّ مدى تُعكِّرُ هذه الجملةُ سعادَتَكِ.

- أجل، لكن ما الذي في إمكاني أن أفعله فيما يخص أحوال الطقس؟

- لا شيء! لكن في المقابل، يمكنكِ أن تُغيِّري حالتكِ الذهنية! إنّ الماء عنصرٌ حيويٌّ. فإذا ذكَّرتِ نفسَكِ بنِعَم المطر على الغابات، والعشب، والزهور، والحقول، وتنظيف الشوارع، وغيرها، فإنَّ غضبكِ سيتبخَّرُ وستكونين ممتنةً لهذا الكنز المرسَلَ. ستشعرين أنَّكِ سعيدةٌ ومحميَّةٌ بهذه الدورات الضرورية لتوازنكِ. سيتحوَّلُ الاعتداءُ الذي شعرتِ به عند خروجكِ من البيت إلى تحقيق وعي. فإنما ستشقّين طريقَكِ بواسطة ممارسة المراقبة المستمرة على أفكارِكِ.

- لا أريدُ أن أكون متشائمة، لكن يبدو لي أنَّه من المستحيل مراقبةُ ستين ألف فكرة في اليوم!

- انظري إلى الجبل خلفَكِ، ألم يبدُ الوصول إليه مستحيلاً هذا الصباح؟».

التفتُّ ناظرةً إلى الطريق الذي سلكناهُ واندهشتُ.

«لقد ارتقيناهُ خطوةً خطوةً. تقدَّمي، فكرةً تلو الأخرى، وستجدين نفسَكِ أبعد ممّا كنتِ تتصوَّرين. هل تعلمين أنَّ 80% من أفكار اليوم هي من أفكار الأمس؟

- إنكَ تمنحني بعضَ الأمل! إنْ أنا محوتُ الأفكار السيِّئةَ يوماً تلو آخر، ولم أخلق غيرَها، فلن تتجدَّدَ سوى الأفكار الجيّدة!

- تماماً!».

استعنتُ بملامح المنظر الطبيعيِّ الرائع دائماً، لأخفِّفَ من جهد الصعود إلى غاية مرتفع دورالي. استندتُ لحظةً إلى شورتن[1]، وهو نوع من الشرفة الجبلية المطلَّة على الوادي، وتأمَّلتُ المزارعين المنحنين على المحاريث في البعيد، يفلحون بها الأراضي في المدرّجات، ثم استأنفتُ تفكيري إلى أن بلغنا استراحةَ الغداء.

قدَّمتْ لنا أسرةُ فلاحين بعض الخضر المطبوخة مع الأرز، ثم استسلمنا للشمس وقد امتلأت بطوننا، قبل أن يُعلنَ شانتي عن انطلاق المرحلة الثانية من النهار.

لم أكن قد انتبهتُ من قبل إلى طنين تلك الأفكار الآلية المتواصل. حاولتُ أن أستوعب ذلك الاعتبار الجديد بالتدرّب على الصُّور التي كانت تعبُرُ ذهني. كنتُ أتصوّرها، محاولةً أن أفاجئها

---

(1) Chörten: مزار بوذي - المترجم.

لحظةَ ولادتها مثل قطٍّ متربِّصٍ بفأر عند خروجه من جحره. غير أنها كلما زاد انتظاري إياها، قلَّ ظهورُها. وما أن يتراخى انتباهي حتى يستحوذ عليَّ سيلٌ متواصلٌ من المشاهد المتنوِّعة: الملفّاتُ التي تنتظرني في باريس، سرطان رومان، أهدافُ حياتي، ثم يستحوذ العملُ من جديد، مقترناً بشعوري بالذنب لكوني سافرتُ وتركتُ كلَّ شيء. وماذا لو أنَّ رومان لم تجد طريقاً إلى الشفاء، وماذا لو أنَّ الحبَّ لم يوجد من أجلي أنا، وماذا لو أنني محكومٌ عليَّ أن أعيش وحيدةً، وماذا لو... وماذا لو... وماذا لو...

قطع شانتي خيالي الخصبَ ليُعيدني إلى واقع اللحظة.

«يدفعني حاجباكِ المعقودان إلى أن أفترض أنكِ غادرتِ النيبال؟ يمكنكِ أن تلاحظي إلى أيِّ درجة تستطيع الأفكارُ أن تحبسَكِ.

- المدهِشُ في الأمر هو أنني كلما حاولتُ أن أتأمَّلَها، فإنها لا تحضُرُ. وما أن يتراخى تيقُّظي حتى تُسيطر أفكاري الآليةُ من جديد. اختلطت المخاوفُ بأفكاري إلى أن أخرَجْتَني من هذا القفص.

- إنَّكِ الآن قد فهمتِ نقطةً جوهريّةً. إذا بقيتِ حاضرةً فيما يحدُثُ، فإنَّكِ تعيشين اللحظةَ. تغتنمين الفرصَ. وعلى العكس من ذلك، ما أن تقعي أسيرةَ أفكاركِ، حتى تنقلكِ إلى الماضي أو المستقبل مع كلِّ ما ينتج عن ذلك من قلق.

- لستُ أدري في أيِّ لحظة يُفلِتُ كلُّ شيء مني، فأجدني أسيرةً، كأنني منوَّمةٌ مغناطيسياً.

- كلما ازداد وعيُكِ بأفكارك الآلية، قَلَّتْ هيمنتُها عليك. والملاحظةُ تُخرجُكِ من تلك الدائرة اللعينة. في مرحلة أولى، تكفيكِ بضعُ ثوانٍ من الانتباه، ثم أكثر فأكثر كلَّ يومٍ، إلى أن تصبح هذه العمليّةُ طبيعيةً.

- لكن، لولا تدخُّلُكَ لظللتُ محبوسةً. فكيف السبيلُ إلى أن أتحرَّرَ وحدي؟

- حين شرعتُ في العمل على أفكاري، حدَّدتُ لنفسي نقاط تذكير: كلما ولجتُ باباً، حاولتُ أن أعيد تركيزَ انتباهي. كنتُ أُدرِكُ، عند نهاية النهار، أنني لم أفكِّرُ في الأمر سوى مرة واحدة من عشر، لكنني تحسّنتُ مع الوقت. يمكنك أيضاً أن تُبرمجي إشارةً في هاتفكِ لتنبّهك كلَّ ساعة وتسمحُ لكِ أن تظلّي منتبهةً، فهذا يساعد أيضاً!».

شغَّلتُ على الفور تنبيهاً كلَّ ساعة بصوت جرس تقليدي من بين القائمة المقتَرَحة، ما أثار سلسلة من الضحكات لدى أصدقائي. بدا لي العملُ على الفكر أمراً هائلاً، لكنني بقيتُ إيجابيّةً. خطوةً تلو أخرى. لا مجال لأن أتخاذل.

حملتنا فترةُ ما بعد الظهيرة إلى لاندورك عبر حَدُورٍ متدرِّجةٍ على طول المصاطب الزراعية التي كانت تطبعُ المنظرَ الطبيعيَّ في ذلك المنحدر من الوادي. وعلى جانب من الجبل محفورٍ على شكل أدراج، كان الفلاحون يحصدون الدَّخَنَ ويحملون هذه الحبوبَ المقطوعةَ بالمقضاب في سلالهم المصنوعة من الخوص، وينقلونها إلى السطح العُلويِّ. وهناكَ كان ينشرُها آخرون فوق قطع واسعة من القماش المشمَّع قبل أن ينخلوها بواسطة نوع من الغربال. لبثتُ بضعَ دقائق أمامَ امرأة نيبالية مقرفصة تستعمل الغربال بخفّةٍ.

كان رفاقي قد استأنفوا السير، فأسرعتُ الخطى لألحق بهم. هبطنا طريقاً حجريّاً، ونحن نتابعُ حياةَ الفلاحين مدَّةَ ساعةٍ من الزمن، ثم وصلنا إلى قرية هذه المرحلة تحت سماء رائعة.

كانت الأنابورنا الجنوبيّة والهيونتشولي[1] أمامنا على علوٍّ سبعة آلاف متر، وكان جمالُ تلك الجبال يُلطِّفُ من عنف ما كنَّا نبذلُهُ من جهود. استمتعتُ بغروب شمس رائع: كان الضبابُ يُغلِّفُ الغاباتِ والقُرى المبثوثةَ، ولم تكن تخترقُ الحجابَ الصوفيَّ المشدودَ بين الصخور سوى القمم الشاهقة. وكانت الأشعةُ المغراء تُعانِدُ غبشَ دوَّامات الوادي.

كان نيشال يجلس أمامَ مدخل النُّزل، حول صفيحة مستديرة من البرونز وتماثيل صغيرة من المعدن نفسه، «يواجهُ» صاحبَ البيت، وكان تيم يتابعُ المباراةَ بقلق. تقدَّمَ شانتي نحوي. «الباغ شال لعبةٌ نيباليةٌ تقليديّةٌ. 'باغ' تعني 'نَمِرٌ' و'شال' تعني 'الحركة'. نمارسُ هذه اللعبةَ كثيراً هنا. انظري، فوق الصحن مرسومةٌ خمسة سطور أفقية، وخمسة عمودية وأخرى مائلة. لدى نيشال عشرون عنزةً، ولدى اللاعب الآخر أربعة نمور. يتوجَّبُ على حمّالنا أن يعملَ على منع النمور من الحركة، في الوقت الذي تحاول فيه النمورُ ألاَّ تُعَرقَلَ، وتقوم من أجل ذلك باختطاف العنزات، بالقفز فوقها، كما هو الأمرُ في لعبة الدّاما. يكون النصرُ حليفَ المعز إن لم يتمكن أيٌّ واحد من النمور الأربعة من التنقُّل عندما يصلُ دورها. وفي المقابل، تنتصر النمورُ إذا نجحت في القضاء على خمس عنزاتٍ من العشرين».

كانت اللعبةُ تبدو بسيطةً، غير أني سرعان ما أدركتُ أنَّها تتطلَّبُ كنوزاً من الاستراتيجية. لم أسهر في ذلك المساء، حيث وقع جسدي رهينة التعب وآلام العضلات. نمتُ بسهولةٍ غِبَّ عشاء جيّد.

---

(1) مجموعة جبال من الهيمالايا في النيبال - المترجم.

معلَّقٌ

«يبدو الأمرُ دائماً مستحيلاً، إلى أن نفعلَهُ».
نيلسون مانديلا

كانت أول حركاتي الصباحيةُ عذاباً لا يُطاق. فبالإضافة إلى التشنُّجات العضلية التي لم تفارقني طوال الليل، كانت مشقَّةُ الإقامة تزداد يوماً تلو آخر: لم يكن السرير سوى لوحٍ خشبيٍّ يغطِّيه فراشٌ ضئيلٌ. بهذه الوتيرة، لن يتبقى لي سوى أن أنام على الأرض، وفي العراء!

توجَّهتُ بصعوبة، وظهري يؤلمني، إلى القاعة المشتركة لتناول فطوري. كان الليلُ الجليديُّ ينسحبُ أمامَ أولى أشعة الشمس. لمحتُ شانتي جالساً القرفصاء فوق صخرة. دخل بعد دقائقَ إلى القاعة، بمظهره اللطيف. فرك ذراعيه بقوة ليتدفَّأَ، وسألني بطرف شفتيه المخدَّرتين من شدة البرد، إن كنتُ قد نمتُ جيّداً. كان جسمي كلُّهُ يؤلمني، وكنتُ أودُّ أن أعود إلى النوم، لكن نظراً إلى حالة السرير، فلا بأس في أن أظلَّ واقفةً! اقترحَ عليَّ شانتي أن أمارسَ بعض حركات التمدّد لإراحة عضلاتي بعد الفطور، قبل أن نستأنف الطريق.

أحبطني الصعودُ الأولُ، غير أني سرعان ما وصلتُ إلى إيقاعي بتشجيع من رفاقي. كانت قممُ أنابورنا تستبدُّ باهتمامي، مخفِّفةً من مصاعبي الجسدية. استغرقَ الصعودُ أكثر من ساعة. وكما أخبرني شانتي، صارت عضلاتي الساخنة أكثر طاعةً في استجابتها، إلى أن وصلت لحظةٌ تجمَّدتُ عندها، متحجِّرةً، وشرعتْ ساقايَ في الارتعاش. التفتُّ نحو مُرشدي، لكنني لم أستطع أن أنبس ببنت شفة. أصابتني رؤيةُ جسر معلَّقٍ أمامنا، طولُهُ حوالي مائة متر، بالشلل، وشعرتُ بخوف لا يُطاق. صرتُ شاحبةً، أكادُ يُغمى عليَّ. أدركَ شانتي ما أصابني فمازحني قائلاً: «ما الذي يحدث لكِ يا مايبل؟ لا تقولي إنَّ عبورَ مودي كولا يُفزِعُكِ!».

لم يكن في وسعي أن أتصوَّرَ أنني قد أضعُ قدمي فوق ذلك السطح المخروم المعلَّق على ارتفاع خمسين متراً. تشنَّج جسمي، وتسارعَ نبضُ قلبي، وأحسستُ بالأرض تنسحبُ من تحت قدميَّ. هرع شانتي إليَّ وأجلسني على صخرة.

«لديَّ رُهابٌ من الفراغ، يستحيلُ عليَّ أن أعبر هذا الجسر. أيمكننا أن نسلكَ طريقاً آخر؟

- أخشى أن الأمر ليس ممكناً. لا نستطيع الوصولَ إلى الوادي دون أن نعبر الجسر».

كان تيم يتابعُ المشهدَ، ثم انطلقَ بين الحبال وهو يقفزُ. خلتُ الجسرَ تضاعفَ عددُهُ، من شدة مرونته. وشرعَ الرجلُ الشابُّ، الذي كنتُ أراهُ الآن مضاعَفاً أربعَ مرّاتٍ، يضحكُ فوق مقفازه المرتَجل. كان يصيحُ وهو يقفزُ عالياً، محاولاً أن يُطمئنني.

«هنا ينتهي طريقي، يا شانتي. يجبُ أن نعودَ من حيثُ أتينا». كنتُ جازمةً في كلامي، لا أريدُ أن أدَعَ مجالاً للشكِّ. غير أنَّ

تصميمي لم يُثبِط من عزم مُرشدي. أشار بيده إلى تيم أنْ يهدَأَ، فعاد الأخيرُ نحونا.

قرفصَ شانتي إلى جانبي وسألني برفقٍ عمَّا يُفزعني. «لا يمكنني أن أفسِّرَ الأمرَ، يُصيبُني الفراغُ بالدُّوار. فمهما تكن عزيمتي، لن أستطيعَ العبورَ». نهضتُ، مصمِّمَةً على الرجوع، فاقتربَ مني شانتي: «أفهمُكِ، لكننا لن نتخاذل. الخوفُ ذاتيٌّ، يستندُ إلى تجاربنا السابقة. ألم ترَيْ تيم يتسلّى فوق الجسر؟ ذلك أنَّ دماغَهُ لا يرى في الأمر سوى عبور لطيف، أما دماغكِ فيرى فيه خطَرَ الموت!».

كنّا نسمعُ من الجهة المقابلة صوتَ أجراسٍ يقتربُ. كان شابٌّ نيباليٌّ يسوقُ بعصاً قطيعَهُ من الجواميس والأبقار فوق الشرائح الخشبية المتحرِّكة. كانت الحيوانات تتقدَّمُ في صَفٍّ، الواحدةَ تلو الأخرى، محمَّلَةً بِرِزَمِ الطعامِ المربوطة على جانبيها. بدأت تعبرُ الجسرَ، وكنتُ أخشى أن تصلَ لحظةٌ ينهار فيها الجسر إذا ما صار مُضاعَفاً، مثنى، وثُلاثَ، ثمَّ رُباعَ بسبب توالي حركات الحيوانات. توقف تنفُّسي مدةَ خمس دقائق. كانت حياةُ عشرين من البقر وحياة الراعي الشّابِّ معلَّقةً بحبلين مشدودين، وبضعة ألواحٍ خشبية متشابكة، وسياجٍ رابطٍ. كان الجسرُ يرقصُ من اليسار إلى اليمين، ومن الأعلى إلى الأسفل، خاضعاً لثقل القطيع، ولم أستطع أن أمنع نفسي من أن أرى الجسرَ ينهارُ. تقدَّمَت الجاموسةُ الأولى نحونا: تعثَّرت بلوحٍ غير مستقرٍّ في مكانه ثم استعادتْ توازنها، وواصلتْ سيرَها. بلغَت الحيوانات ضفَّتَنا، وسط هتاف الراعي الشاب، مُصدرةً رنين أجراسٍ تُوَقِّعُهُ خطواتُ حوافرها. تنحَّينا لها لتمرَّ، واحدةً تلو الأخرى، تدوسُ في سيرها، كأنَّ الطريق لم تنقطع عند الجسر.

استعدتُ رباطةَ جأشي، وأنا لا أزالُ أرتعشُ من هول الكارثة التي كانت يمكن أن تقع، في الوقت الذي كان فيه رفقائي ينتظرون، في استرخاء. مدَّ لي شانتي يدَهُ.

«آنَ الأوانُ لتُجرِّبي افتراضية الخوف. فكما رأيتِ قبل قليل، يستطيعُ الجسرُ أن يتحمَّلَ أثقالاً هائلةً: تعبُرُهُ القطعانُ منذ أعوام عديدة. يرقصُ، ويتغيَّرُ شكلُهُ، لكنه ما زال قائماً! يتخيَّلُ دماغُكِ أبشعَ السيناريوهات، لكنها ليست سوى اختراعات. لا شيء فيها حقيقيٌّ.

- ربما، لكن توعّكي حقيقيٌّ.

- إنه الأمرُ نفسُهُ الذي يقعُ في حلم.

- تقصدُ الكابوسَ!

- عندما تنامين، لا يبدو لكِ شيءٌ أكثر حقيقةً من خيالكِ. يتفاعل جسمُكِ مع عواطفكِ: يتشنّج في مواجهة الخوف، ويتسارعُ نبضُ قلبكِ، ويقصُرُ نفسكِ، لكنك عندما تستيقظين، تخرجين من حالة الضغط العصبيِّ هذه، لأنَّ الإشارةَ التي تُعطى لدماغكِ مُطَمْئِنةٌ. والأمرُ نفسُهُ يحدثُ هنا: أنتِ عالقةٌ في كابوس خياليٍّ، أما الحقيقةُ فهي مخالفةٌ تماماً، وأنتِ ترينَ ذلك جيّداً!

- أفهمُ ذلك، لكنَّ الأمر أقوى منّي. إنَّ جسمي يتجمَّدُ إذا ما فكرتُ في أن أحاول.

- ينبغي لكِ أن تُطَمئني دماغك وأن تتحكَّمي في أفكاركِ السلبية كي تخرجي من حالة الفزع هذه. ابدئي بالتَّنفُّسِ عميقاً».

أخذ شانتي ثلاثة أنفاس عميقة. ملأ رئتيه، ثم زفرَ الهواءَ إلى آخر نَفَسٍ، ودعاني إلى أن أحذو حذوَهُ. النَّفسُ الأول انحبسَ، والثاني تمدَّدَ أكثر، والثالثُ حرَّرَ عظمَ صدري. «تمام! الآنَ،

ستُمسكين بكتفَيْ غومار وتتقفَّينَ خطاهُ. ضعي قدميكِ حيثُ سيضعُ قدميه وركِّزي انتباهكِ على صوتي، فسأكون خلفَكِ مباشرةً».

تبادلَ كلماتٍ مع الطبّاخ وطلبَ من الحمالين أن ينتظرانا مع الأمتعة. اتَّخذَ غومار مكانه أمامي، ونهضتُ مثل إنسان آليٍّ وأنا أتعلَّقُ بعنقه. شرعَ يتقدَّمُ، وتبعتُهُ، مرتعشةً، مركِّزةً انتباهي على حذاءيه. وكان شانتي، الذي يسيرُ خلفي، يمسكني من كتفيَّ. «جيّد جدّاً، همسَ لي بعد أن خطوتُ خطوتين أوليين متتاليتين. واصلي. استنشقي بعمق، ثم ازفري الهواءَ برفق». كنتُ أسمعُهُ يبالغُ في تنفُّسه ليشجّعني على التركيز على تنفُّسي. كرَّرَ العمليةَ مراراً. خطوةً تلو أخرى. كنتُ أمشي وفق إيقاع غومار، متشبِّثةً بكتفيه بيديَّ المتشنِّجتين. أخذ الجسرُ يتحرَّكُ كلَّما تقدَّمنا. رأيتُ الفراغَ عبر الألواح المتباعدة، فتسارعَت نبضاتُ قلبي وانقبضتْ عضلاتي.

أحسَّ شانتي بالأمر، فضغطَ على لوحَيْ كتفي ليمنعني من التوقُّف. «اخرجي من كابوسكِ، يا مايبل، لا شيء يمكن أن يصيبَكِ! اغمضي عينيكِ وتنفَّسي. ركِّزي انتباهَكِ على ساقيْكِ، لا تدعيهما تتجمَّدان. تأمَّلي من الخارج ما يحدثُ، لا تدخلي العاطفة. هيّا، تنفَّسي من جديد!».

لم أعد أتحكَّمُ في شيء، مغمضةَ العينين، يجرُّني غومار إلى الأمام، ويدفعني شانتي من الخلف، وكنتُ، مثلي مثل عربة قطار محصورةٍ، أتبعُ القاطرةَ. كنتُ متَّحدةً بهما، فطمأنَني ذلك للحظاتٍ. ثم أخذ غومار يصيحُ، ففتحتُ عينيَّ، كان يشيرُ إلى مُرشدٍ محليٍّ مُقبلٍ من الضفة المواجهة، أن يوقفَ جَرْيَهُ. كنّا في منتصف الجسر، في المكان الأكثر مرونةً. كنتُ أرى النهرَ يتلوَّى بين الصخور في الأسفل، فاستبدَّ بي الفزعُ من جديد، وفقدتُ السيطرةَ على ساقيَّ.

أمرني شانتي أن «أخرجَ» من كلِّ تفكير. «أنصتي إلى صوتي! تخيَّلي أنَّكِ وسطَ البحر على متن باخرة وتتقدَّمين نحو المقدِّمة. الريحُ تهبُّ بقوة، والباخرةُ تعانقُ الأمواجَ».

حاولتُ أن أتصوَّرَ المشهدَ فاسترجعتُ توازني، وأنا أباعِدُ بين قدميَّ لأستعيدَ ثباتي. وبينما كنتُ أتخيّل مقدَّمَة السفينة، مكاني الأثيرَ لتأمُّل البحر، إذا بخطواتي تتتالى. وعندما دعاني شانتي إلى أن أفتح عينيَّ، كنَّا قد وصلنا إلى الضفة الأخرى، على الأرض الثابتة. ابتسمَ لي. «لقد فَعَلْتِها، يا ماييل».

نظرتُ إليه في اندهاش، وانبسطتْ يدايَ المبلولتان بالعرق، وتراختْ عضلاتي، ونشطَ دمي، واجتهدَتْ أنفاسي في استرجاع انتظامها. سمعتُ نيشال وتيم يُصفِّقان في البعيد. لحقا بنا كالبرق، وهما يعدوان بحذقٍ على الجسر. حيَّانا المرشدُ المحلِّيُّ بإشارة من يده وواصلَ طريقَهُ. ثم توقَّفَ لحظةً، وأدبَرَ نحوي وأَسَرَّ إليَّ بجملة باللغة التبتية، ثم استأنفَ مراقبة قطيعه وهو يتقدَّمُ ناقلاً خطاهُ من لوحة إلى أخرى.

التفتُّ إلى شانتي مستفهمةً. «قال: 'إذا طرقَ الخوفُ بابكِ ووجدتِ الشجاعةَ لفتحه، فستُدركين أن لا أحدَ يقفُ خلفهُ'». ابتسمتُ وأنا أنظرُ إلى الرجل يبتعدُ وهو يرقُصُ فوق الجسر.

استأنفنا طريقَنا، غير أنني احتجتُ إلى عدة دقائق لأسترجعَ رباطةَ جأشي. كانت ساقايَ الواهنتان تحملاني بصعوبة. وظلَّ شانتي إلى جانبي، وبصري لا يفارقُ الطريقَ الحجريَّ.

«يتعذَّرُ عليَّ أن أسيطر على عواطفي.

- ليس الأمرُ سهلاً، لكن بوسعك أن تتعلَّمي. إنما تولدُ المخاوفُ من الفكر. وإذا مارستِ تمارينَ منتظمة في تحقيق الوعي،

فلن تظلّي ضحيَّةً لها، بل ستُصبحين المتحكِّمةَ فيها. إن أنتِ تأملتِ ما يحدثُ، فيمكنكِ أنْ تُهدِّئي الطفلَ المذعورَ الذي بداخلكِ. إننا نتنقَّلُ بين وضعَين: الطفل الذي يرقدُ بداخلنا، والبالغ الذي صرناهُ. في وجه مخاوفِنا، تكونُ الهيمنةُ للطفل الصغير، إذ نفقدُ صفاءَ تفكيرنا. إنه يظلُّ حبيسَ عواطفه السلبية، إلى أن يجدَ البالغُ الكلماتِ المطَمْئِنةَ ليُعيدَهُ إلى التعقُّل.

- كيف يمكن تحديد هذين الوضعَين؟

- يعيشُ الطفلُ في الخوف، ينقُصُهُ الاستقلالُ الذاتيُّ. يتغذّى على نظرات والديه. يشعرُ أنه مهجورٌ ومتخَلًّى عنه إذا ما تحوَّلَ الاهتمامُ عنه. يبحثُ عن حبِّ الآخر، ولا يعرفُ كيف يمنحُ الحبَّ لنفسه. يأتي المشكلُ من محيطه ويتغذى غضبُهُ على كبريائه. أما البالغُ فيتنفَّسُ لوحده، ويعرفُ كيف يُطَمْئِنُ نفسَهُ. يعترفُ أنَّ أَلَمَهُ يتأصَّلُ ممّا يخلُقُهُ هو نفسُهُ، لكنه يدرك أنّ الحلولَ في ذاته أيضاً.

- لكن كيف تنتقلُ من مرحلة إلى أخرى عندما يُعميكَ الخوفُ؟

- أُحدّدُ الوضعَ الذي أوجدُ فيه ولا أحكُمُ عليه. فعندما يُهيمنُ الطفلُ الذي بداخلي، أُطَمْئِنُهُ بأنني سأرافقُهُ إلى آخر حياته. وأعاهِدُهُ على أنني لن أسمحَ لأحدٍ أن يصيبَهُ بأذى. فالرجلُ الذي أصبحتُ مسلَّحٌ كي يُرْشِدَهُ».

كانت تلك الصورةُ حول الطفل والبالغ صحيحةً جدّاً، فهذان الوضعان كانا يؤسِّسان مهدَ حياتي اليومية.

أخذتْ حدَّةُ انحدار العقبة تقلُّ، إلَّا أن الصعود كان لا يزالُ صعباً. وشيئاً فشيئاً، أخذتْ عضلاتي المتشنِّجة من الخوف تسترخي. بدا لي كلُّ شيء سهلاً بعد ذلك العبور. توقفنا للاستراحة في قرية جينو داندا، حيث سبَقَنَا نيشال وتيم إلى اتخاذ مكانهما،

جرياً كعادتهما. لم تكن الساعة قد تجاوزت الواحدة زوالاً، وكانت حِزَمُ الأمتعة قد حُلَّتْ وأُفرغَتْ.

«هل انتهى الأمرُ اليومَ؟

- أجل، أقترحُ عليكِ أن نتناول الغداء في الشرفة، ثم أن نحظى ببعض الراحة. وإنْ أردتِ، يمكننا أن ننزل بعد ذلك إلى عيون المياه الساخنة حيث سنستريحُ بقيّةَ ما بعد الظهيرة. ما قولُكِ؟

- أقولُ إنها مفاجأة جميلة! لكن كيف يمكن أن توجد عيون ماء ساخنة في هذه المنطقة؟

- إنها ظاهرة غريبة في هذه المنطقة من الهيمالايا. توجد مدفِّئات حرارية أرضية، أي طاقة حرارية مصدرُها الأرض، فترتفعُ درجاتُ حرارة صخور القشرة الأرضية، وعندما تتسرَّبُ الماءُ، تسخُنُ عند اتصالها بالأحجار الساخنة. هذا أصل عيون الماء الساخنة في جينو داندا».

حيَّتْنا ربَّةُ النُّزل وولداها ذوا الأربعة والخمسة أعوام اللذان كانا يركضان من حولها. صافحَتْني مينكو. كان طفلاها يختبئان خلف أحد ساقيها وهما يتفحَّصاني خفيةً. غمزتُهما فقهقها ضاحكَين وانطلقا يعدوان ليختفيا داخل البيت. ثم ظهرا بعد هنيهة؛ كان أحدُ الولدَين يحملُ كرةً مثقوبةً قدَّمها لي، بينما كان الآخر يرتجل شباكاً بواسطة حجرين كبيرين، مستعدّاً لردِّ تسديداتي. وكان غومار وتيم يُتابعان المشهدَ، مستمتعَين. ناديتُ عليهما ليهرعا لنجدتي، فما كان مستواي الكرويُّ يؤهِّلُني لأن أُباريَ وحدي هذين الولدين «الكبيرين». لم يتأخَّر الرجلان عن اللحاق بنا، كما تقدَّمَ سائحان إنجليزيان ليُعزّزا الفريق. وهكذا كانت المباراة جاهزةً للانطلاق!

وبعد عشرين دقيقة من اللعب، صفَّرتْ مينكو معلنةً نهاية

المباراة. كانت تحمل طبقاً فوقه أربعة صحون من الدال بهات الساخنة، أشعلتْ نيرانَ شهيَّتنا، فدعى شانتي الإنجليزيين الشابين لينضما إلينا، فجلسا إلى الطاولة مبتهجَين. كان هذان اللُّندُنيّان قد منحا نفسيهما بضعةَ شهور إجازة ليُجَرِّبا التأمُّلَ، فأنصتَ شانتي باهتمام وأثرى بمعارفه هذا الموضوع الواسع الذي بدا أنه متمكِّنٌ منه، وكان نيك وآبي مستمتعَين بكلام مرشدي، لدرجة أني شعرتُ كأني أتناول الغداء رفقةَ ثلاثة متصوّفين.

«أنا مندهشٌ من سماع قيمكَ الثورية، قال نيك.

- الثورية؟ تستندُ هذه المبادئُ إلى تعاليم الأسلاف، قال شانتي مبتسماً.

- إنها تجد صعوبةً في عبور الحدود إذاً!

- إذا أحببتُما، يمكننا أن نوحِّدَ طاقاتنا هذا المساء عند غروب الشمس».

سارعَ الشّابّان إلى القبول، ثم تطلَّعتْ إليَّ تلك الكائناتُ العجيبة الثلاثة، منتظرة مني إجابةً. غمغمتُ محرجة:

«لا أعلم شيئاً عن هذه الأمور، لا أريد أن أتسبَّبَ في إفشال تجربتكم.

- الأمرُ بسيطٌ! لا يتطلَّبُ التأمُّلُ أيَّ خصلةٍ معيَّنة. يكفي أن تكوني حاضرةً، سترين!

وفيما كنتُ أبحث عن حجة أخرى تنقذني من ورطتي، قال نيك مستنتجاً: «ممتاز إذاً، اتفقنا! لنلتقِ عند الساعة السادسة مساء في المكان نفسه». نهضَ، تتبعُهُ صديقتُهُ، دون أن ينتظرا ردَّنا. نظرتُ إلى شانتي، مذهولة.

«طلبتِ مني أن أساعدكِ في مطاردة أفكاركِ الآلية، فهذه التجربة يمكن أن تُفيدَكِ. اقبلي بها، حتى إن بدتْ لكِ حمقاء.

- لا تقل لي إنه ينبغي لي، من أجل الوصول إلى ذلك، أن أعبرَ كوكباً من المهووسين! لا أريدُ أن أخيِّبكَ، غير أني أتنازل لكَ عن هذا النوع من الممارسات! أفضِّلُ أن أظلَّ على الأرض، على أن أُحلِّقَ في الفضاء».

نظرتُ إلى هاتفي المحمول على نحوٍ آليٍّ. لا تزال شبكة الاتصال غير متاحة! «كلَّا، اطمئنّي، لستِ بحاجة إلى أن تدخلي عالماً آخر. إنما أطلبُ منكِ أن تُوَسِّعي عالمَكِ فحسب. ما وجهُ المخاطرة في ذلك؟». كان الرجل بارعاً في إقناعي. كان يغيظني، لكن عليّ أن أعترف أنه كان يسحرني. ابتسمتُ. «هذا صحيح، فبرنامجي ليس مزدحماً. طيّب، سنرى هذا المساء!».

اكتشفتُ غرفتي الجديدة، الشبيهة بغرفة الليلتين السابقتين: متقشِّفة... وبعد أن أعددتُ فراشي، هجعتُ ساعةً في الحديقة، تحت الشمس. أيقظني بكاءُ ياني، أصغرُ الشقيقين، الذي فقدَ توازنَهُ وهو يجري. ساعدَهُ أخوهُ الأكبرُ على النهوض. زادتْ دموعُهُ، لكن لم يبدُ على أمه القلقُ. تأكَّدتُ من أنَّ السقطة لم تكن مؤذيةً، وأخذتُهُ بين ذراعيَّ ثم أجلستُهُ فوق ركبتيَّ. انصاعَ دون احتجاج. كانت ثيابُهُ المسودَّةُ من الغبار تدلُّ على درجة نظافته. مدَّ يديه الوسختين نحوي ليُريني ما أصابهما من أذى، لكن لم يكن بهما سوى أثر احمرار خفيف، ناتج عن الاصطدام بالأرض. أخرجتُ منديلاً ورقيّاً من جيبي، ولففتُهُ حول أنفه وجعلتُهُ ينفخُ مخاطَهُ المتيبِّس.

كان شقيقُهُ، الذي ظلَّ بجانبه، يتفحَّصُ كلَّ حركة من حركاتي. حكيتُ له حكايةً في راحة يده المؤلمة، كانت أمي تهمسُ لي بها

عندما كنتُ أعاني مثل تلك المآسي الصغيرة: «باضَتْ دجاجةُ الجدَّة بيضَتَها، هنا». وأخذتُ إبهامَهُ الصغيرَ: «الأولُ رآها»، ثم سبابته «والثاني التقطها»، ومدَّ لي أصبعه الوسطى: «والثالثُ طبخها»، و«الرابعُ أكلَها...» وطويتُ أخيراً خنصرَهُ داخلَ راحة يده وأنا أداعبها: «والصغير النحيلُ، الذي لم يحصل على أيِّ شيء، لحسَ الصحن لحساً». كان الولدان ينظران إليَّ بتمعُّن. لا بد أنهما لم يفهما كلمةً واحدةً، لكن كان صوتي يأسرهما. توقَّفَ البكاءُ منذ كلماتي الأولى، وعوَّضَتْهُ بسمتان بهيجتان عند نهاية حكايتي. ثم انطلق الطفلان يعدوان.

كان شانتي يراقبنا، متأثِّراً. «توجد العين على بعد نصف ساعة من المشي، إن كنا نودُّ أن نستمتع بها بعض الشيء، أقترحُ أن ننطلقَ الآن».

عندما أتذكَّرُ أنني أستقلُّ سيارةَ أجرة في باريس لأقصر المسافات، فإنني أكاد لا أتعرف على نفسي: إذ لم أعد أشعر بأيِّ انزعاج لكوني سأنطلق مشياً من جديد! التحق بنا تيم وغومار، بينما فضَّلَ نيشال أن يرتاح. كان تيم يقفزُ بشبشبه من حجر لآخر فوق الطريق الذي يحفُّهُ الجبل، ويسيرُ شانتي في الخلف، متسلِّياً، وهو يسهر على سير المجموعة. كان الطريقُ ينزلُ في انحدار شديد مسافة كيلومتر كامل. وكانت فكرةُ صعوده عند العودة تُحبطني.

«أرجو أن يكون الأمرُ يستحقُّ ما نبذله من جهد، لأنَّ العودةَ ستكون صعبةً.

- Carpe Diem!».

ها هو مرشدي يتحدث اللاتينية الآن! Carpe Diem: اقطفِ اليومَ دون أن تقلق من شأن الغد.

«لماذا تقلقين من الصعود عند الرجوع، ونحن لا نزالُ بصدد الذهاب؟ فإن كان لا بد أن تفكّري في اللحظة الآتية، ابتهجي بما ينتظرنا!

– آه، صحيح... ينبغي أن نبقى إيجابيين!

– ليس ذلك فحسب. يتمثل العملُ في تقدير ما تعيشينَهُ الآن، وليس في تخيُّل ما ستعيشينه فيما بعد. استمتعي بالطريق الذي تسلكينه، وبالأشجار التي ترقصُ في الرياح، وبالحياة التي تبتسمُ لنا، أنّى وقعتْ عيونُنا. دعي أذنيكِ تنصت إلى الأغاريد التي تولدُ في الصمت، وأنْفَكِ يستنشق العطور المتناغمة، وعضلاتِكِ تنقبض وتنبسط على إيقاع خطواتكِ، واستشعري قلبَكِ يتغذّى على كلِّ ذلك الحبِّ». أخذ قلبي ينبضُ بقوة ملتمساً حواسي. «هذه هي السعادة، يا مايبل! لا تبحثي عنها في مكان بعيد، إنها هنا في اللحظة الراهنة. لا شيء، غير الذي تعيشينه الآن، حقيقيٌّ».

وصلنا إلى مكان قريب من نهر. كان الماء الساخن يخرج من الجبل المشقَّق وينهمرُ داخل خزّانات واسعة مربَّعة منحوتة في الصخر. كان حبيبان يتهامسان في أحد الخزانات، وقد اشتبكتْ عيونهما وأيديهما، يستمتعان بسلامِ ذلك الملاذ، كأنهما وحيدان في العالم.

تحدث شانتي وحارسة المكان لحظات، فطلبتْ منَّا أن نغتسل بصابون طبيعيٍّ قبل أن تعرض علينا أرحب فضاء في الأسفل. كان خمسة قضبان من الخيزران توزِّعُ اندفاعَ ماء الشلاّل إلى العدد نفسه من الرشّاشات تبتعدُ الواحدةُ عن الأخرى بمتر واحد. لم يتردَّد تيم وغومار وسرعان ما كانا يقفان تحت شلاّل ماء ساخن، وليس عليهما من لباس سوى سروال قصير. وما فتئ شانتي أن لحق بهما. ظلَّ

الرجالُ الثلاثة يفركون جلدَهم مدَّةً طويلةً، مصطفِّين على طول الصخر. تردَّدتُ بعض الوقت بسبب ثيابي الداخلية غير الملائمة، لكنني سرعان ما نسيتُ حيائي عندما شاهدتُ المتعة التي يستأثر بها رفقائي الثلاثة.

سالَ الماءُ الساخنُ على رأسي، نازعاً عني طبقةً سميكةً من الغبار، وانتظمَ شعري المتشابك تحت الصبيب السريع لذلك الماء المطهِّر. اندسستُ مع الآخرين داخل الحوض المخصَّص لنا، وسبحتُ والماءُ يقتحمُ جميعَ مسام بشرتي. يا لها من سعادة!

وكان شانتي، المنعزل في زاوية، يطفو أفقيّاً. بدا كأنه هاجعٌ على ظهره. وبعد بضع دقائق، اقتربَ مني.

«أكنتَ نائماً؟

- كلَّا، كنتُ أتركُ قلبي **يوجد**. لكي تشعري بذلك، ينبغي أن تُجرِّبيه. يكفي أن تتمدَّدي وأن تُنصتي...».

أطعتُهُ. كان جسمي يبحثُ عن توازنه فوق سطح الماء، وذكَّرني ذلك بمسابقات الألواح الشراعية التي كنّا نقومُ بها أنا وابن خالتي إبّان المراهقة. كان الرابح من يظلُّ طافياً مدةً أطول. لم يكن الأمرُ هنا سهلاً مثلما هو الحال في المياه المالحة، فالماء لم يكن يحملني بسلاسة، غير أنني تمكنتُ، بعد بضع محاولات، من أن أحفظَ توازني وأستقرَّ فوق الماء. حاولتُ أن أنصتَ، لكنني لم أسمع شيئاً. ثم إنني لم أفهمُ جيِّداً ما الذي كان عليَّ أن أستشعرهُ. اعتدلتُ، مشكِّكةً، واعترفتُ لشانتي أن التجربة لم تكن ناجعةً.

«لا تحاولي أن تظلي على سطح الماء، اتركي جسمكِ يجد وضعَهُ فحسب».

حاولتُ من جديد. رفعتْ رئتايَ المنتفختان صدري وجذعي

إلى السطح، وانتظمت ساقايَ بلا جهد. صار جسدي ينغمسُ ويطفو وفق إيقاع تنفُّسي. حاولتُ أن أنصتَ، لكن لم يصلني شيء، لا شيء سوى أصواتٍ مصمتة. اعتدلتُ من جديد.

«أتمكَّنُ من أن أجد التوازن فوق الماء، لكنني لا أزالُ لا أسمعُ شيئاً.

– ليس هناك شيء لتسمعيه، بل يوجد ما تشعرين به داخل جسمك وخارجه في الآن عينه. تخيَّلي أنَّكِ مراقِبة تراقبين نفسَكِ. كأنَّكِ جالسة على حافة الحوض وأنتِ تنظرين إلى نفسكِ وأنتِ تقومين بالتجربة».

بدا لي شانتي غريباً، وتساءلتُ إن لم يكن مجنوناً بعض الشيء، لكن فضولي دفعني إلى مواصلة التجربة. استعدتُ، دون أن يفتر حماسي، وضعيَ الأفقيَّ بسهولة، وطفا جسمي الذي صار خفيفاً، وارتختْ عضلاتي. حاولتُ أن أحسَّ بجسدي، لكن كل شيء بدا ضبابياً. أغمضتُ عينيَّ لأتوغَّلَ بداخلي، وأنصتُّ لتنفُّسي: تمتلئ رئتايَ ثم تفرغان. انتبهتُ إلى أنهما تقومان بذلك منذ ولادتي، وتتبَّعتُ دورةَ الهواء داخل صدري، ثم داخل دمي عبر الحويصلات الهوائية في الرئتين. تصوّرتُ الأوكسجين تحملُهُ كرياتُ دمي الحمراء إلى غاية قلبي وتوزّعه بين دماغي وباقي جسدي، وشراييني المنقسمة إلى عدد من الأوعية، يُغذِّي خلاياي. وتصوَّرتُ مصل الدم وهو يحملُ ثاني أوكسيد الكربون إلى رئتيَّ ليتخلّص منه ويمتلئ بالأوكسجين من جديد. مرَّت خمسٌ وثلاثون سنة ومكوِّناتُ جسمي تشتغلُ وحدَها وتُنتِجُ معجزةً عند كلِّ تنفُّسٍ، بينا أنا أعالجُ الأوراقَ طول النهار، واثقةً من انتمائي إلى ذروة الذكاء...

وفجأةً، صمتَ دماغي، لم يعد يُدركُ شيئاً، وانفتحتْ فجوةٌ عند

مستوى حنجرتي، وشعرتُ كأنني أسكُنُ جسدي لأول مرة. وحدثَ عندئذ أمرٌ غريبٌ: لم أعد أميِّزُ الحدَّ الفاصلَ بين جسدي والماء. امتزجتُ بعصارة الجبال والتحمتُ بها. أحسستُ أنَّ ذاتي تتمَدَّدُ في جميع الاتجاهات. وكلَّما امتدَّت يميناً ثم شِمالاً، اخترقت المشهد من فوقي ومن تحتي، إلى أن بلغت مركز الأرض، ثم خرجت من الجهة الأخرى من الكرة الأرضية لتذوبَ في الكون. تولَّدَ لديَّ انطباعٌ أنني جزء لا يتجزَّأُ من كلِّ ما حولي. لم يسبق لي أن شعرتُ بهذه القدرة بداخلي، ولا أن تخيَّلتُ مدى قوتها. لم أعد أستطيع أن أعود من هذا الخلود. اختفت كلُّ الصور. راحت نبضاتُ قلبي تُدوِّي بلا نهاية، كأنَّ ما عداها لا وجود له.

أفزعني ما وقع لي، فاعتدلتُ فجأة. ابتسمَ لي شانتي. كان يعلمُ. حاولتُ أن أشرح له، لكن الكلمات لم تخرج. غاصَ بنظره في عينيَّ المضطربتين. «لن تستطيع أبداً أدمغتُنا وكلماتُنا أن تحكيَ ذلك، قلبُنا وحده يمكنه أن يعيشَهُ». واستعدتُ وعيي.

«ألمْ أكن أحلُم؟ تولَّدَ لديَّ إحساسٌ أنني انصهرتُ في الكون. يا له من أمر غريب. أيكون العلوُّ ما يجعلني أفقدُ صوابي؟

- كلاَّ، إنها الحقيقة، أنتِ الكلُّ. لقد بلغتِ النَّبعَ للتو، الحبَّ الذي تعيشين فيه.

- كُفَّ عن هذا، أنتَ تُخيفني. لا أفهمُ شيئاً ممّا تقوله لي.

- لأنَّكِ لا تزالين تحاولين عقلنة الأمور، غير أنَّ لا شيء مما أشرحه لكِ يمكن أن يكون عقلانيّاً. اشعري بالتناغمِ الذي كنتِ توجدين فيه. ألمْ تكوني بخير؟

- بلى! بل كنتُ أشعر بقوةٍ لا توصف!

- لقد ذقتِ للتو العظمة اللانهائية. إنه الوضع الأصليُّ الذي يمكنكِ أن تعيشيه في كلِّ لحظة إذا ما أسكَتِّ عقلَكِ.

- أنتَ تتحدَّثُ عن الرب، أليس كذلك؟

- سَمِّيه ما تشائين.

- أنا لا أومنُ بكلِّ تلك الأمور التي تستهوي الناسَ الذين ليست لديهم الشجاعة لمواجهة الحياة.

- لماذا أنتِ في حاجة إلى أن تؤمني أو لا تؤمني؟ عيشي! جَرِّبي! فأنتِ عندما تُسمِّينَ، تَحصرين وتُقيِّدين، بيد أنَّ ما أعبِّرُ عنه لكِ إنما هو قويٌّ، ولا محدود، وخالدٌ».

لا شيء في ما عشتُهُ قبل لحظات يشبه من قريب أو من بعيد ما شعرت به من قبل. كانت الراحة التي تغمرني تمنحني فرحاً لم أعهده.

لم يعد هناك أحدٌ من حولنا. كان تيم وغومار قد عادا أدراجهما صاعدين. وكان الجوُّ أكثر برودة. وما أن نشّفتُ جسدي وارتديتُ ملابسي من جديد، حتى صعدتُ بلا تعب العقبةَ التي كنت قلقة بشأنها، وصولاً إلى النُّزل. كنتُ مستغرقةً في التجربة التي كنت قد عشتُها للتو، فأحسستُ بالحياة تنبُضُ بداخلي وحواليَّ. كنتُ موجودةً فحسب!

غضبي العزيز

«تقتضي الحريةُ الحقيقيةُ التحرُّرَ من دكتاتورية الأنا وحاشيته من العواطف».

ماتيو ريكار

كان نيشال وتيم يغسلان ملابسهما، ونيك وآبي يتحدَّثان إلى رجل يحملُ حقيبة ظهر، يقف على ساقيه الطويلتين الرياضيتين الملوَّحتين بأشعة الشمس. تشي شُعيرات بيضاء في مفرقيه بأعوامه الأربعين.

خرج الطفلان يجريان من البيت وارتميا في حضنه. أطلقَ الرجلُ ما يحمله من متاع، وأخذَ طفلاً في كلِّ ذراعٍ وشرع يُديرهما في الهواء. كان الصغيران يضحكان عالياً، وأعادهما إلى الأرض لينحنيَ جامعاً يديه أمامَ مينكو، وحياها بـ«ناماستي»، ثم داعبَ رأس الطفلين المتعلِّقين بساقيه بحنان. حيَّانا نيكْ بإشارة، فاقترب شانتي من الجماعة وعرَّفَ بنفسه، واستقبله الرجل مثل هدية.

«أنا مسرور بالتعرف إليك. اسمي ماتيو». ثم التفت نحوي ومدَّ إليَّ يدهُ مصافحاً. كان حاجباهُ الكثَّان والمنتظمان يزيّنان نظرتَهُ البُنيَّةَ الواثقة، ويفصلُ أنفُهُ المعقوفُ بين خدَّيه ووجنتيه البارزتين.

وتتخذ شفتاهُ المرسومتان بدقة مكاناً متناغماً فوق ذقنه المستطيل، المقسوم بغمَّازة. كان محورَ اهتمام البيتِ كلَّهُ. وينبغي أن أعترف أنه كان لديه حضور نادر على الرغم من سرواله القصير المغبرّ وهيئة المسافر. وكانت لحيته الخفيفة تمنحه مظهراً رجوليّاً على الرغم من رقة ملامح وجهه المستطيل، مثله مثل قامته. أصابتني عيناهُ بالشلل، وخدَّرت نعومة راحة يده راحةَ يدي. لم أشعر بمثل هذا الانفعال العاطفي منذ زمن طويل... همس بشفتيه دون أن يُزيح نظرَهُ عن عينيَّ: «لم أسمع اسمكِ».

وعلى الرغم من إنجليزيته السلسة، فإن لكنته القوية كشفت عن أصوله. عرفتُ منها إيطاليا التي كانت قد فطرت قلبي سنوات قبل ذلك. ودفعني تذكُّرُ حكاية الحبِّ الأليمة تلك إلى النزول إلى الأرض سريعاً من جديد. سحبتُ يدي بحركة سريعة. «لا يهمُّ!».

تعلَّقَ أكبرُ الولدين باليد التي حرَّرتُها وتعلَّقَ شقيقُهُ الأصغر باليد الأخرى، وجذباهُ داخل المبنى إلى غرفته التي كانت تجاورُ غرفتي. وانسحبتُ تحت النظرات المندهشة.

لحقت بي آبي وهي تقترحُ على شانتي ونيك أن يلتحقا بنا. «الساعة الآن السادسة والربع مساء والشمسُ تحمرُّ، ينبغي لنا أن نبدأ». كنتُ قد نسيتُ موعدَنا الروحي. لم أكن في مزاج يسمح بتحمُّل كلَّ تلك المشاهد التمثيلية، لكنَّ شانتي لم يترك لي مجالاً للاختيار. جلستُ القرفصاء وأكملتُ الدائرةَ التي شكلّوها ثلاثتُهم. شرحَ لي مرشدي قائلاً: «الأمرُ بسيطٌ، ليس لكِ ما تفعلينه غير أن تكوني هنا».

وسرعان ما ضايقني الصمتُ. راقبتُهم: كانت عيونهم تُحدِّقُ في الأرض على مسافة متر أمامهم، ولم يكونوا يتحركون قيد أنملة،

مركِّزين على شيء ما. تحرَّكتُ في جلستي، كان الوضعُ غير مريح. بدا لي أنني أضيِّعُ وقتي، فقرَّرتُ بعد بضع دقائق أن أغادر المجموعة. لم يعبأ أحدٌ منهم بانصرافي: واصلوا من دوني، ودون أن يطرف لهم جفنٌ.

بقيتُ في غرفتي مدة ساعة ثم نزلتُ إلى القاعة المشتركة لأتدفَّأ قربَ الموقد، في انتظار وجبة العشاء. كان شانتي منهمكاً في الحديث مع ماتيو. دعاني بحركة من يده، غير أنني فضلتُ تجاهله. تبادلتُ بضع كلمات مع آبي، التي تركت الكتاب الذي كانت تقرأه، لتشرح لي رحلتَها بحماس، فأنصتُّ إليها من دون اقتناع.

دعتنا مينكو أن ننتقل إلى المائدة، ووضعت أمامنا حوالي عشرة أطباق مختلفة. احتفظ لي شانتي بمكان إلى جانب صديقه الجديد، فضايقني ذلك. انطويتُ على نفسي طوال مدة العشاء. طرح عليَّ ماتيو بضعة أسئلة، فأجبتُ عليها بجُملٍ قصيرة لا تُشجِّعُ على الإفاضة في الحديث، وأسرعتُ في الأكل.

انتابني صُداعٌ، فألقيتُ التحيّةَ على الجميع، وانسحبتُ متذرِّعةً بالتعب. خرجت لأستنشق هواء نظيفاً. ومثل باحث عن الذهب يجول بمسباره الكاشف، ظللتُ أتنقَّلُ ذات الشمال وذات اليمين أمدُّ هاتفي في اتجاه أفقيٍّ، علَّني ألتقطُ موجةً مغامرةً قد تكون أفلتَتْ من هوائيٍّ. استحوذت السماءُ على نظري: كانت ملايينُ النجوم تنيرُ الجبالَ، وفي المركز، أعلنَ الهلالُ الأولُ عن ولادة دورة جديدة.

خرج ماتيو من المبنى، توجَّهَ نحوي، وقدَّمَ لي كأس شاي. رفضتُهُ، مستاءةً. «سأتركه لكِ هنا، قال وهو يضعُ الشايَ عند قدميَّ. الجوُّ باردٌ هذا المساء، قد تُغيِّرين رأيَكِ. أرجو لكِ ليلةً سعيدة».

رجع إلى غرفته دون أن يضيف كلمة. كان شانتي يتابعُ المشهدَ من عتبة الباب، فاقتربَ مني.

«لماذا هذا السلوك؟

- أشعر بصداع في رأسي! ثم... كنتُ أرغبُ في أن أستمتع ببعض الهدوء!

- إن كنت ترغبين في أن تظلي هادئة، فأنت تبدين غاضبةً!

- يوترني الإيطاليون، إنهم سطحيون. ليسوا أناساً موضعَ ثقة. أنا أعرفهم جيّداً، فقد عملتُ في ميلانو ثلاث سنوات. الكذبُ جزء من ثقافتهم، ولا كلمة لهم! كلُّ ما يسعون إليه هو إغواء الآخرين. لا تعجبني عقليتُهم، ولا أرغبُ في أن أضيّع وقتي مع هذا الشخص. فقد بذلتُ ما فيه الكفاية».

أنصتَ إليَّ شانتي صامتاً وأنا أفرغُ غضبي. كان يتأمل الجبال وهي تنصهر في السماء. وضعَ يدَهُ على كتفي دون أن يُزيح نظرَهُ عن الظلام، وحكى لي: «**أنهتِ امرأةٌ بيضاء البشرة تسوُّقَها، فاشترتْ من منضدة المحل زبدية حساء، وذهبت لتتخذ مكانَها حول طاولة وضعتْ عليها طبقَها، غير أنها انتبهتْ أنها نسيتْ أن تأخذ ملعقةً، فانطلقت في اتجاه المنضدة من جديد.**

وعندما عادتْ إلى مكانها، وجدتْ رجلاً أسودَ البشرة منكبّاً على الزبدية، يغمسُ ملعقتَهُ في الحساء. 'يا لها من وقاحة! لكن لا يبدو عليه أنه شخص قبيح... لا داعي أن أعامله بخشونة!'.

'هل تسمح؟'، قالت له وهي تسحبُ الحساءَ إلى جهتها. لم يُجبها مُحاورُها سوى بابتسامة عريضة. شرعتْ تأكلُ، فسحبَ الرجلُ الزبدية نحوه ووضعها في وسط الطاولة، وغمسَ بدوره ملعقتَهُ وشربَ من الحساء، لكن كان في حركته وفي نظرته الكثير

من الرقة والودّ لدرجة أنها سمحتْ له بأن يواصل، في استسلام، وشرعا يأكلان بالتناوب. شعرت بالارتباك، وحلَّت الدهشةُ محلَّ الغضب، بل أحسَّتْ أنها متواطئة.

وبعد نفاد الحساء، أشار إليها الرجلُ ألَّا تتحرَّكَ وعادَ حاملاً حصّةً وافرةً من البطاطس المقلية ووضعها وسطَ الطاولة، ودعاها إلى أن تشاركه فيها. قبلتْ، فتقاسما الطبق، ثم نهضَ ليودِّعَها بتحيَّة كبيرة من رأسه ونطقَ أولى كلماته: 'شكراً!'. ظلتْ تفكِّرُ برهةً، وعزمتْ على الانصراف. بحثتْ عن حقيبة يدها التي كانت قد علَّقتْها على ظهر الكرسيِّ، لكن لم تكن الحقيبة موجودة! 'يا لي من بلهاء! لم يكن ذلك الرجل الأسود، بالطبع، سوى لصٍّ لعين!'.

وكانت على وشك أن تطلب من الحاضرين أن يتعقَّبوهُ، وإذا بنظرها يقع على زبدية حساء، غير ملموسة وباردة، موضوعةٍ فوق طاولة مجاورة، أمامَ الكرسيِّ حيث تتدلّى حقيبتُها. تنقُصُ الطبقَ ملعقةٌ...».

صمتَ شانتي، ونظرُهُ إلى البعيد.

«إنها قصة جميلة، غير أني لا أرى العلاقة...

- أتعتقدين أنَّ جميع الرجال السُّود فقراء ولصوص؟ وأنَّ جميع الإيطاليين سطحيّون وغَزِلون؟ وأنَّ جميع الفرنسيين متماثلون؟

- كلَّا، لا أعتقد ذلك طبعاً!

- فلماذا تنفعلين وتتصرفين بهذا الشكل مع ماتيو؟

- إنه يُذكِّرني بذكريات قبيحة.

- إن كنتِ تريدين أن تعيشي في انسجام مع أولويّاتك، ينبغي

لكِ أن تُغيِّري حالتكِ الذهنية، وأن تستقبلي معارفَكِ الجديدة مجرَّدَةً من ثقل الماضي، ومن استشراف المستقبل. انظري إلى ماتيو كأنكِ تنظرين إلى إنسان لأول مرة. انسي ما تعرفينه عن الرجال وعن الإيطاليين. أنصتي إلى قلبكِ، دعيه يقُدْكِ. لا تسمحي لأناكِ أن يخدعكِ، كما سبق لي أن قلتُ لكِ. كلُّ شخص يصلُ إلى قلبك يعتبره أناكِ عدوّاً. هل تُحسِّين بمشاعر خاصة تجاه ماتيو؟

- لا. بتاتاً! أخبرتُكَ قبل قليل أنني أتهرَّبُ من هذا النوع من الرجال.

- لكن لماذا ترفضين حديثاً، أو لحظاتٍ ممتعةً، أو معلومةً قد تنفعكِ؟ لم يطلبكِ للزواج، إنما قدَّمَ لكِ مشروباً فحسب. مايبل، ليس هذا هو الشخص الذي كان زميلكِ في العمل وخانَكِ. وليس واحداً من أولئكَ الأشخاص الذين قاسمتهم حياتَكِ، وأساؤوا إليكِ. إنه مختلفٌ وفريدٌ.

- هل تعرفُهُ لتتحدَّثَ عنه بهذه الطريقة؟

- امنحي نفسَكِ فرصةً لاكتشافه. ليس باعتباره إيطاليّاً، وإنما باعتباره شخصاً جعلَ قلبَكِ ينبُضُ بقوة. ومن ثَمَّ ستعرفين إن كان يستحق أن تضيِّعي وقتَكِ معه أم لا. طابت ليلتُكِ، يا مايبل. إلى الغد».

انصرفَ لينام، وبقيتُ لوحدي بضع دقائق تحت النجوم. استبدَّ بي البردُ فتوجَّهتُ إلى غرفتي، ومررتُ أمامَ الغرفة مصدر حيرتي. كان الضوءُ يخترقُ ستائرها، ما يعني أنَّ ماتيو لم يكن نائماً. كان شانتي محقّاً: هذا الرجل يجعلُ قلبي ينبضُ بقوة ولم يقترف أيَّ سوء، بل إنه عاملني بكثير من اللطف، وكنتُ ظالمةً في معاملتي له.

توقفتُ عند عتبة بابه، راغبة في أن أقدِّمَ له اعتذاري. كلا! كان

الموقفُ سخيفاً. لم أكن لأُذِلَّ نفسي بأن أفعل ذلك! وأسرعتُ إلى غرفتي، سعيدةً لكوني لم ألتق أيَّ شاهد.

*

«الفطور جاهزٌ يا مايل، الانطلاقُ سيكون بعد نصف ساعة!».

فتحتُ عيناً واحدةً، وأحسستُ بعضلاتي تؤلمني. أخرجتُ ذراعي من الغطاء لأنظر إلى ساعتي. السابعة والنصف! لم تنتظرني الشمسُ كي تُشرق. أخذت نفساً عميقاً وتحرَّرتُ من الفراش لأواجه درجات الحرارة السلبية. ارتديتُ طبقات من الثياب بعضها فوق بعض، ثم خرجتُ. كان باب الغرفة المجاورة مشرعاً، فتسلَّلتُ بنظري داخلها، لكن لم يكن فيها أحد. ولا وجود لأمتعة كذلك. هرعت إلى القاعة المشتركة، لكنني لم أرَهُ. عدوتُ إلى الحديقة، لكن لا أحد.

التقيتُ شانتي.

- نمتِ جيداً؟

- أين هو؟

- من؟

- ماتيو!

- لقد رحلَ عند شروق الشمس، منذ عشرين دقيقة تقريباً.

- لماذا لم توقظني قبل ذلك؟

- لماذا كان عليَّ أن أفعل ذلك؟

شعرتُ بخيبتي تغمرني والغضب يستبدُّ بي.

«لأن... لا عليكَ، لن تفهم شيئاً!».

جلستُ إلى طاولة لوحدي. قدمتْ لي مينكو فطوراً وافراً، إلا أنني لم أكن جائعةً. كان قلبي منقبضاً ومعدتي لا تطيق الطعام. أخذ شانتي فنجان قهوة وجلس بجانبي.

«أنتِ غاضبة مني لأنكِ تبحثين عن مُذنب. لا يستطيعُ أناكِ أن يقبل سببَ سوء حالك.

- أووه... دعني من دروسكَ في الأخلاق! ثم... إنني لستُ غاضبةً. دَعْ أنايَ حيث هو وركِّز اهتمامَكَ على الطريق الذي ينبغي أن نسلكها.

- أنتِ محقَّةٌ، كبرياؤكِ هو الذي يتحدَّثُ، وهو لا يهمُّني. أرفضُ أن أضيِّع وقتي معه. سننطلقُ بعد عشر دقائق، أنتظُركِ في الخارج».

نهضَ وخرج ليساعد الحمّالَين في إتمام ربط الأمتعة. شعرتُ بالغضب يتزايد بداخلي. نهضتُ وصحتُ: «هكذا إذاً، اهربْ! أنتَ جبان مثل كلّ الرجال! ما أن يحين وقتُ تحمُّل المسؤولية حتى يختفي الجميع». أطلَّ شانتي برأسه من الباب من جديد واختتم قائلاً على سبيل المزاح: «أوه... لقد أخطأتُ، يبدو أنَّ الغضب لا يزالُ حاضراً معنا!». شاهدَ نيك وآبي، اللذان كانا قد دخلا القاعة لتوِّهما، المشهدَ بذهول.

كنتُ لا أزالُ أستشيط غضباً كازّة أسناني، وإذا بياني يُسلِّمني رسماً يمثِّلُ زوجين يربطُ بينهما قلبٌ كبيرٌ. انهرتُ على المقعد وضممتُهُ بين ذراعيَّ. استقرَّ فوق ركبتيَّ، وقال لي بضع كلمات بالنيبالية، وأمسكَ بيدي. وأخذَ أصابعي واحداً تلو الآخر وأعادَ، بطريقته الخاصة، رواية الحكاية التي حكيتُها له أمس، ثم نظر إليَّ

بنقاء روحٍ لا يملكُه إلا الأطفال. تلاشتْ حينئذٍ عدوانيّتي، وشرعتْ دموعي في الانهمار. قبَّلتُهُ بقوَّة، وقبَّلتُ شقيقَهُ الذي كان ينفثُ إلى جانبي بصمت.

ودَّعتُ نيك وآبي ورجوتُهما أن يغفرا لي سوءَ تصرُّفي، وتمنَّيا لي رحلة ممتعةً. رافقتني مينكو إلى غاية الباب الخارجي مع الطفلين وضمّتني بين ذراعيها وهي تهمسُ لي بكلماتٍ لم أفهمها، إلَّا أنها استقرت في قلبي.

نظرتُ إلى عينيها بإمعان وشكرتُها. أولئك الناس الذين لم يكن لديهم إلا القليل في الظاهر، كانوا يملكون في الواقع كلَّ ما هو جوهريٌّ. فعلى الرغم من أنهم لم يكونوا يعرفون أيَّ شيء عنِّي، فقد منحوني كلَّ شيء: حضورهم، وصمتهم، وصبرهم، وكرمهم، وتفهُّمهم، ونظرهم، ولُطفهم، وصفحهم، وحبّهم. كنتُ أرحلُ بعد أن خلَّفتُ لديهم أسوأ صورة عنّي. كان بودِّي أن أفسِّرَ لهم موقفي، لكنني لم أجد الكلمات المناسبة. كنتُ خجلى.

كان شانتي أوَّل من انطلق، فتبعتُهُ، مُطرقةً، ثم سار خلفي غومار. التفتُّ مودِّعةً الطفلين ومينكو. حيّاني ياني وشقيقُهُ بإشارات كبيرة ثم استأنفا لعبهما. رافقتنا والدتُهما بنظرتها مدة طويلة، وشعرتُ بعطفها في ظهري، فوجهتُ إليها تحيَّةً أخيرةً بإشارة من يدي.

افتتحنا النهارَ بصعود عقبة كؤود. كان برد الصباح وشدّة الجهد المبذول يُقصيان كلَّ نقاش أو حديث، وكانت رجلايَ المتعبتان تزداد سخونتهما مثل كل صباح. كنتُ أُوالي الخطوات على آثار خطى شانتي. تقلَّصَت أنفاسي، فأنا لم أكن في كامل لياقتي، كما أن الأجواء ظلّت ثقيلة. لم يوجِّه شانتي إليَّ الكلام منذ انطلاقنا. لا بد

أنني تجاوزتُ الحدود إبان الفطور. لكن، ألم يكن حسّاساً بعض الشيء؟ فلم يكن في الأمر ما يُغضِبُ حقاً!

تسارعتْ أفكاري: لم أستطع الاتصال برومان ولم يكن أحدٌ، على ما يبدو، يعرفُ شيئاً عن أيِّ طريقة معجزة. كنتُ ما زلت لا أستطيعُ قراءة رسائلي الإلكترونية، فلم يكن يصلني أيُّ خبر عن الجزء الأساسي من حياتي. وفجأةً بدأتُ أرتابُ في اختياراتي. لماذا قبلتُ أن آتي إلى هنا؟ أيُّ حماقة ألقتْ بي إلى هذا المكان؟ ألم يحن الوقت لأن أعود من حيث أتيتُ؟ التفتُّ نحو شانتي، أبحثُ عن دعمه، فتجاهلني ونظرُهُ هائمٌ في الجبال.

استمرَّ صعودُنا إلى غاية قرية تشومرونغ. أخبرني تيم أننا تجاوزنا حدَّ الألفيْ متر. استأنفتُ السير بصمت وعينَيَّ على البلدة في البعيد. تكاثرت الأسئلة في ذهني إلّا أنها بقيت بلا أجوبة. كنتُ أختنقُ ومرشدي مُصِرٌّ على تجاهلي! لم أُسئ في كلامي. إنه هو الذي يتهرَّبُ من كلِّ نقاش. نبَّهَ شانتي الحمَّاليْن بصفيره وأشار إليهما أن يتوقَّفا. أخرج قليلاً من الفواكه المجففة، أخذ منها قبضةً، وقدَّم إليَّ الكيسَ. جلس فوق صخرة مسطَّحة، على بعد أمتار منّا، مقابِلاً الجبل. بدا من الواضح أنه غاضبٌ. حاولتُ أن أتذكَّر ما قد يكون أزعجهُ، بيد أنَّ الصورة التي طفَتْ في ذاكرتي هي صورة وجهه الساخر وهو يصفني بالمتكبِّرة. اقتربتُ منه وأنا أمضغُ بانفعال خليطَ المكسرات، واتخذتُ لي مكاناً فوق الصخرة ذاتها.

«هل أنتَ غاضب؟ لم تقل شيئاً منذ أن انطلقنا.

- لا وقت لديَّ أضيِّعُهُ مع انفعالات لا تلائمني. يتطلَّبُ مني إجراءُ نقاشٍ مع شخصٍ واقعٍ رهينة لكبريائه، الكثيرَ من الجهد. ستحاول أن تثبت أنها على حق، مهما كان الموقف، خصوصاً حين

تكون غير مصيبة. اعذريني، لكنني أفضِّلُ أن تتوجَّهي بالكلام إلى شخص آخر.

- طيب، ها أنتَ ترى أنني أضعُ كبريائي جانباً، بما أنني أُكلِّمُكَ.

- برهني لي على ذلك! اعتذري على سبيل المثال».

تنهَّدتُ، مستاءةً.

«أنا آسفةٌ، هل أنتَ سعيدٌ الآن؟

- كلا، لن أتحدَّثُ إليكِ! إنه لا يزالُ هنا!

- توقف عن التصرُّف مثل الأطفال يا شانتي!

- ليس لديَّ طاقة أضيِّعُها. نقطة نهاية! أنصتي إلى منولوجِ أناكِ ودعيني أُركِّز على طريقي.

- أوه، لا تكن شديد الحساسية إلى هذا الحدّ».

عبس، فاستنتجتُ وأنا أنهضُ: «كما تشاء! يمكنكَ أن تعود إليَّ عندما تكون في مزاج أفضل. أنا أيضاً ليست لدي طاقة أضيِّعُها».

ابتعدتُ عنه، فاقتربَ مني.

«أتريـنَ، إنه هنا، لولاه لاعتذرتِ بصدقٍ، ولأثَّرتْ فيك الكلماتُ التي تفوَّهتِ بها هذا الصباح.

- ماذا تريد؟! أن أقبِّلكَ؟! أنا آسفة، قلتُ لكَ ذلك للتو. إن كنتَ تُفضِّلُ أن تبقى معتزلاً في ركنكَ فهذا شأنكَ، عُدْ عندما تفرغُ من مجافاتكَ.

- أنا أفضِّلُ الصمتَ على أن أراكِ حبيسةَ انفعالاتِكِ. أناكِ في قمة الابتهاج. إنه يتغذّى على ما تمنحينه من اهتمام. لم تعد لديك القدرة على أن تفتحي عينيكِ على الوضع. إنه يستحوذ على المكان كلِّه. فتحتِ له البابَ فاندفعَ إلى الداخل وأغلقَهُ بالمزلاج. يُخَدِّرُكِ

كلما حاولتِ الفرار، بحيث يتركُ لكِ ما يكفي من الهواء لتُغذّيه. انظري إلى تنفُّسِكِ: إنه قصيرٌ وسريع، وصدرُكِ مؤلمٌ. وقريباً، سيدعو غضبَكِ إلى مراقصته، إن لم يكن قد فعل ذلك فعلاً، وسيجدان معاً مُذنِباً لتبرير وجودهما. فأفضلُ طريقة لمساعدتكِ هي أن أصمت. سأنتظر أن يَتعبَ أو أن تستيقظي. فما دمتِ تُغذّينه، إنه يتقوّى. يصيرُ عصيّاً على المقاومة. وفي المقابل، إنه يموتُ ما أن يحصل لديك وعيٌ به. إنه هَشٌّ مثل الظلام أمام الضوء. إذا ما زالت لديك بعضُ القدرة على التمييز، فأرجو أن تستعيدي المشهدَ في ذهنكِ مستغنيةً عن 'فلتر' الأنا ذاك».

انطلق شانتي على رأس المجموعة، فتبعَهُ غومار، وفعلتُ الأمر نفسه، بينما كان نيشان وتيم يسيران في المؤخّرة. كانت الشمسُ تُدفئُ الهواء الذي صار لطيفاً. سرتُ صامتةً، أفكّرُ. صحيح أنني أتنفَّسُ بصعوبة منذ الأمس، وقد توتَّرتْ أعصابي، وكان ألمٌ في المعدة يمنعني من أن أبلع أيَّ شيء، لكن كان عليَّ أن أواجه الحقيقةَ: لِمَ كان على ماتيو أن ينتظرني بعد سلوكي الفظ معه؟ أما عن مرشدي، فأنا لم أطلب منه شيئاً. فلماذا كنت غاضبة منه لكونه لم يمسك به؟

لحقتُ بشانتي وأمسكتُ بذراعه: «أنا آسفة. لم يكن ينبغي لي أن أكلِّمَكَ مثلما فعلتُ». قَبِلَ اعتذاري، مُعلناً عنه بغمزة من عينه، فانحلَّتْ عقدةُ معدتي على صدى اعتذاري، وانشرح صدري وتمدَّدَ تنفُّسي. «يبدو أنَّ الحفل قد انتهى!» قال لي مع شيء من التواطؤ. رسمتُ على وجهي عبوساً خجولاً. «أجل. لم يتبقَّ من الحفل سوى الكؤوس المهشَّمة، والقنّينات الفارغة، والثقوب في البساط، ورائحة رهيبة. الانفعال الزائد الذي يُخلِّفُ مذاقاً مُرّاً لعدَّة ساعات».

تحدَّثَ إليَّ شانتي بتعاطف.

«لا بد أنه كان حفلاً صاخباً! هل يمكنني أن أساعدَكِ في إعادة قليل من النظام؟

- بكلِّ سرور. فالورشةُ في حالة من الفوضى بحيث إنني لا أعرفُ من أين أبدأ.

- ابدئي بالنظر إلى ما يحيطُ بك. أمامكِ الأنابورنا الجنوبية، والهيونتشولي، وإلى يميننا يوجد الماتشابوتشير. استمتعي وتنفَّسي!».

أخذ نفساً عميقاً وأغمضَ عينيه. ففعلتُ مثله. «مجدداً، ألحَّ وهو يرفع صوتَهُ. اشعري بطاقاتها عميقاً، ثم ازفري ألَمَكِ، قال وهو يُفرغُ رئتيه. استنشقي عظمتهما وازفري خيبتَكِ، استنشقي صفاءهما وازفري غضبكِ. استنشقي وازفري مجدداً...».

حاكيتُ إيقاع تنفُّسه الذي كان يزداد عمقاً أكثر فأكثر. أحسستُ بالعذوبة المنعشة تلجُ منخرَيَّ، وحنجرتي، وشُعبي الهوائية، وأوردتي، كأنَّ قوَّةَ الجبال تُحوِّلُ توتُّري إلى قوة مسكِّنة.

«تنفَّسي إلى أن تشعري بأن الهواء الذي يدخل لا يقلُّ نقاءً عن الهواء الذي يخرجُ، وأن لا شيء عدا الكمالَ يحتاج أن يخرج». فاستنشقتُ إلى أن لم أعد أميّز بين الشهيق والزفير. «دعي الأوكسجينَ يدخل عبر مسام بشرتك وحرِّريه من خلال جميع أجزاء جسمك. استنشقي مجموعَ الجبال، والأشجار، والسماء، والكون، و... ازفري».

تصوّرتُ تلك القوةَ التي اخترقتني حدَّ تخديري، وشعرتُ كأني جزءٌ لا يتجزء من كلِّ ما يحيطُ بي، مثل الأمس. فتحتُ عينيَّ

ووعيتُ بالهدوء السائد. كان شانتي ينظر إلى الأفق، ونيشال يجلسُ أعلى منه يدخّن سيجارة، وغومار وتيم ممدَّدين تحت الشمس.

«كيف تشعرين الآن؟

- فارغة! في حال توقُّف. لستُ أدري كيف أشرحُ لكَ الأمر.

- ليس هناك من شيء لتقوليه، بل لتُحِسِّيه فحسب. كما في العيون الساخنة، أنتِ عشتِ للتو اللحظةَ الراهنة، اللحظة التي تُسكِّتي فيها دماغكِ. لا ماضي ولا مستقبل، تمنعين أفكارَكِ من أن تَحبِسَكِ، وتسمحين للأمور أن تكون!

- لا يمكنني أن أقضي وقتي أتنفَّسُ بهذه الطريقة.

- أنتِ تتنفَّسين منذ مجيئكِ إلى هذا العالم، وتركيزُكِ لفترة سيسمحُ لكِ أن تفكّي الكمّاشةَ التي تضغطُكِ. أنتِ توسِّعينَ حقلَ وعيكِ، وتُحرِّرين الفضاءَ لتستقبلي شيئاً آخر غير مشكلتك. إنه تمرينٌ جيّدٌ لتهدئة اضطرابك الدماغيِّ... طيّب، الآن وقد استيقظنا، أُذكِّرُكِ أننا ينبغي لنا أن نعيد بعضَ النظام في الورشة التي خلَّفْتِها».

وإذ استأنفنا الطريقَ، يتبعنا باقي المجموعة، شرح لي شانتي:

«كما شرحتُ لكِ يومَ لقائنا، لا يوجد سوى شعورين جذريين: الحُب والخوف. ولا يمكنكِ أن تحضري في الاثنين في الآن نفسه. لا تُعاش حالةُ الحب إلّا في الوعي. وفي هذا الوضع، المتحَكِّمُ هو القلب الذي يُملي كلَّ حركة من حركاتكِ، ولا يعود الأنا قادراً على التعبير عن نفسه. وفي المقابل، في كل مرة تسمحين لذهنكِ أن يستعيد السلطة، فإنه يغمسكِ في الماضي أو في المستقبل. إنكِ تدخلين في منطقة الخوف، ومملكة الأنا. إنه يخترع حِيَلاً كي يمنعكِ من الفعل، لأنَّ التغيير يُرعِبُهُ. كلُّ ما لا يَتَحكَّمُ فيه يُفزِعُهُ. وهذا ما حدثَ لكِ مساء أمس.

- مهلاً! لستُ متأكِّدةً من أني فهمتك. فأنا لم يكن لديَّ إحساس أني غصتُ في الماضي من جديد ولا أني كنتُ خائفة.

- الدِّماغُ شديد الدهاء، فهو يُنوِّمُكِ دون أن تنتبهي إلى الأمر. لنعود بضع ساعاتٍ إلى الوراء وأخبريني بم كنتِ تشعرين في عيون الماء الساخنة.

- كان الأمر رائعاً، شعرتُ بقوَّة مثيرة بداخلي.

- كنتِ تُنصتين إلى جسدك، وإلى روحك، وقلبك، فصمتَ ذهنُكِ وأفكارُهُ السلبية. هل تتذكرين ما حدث بعد ذلك؟

- أجل! لقد عدنا إلى النُّزل، والعقبة التي كنتُ أهابُها تطلَّبَتْ مني جهوداً أقل مما توقّعته عند النزول.

- عندها أيضاً، كنتِ في الحاضر، وسط نبض ما اكتشفتِهِ. كنتِ مليئة بالطاقة. ثم انقلبَ كلُّ شيء. استرجع الذهنُ حقوقَهُ، وجَرَّكِ إلى شكوكه.

- أجل، في اللحظة التي عدنا فيها.

- وأكثر تحديداً؟

- لم أعد أذكرُ. الأمر مشوَّش».

حاولتُ أن أعيش مشهدَ العودة من جديد، لكن لم تصلني أيُّ صورة. الثقبُ الأسود. «لستُ أدري... تجربة التأمُّل رفقة نيك وآبي ضايقتني، على ما أظنُّ». توقَّفَ شانتي فجأةً.

«لاحظي قوةَ ذهنكِ ولعبَهُ، فأنتِ تُدارينَ ما يمكنه أن يخدمكِ. الأنا مرعوب من فكرة أن تسكتيه. اسمحي لي أن أُذكِّرَكِ: لقد تغيّر مزاجكِ عندما التقيتِ بماتيو. ربما خفتِ أن تقعي في حبه. احتفظَ ذهنُكِ بالسيطرة، وجعلكِ تنغمسين في جروح الماضي من جديد، ليضمنَ بذلك ألَّا يكون أمامكِ أيُّ طريق يمكن أن يجد سبيلَهُ إلى

قلبكِ. فصعدتْ إلى ذاكرتكِ انفصالاتُكِ العاطفية الأخيرة وتجربتُكِ المهنية في إيطاليا، المدموغة بالخيانة. لكن ليس هذا سوى حيلة. لقد رفضتِ كلَّ ما كان يُهديكِ إياهُ ماتيو: ابتسامة، حديث، شاي. بعثَ قلبُكِ إشاراتٍ رقيقةً، إذ راح ينبضُ بقوة في اللحظة التي التقت نظرتُهُ بنظرتِكِ، لكنك فضَّلتِ تجاهله!

- كلَّا... بل أجل، لكنني كنتُ أشعر بصداع. ثم إني لم أعد أعرف، يا شانتي...

- الآلام ليست إلّا نتيجة لصراعكِ الداخليِّ!».

لم يكن مرشدي يتركُ لي منفذاً. كان يرميني بالحقائق، وعيناهُ مثبَّتتان في عيني لمنعي من الهروب. «ظلَّ ماتيو وفيّاً لذاته: منفتِحاً وودوداً. أما أنتِ، فاستمررتِ في عنادكِ». أطرقتُ برأسي. أخذَ رفيقي بذقني ورفعهُ. «لم أنهِ كلامي وستُنصتين إليَّ إلى النهاية!». استسلمتُ، مرهقَةً. «عند استيقاظكِ، شعرتِ بالندَّم. كان قلبُكِ يبكي لغيابه. وأصبح الهجومُ إلزامياً بالنسبة إلى الأنا. إنّ أسلحتَهُ لا تقاوَمُ: الغضبُ والكبرياء، وهو يبحث عن المذنب في مكان آخر. كيف له أن يعترف أنه على خطأ؟ أبداً! يُقدِّمُ لكِ الحلَّ: المُذنب هو من كان سبباً في ألمك، إنه ماتيو. لقد غادر الإيطاليُّ الوسيمُ دون أن يودِّعَكِ! وها أنتِ غاضبةٌ منه. لكن هذا لا يكفي. سيكون الأمرُ أفضل لو وُجد مُذنِبٌ ثانٍ. فاتَّهمتِني بأني تركتُهُ يرحل دون أن أوقظَكِ، إلا أن الحقيقة مختلفةٌ تماماً. فلا وجود إلا لمُذنب واحد ولا يُفيد في شيء البحثُ عنه في الخارج: المذنبُ هو أناكِ. وأنتِ شريكةٌ في أفعاله لأنَّكِ تسمحين له بأن يسيّر حياتَكِ».

لم أعرف ما يمكن أن أقول، فكلُّ ما أفشاهُ صحيحٌ. «ستجدين مشكلةً حقيقيّةً بين أهدافكِ وذهنكِ. لقد سمحتِ لقلبكِ أن يُعبِّرَ عن

أولويّاته، وكلُّ ما سيحدُثُ سيسير في هذا الاتجاه: اللقاءات، والتجاربُ... فإن قاومتِ، ستعيشين أسوأ الكوابيس. وإن أنتِ قبلتِ واحتفظتِ بثقتكِ في الحياة، فإنكِ ستلفين أحلامَكِ تتحقَّقُ الواحد تلو الآخر». فركتُ عينيَّ.

«آه! لديَّ خبر سيِّئ آخر! إذا كلما أُتيحت لكِ فرصةٌ سمحتِ لأناكِ أن يهدرها، فستقدّم لك الحياة ظروفاً أكثر إيلاماً لإرضاء إرادتكِ. لديكِ حلَّان: إما أن تُسكتي قلبَكِ وتُغيِّري أهدافك، وإما أن تفرضي الصمتَ على ذهنكِ وأن تعيشي ما تتمنَّيْنَهُ. ما هو قرارُكِ؟

- لم أعد أدري! كنْ رفيقاً بي، فأنا تائهة! وأنتَ لا ترأفُ بي!

- أنا لستُ هنا لأرأفَ بكِ، بل لأساعدكِ. فماذا تختارين؟».

تنهَّدتُ.

«أريدُ أن أبقي على أولويّاتي، لكن كيف لي أن أُطفِئَ ذهني؟

- بالعيش في الحاضر، فهذه هي الوسيلة الوحيدة لتهدئته. ابدئي بملاحظة الأفكار والانفعالات التي تأتي، كما كان الحال في تجربة العيون الساخنة.

- لكن وأنا في تلك الحالة، لا أستطيع أن أقوم بأيِّ شيء بنّاء، فلا يمكنني أن أقضي وقتي في التسامي، في انتظار كلام قلبي.

- لا يتعلق الأمرُ بالعيش في حالة توقُّف، ولكن في حالة إنصات. فعندما تكونين واعيةً بأفكاركِ، وأفعالِكِ، وكلماتِكِ، تأخذ حياتك توجُّهاً مغايراً، في انسجام مع ما تريدين أن تكوني. تتوقَّفُ قيادتُكِ الآلية، وتستعيدين الزِّمامَ وتكفِّينَ عن تكرار الأخطاء نفسها».

كنتُ أفهمُ ما يقوله شانتي، لكنني لم أكن أستجلي أيَّ حَلٍّ. بدا الحلُّ واضحاً بالنسبة إليه، لكنني لم أكن أستوعبُ ما يشرحه لي. أن ألاحظَ أفكاري بدا لي أمراً عسيراً، فأنا لم أكن أتحكَّمُ فيها. غير أنَّ

مُرشدي طمأنني: «لن تستطيعي التحكُّمَ فيها في غضون بضع ساعات، لكنكِ كلما تدرَّبتِ على ترصُّدِها، ازداد ترسُّخ هذه العادة في حياتكِ اليومية. ثوانٍ كلَّ يوم، ثم دقائق، وفي الأخير لن تستطيعي العيشَ إلا في الوعي، لأنَّكِ ستكتشفين معنى السعادة. أليست السعادةُ هي الهدف الذي حدَّدتِه لنفسكِ بواسطة أحد تلك الأحجار الكبيرة التي وضعتها في الإناء؟».

محا الأملُ قلقي، واستعدتُ الثقةَ، على الرغم من حزن عميق.

«ربَّما ضيَّعتُ لقاءً جميلاً، أليس كذلك؟

- هل عاد ذهنُكِ بهذه السرعة ليخلق هذه الفكرة السلبيةَ ويحملكِ إلى الانفعال والخيبة؟».

كان مزاحُ شانتي يُعجبني. كان يتقن فنَّ رسم ابتسامة على شفتيَّ كلّما شعرتُ بالإحباط.

«إنها الحقيقة.

- لكن أيُّ حقيقة؟ ألا تفهمين ما أشرحُهُ لكِ الآن؟ الحقيقة هي أننا هنا والآن في قرية سينوا، على ارتفاع ألفين وثلاثمائة وستين متراً، وأنَّ المنظر رائعٌ، وأننا في كامل صحتنا ولياقتنا، سعداء و... جائعون. هذه هي الحقيقة الوحيدة!».

أحاط شانتي كتفيَّ بذراعه. «سرّاً بيننا، لم يكن غاية في الجمال، لم يكن سوى رجل... وإيطالي فوق ذلك... لم تخسري الكثير!». ضحكتُ ملء قلبي ورميتُهُ بألقاب عديدة، فاستأنف حديثه بجدية أكبر:

«إذا كان على ماتيو أن يلقاكِ من جديد، فلا شيء يمكن أن يمنع ذلك، كوني واثقة من الأمر.

- كيف يمكن العثور عليه في الهيمالايا؟ إنه كالبحث عن جمل في قمة الإيفريست!

- لا تفكّري في الأمر! ضعي ثقتكِ في الحياة. افعلي ما تشائين ودعي الأمر للكون».

بطاقة تعريف

«قد تتخذ، دون وعي منك، أشياءَ كثيرة باعتبارها هويَّتك: جسدك، عرقك، عقائدك، أفكارك».

جاك كورنفيلد

مكتبة
t.me/soramnqraa

آوانا زوجان شابّان للغداء. ونحن جالسون إلى طاولة خشبية قبالة الجبال، استمتعنا بمنظر رائع مطلّ على جبال الأنابورنا الجنوبية، والهيونتشولي، والماتشابوتشير، التي كانت تُشرفُ على الوادي، وتضمُّ في وهادها العميقة بيوتاً صغيرةً تكاد لا تُرى.

تذوَّقتُ بعض المومو النباتية[1] مصحوبة بالأرز، ثم ختمتُ بموزة. اختار شانتي الطعام نفسه، أما نيشال وتيم فكانا نائمَيْن على سفح الجبل، ولم يخرج غومار من المطبخ. كانت الاستراحة قصيرة، لأننا كنا قد تأخرنا في الصباح، وكان لا يزال أمامنا ثلاث ساعات من المشي قبل المرحلة اللاحقة.

بعد فترة نوم قصيرة، استأنفنا السير عبر طريق يتلوّى بين العليق

(1) فطائر أصلها من التبت، تُطبخ بالبخار أو تُقلى، وتُصنعُ من مربع عجين مكوَّن من دقيق القمح - المؤلِّفة.

والسراخس. وقادنا الطريقُ غير المستوي المرتفع أكثر من ألف متر إلى الغابة الاستوائية قبل أن نلج بستان خيزران عبر منحدر أفقدَنا خمسمائة متر من الارتفاع. كان الجهدُ الشديدُ يُجبرني على التزام الصمت. ضبط الرجال الأربعةُ وتيرَتهم مع وتيرتي، وتبادلوا بسماتٍ عطوفة. كانوا يتحدثون أحياناً إلى حمّالي الأعالي الذين كانوا يمرون بنا في طريقهم، يرزحون تحت ثقل المنتوجات الغذائية، أو علب المشروبات الغازية، أو الأعشاب. كنت بالكاد أستطيع أن أعتدل واقفةً في سيري، في حين كان بعضُهم يحمل أثقالاً تساوي وزنه.

يسَّرتْ لنا الصعودَ درجاتُ الحرارة اللطيفةُ في فترة ما بعد الظهيرة. التففنا عدة مرّاتٍ حول أبراج حجرية بوذية صغيرة ترفرف على قممها راياتُ العبادة، ومن ثَمَّ كانت التعويذات تتمدَّدُ في السماء، كأنها حمايةٌ تُحلِّقُ فوق رؤوسنا. لمحتُ قمَّتَيْ الماتشابوتشير من بعيد.

عبرنا قرية بامبو لودج عند موعد خروج التلاميذ من المدرسة، وكانت جموع الأطفال بالزيّ الموحَّد تغلي في الأزقة. وسار أمامنا، في السلَّم الصخريِّ الذي يعبرُ القريةَ، قطيعٌ من الحمير المحمَّلة بأكياس الدقيق والدَّخن. كان نُزلنا يقع إلى اليمين، وتدعو شرفتُهُ، المطلّةُ على الوادي، إلى التأمل. كانت المساكن لا تُخالفُ أصولَ البناء في المرتفعات النيبالية: بنية متجمِّعةٌ، وجدران حجرية، وسقف ذو منحدرين مغطًّى بألواح خشبية. كان نُزلنا يستند إلى أحد تلك البيوت، وكان كلُّه من خشب، أُضيفَ إلى البناء الرئيس.

كان نيشال قد حرص على وضع أمتعتي عند مدخل غرفتي، في الطابق السفليِّ من ذلك المبنى ذي الطابقين. لم يعد الليلُ يفاجئني، بحيث اكتسبتُ عادات مناسبة، فدخلتُ غرفتي وأعددتُ فراشي. ثم

خرجتُ لأستمتع بالمنظر من الشرفة، فلمحتُ نيشال في الأسفل. نزلتُ إليه. كان جالساً على مقعد، مستنداً إلى متجر مكوَّن من أربعة ألواح خشبية، تنفتح إحداها على منضدة البيع، كأنه كشك جرائد مستطيل. كان نيشال يُدخنُ سيجارة ملفوفة، ونظرُهُ سارحٌ في البعيد. أخرجتُ بضع روبيات، واقترحتُ عليه قنينة غوركا، جعةٌ نيبالية، فقبلَها بسرور، واتَّخذتُ مكاني إلى جانبه. أراني علبةَ سجائره عارضاً عليَّ سيجارةً، فرفضتُها لأني توقفتُ عن التدخين منذ أربعة أعوام.

كانت الأشعةُ تنخفض، ناشرة على الأفق نوراً ناعماً. وكان الزمنُ، شأنه كلَّ مساء، معلَّقاً أمام المشهد الأخير للشمس التي تشبك أشعَّتها النارية أمامَ عيوننا المندهشة. جدَّدَ نيشال مخزونه من البيلوت، وهي سجائر محلية، بقيمة ثلاثين روبية، أي ما يساوي خمسة وعشرين سنتيماً لكل علبة، واشتريتُ بعض الحلوى من أجل الغد، ثم عدنا صاعدين إلى النُّزل عبر الطريق المغبر.

أطلعني شانتي على قائمة الطعام: شربة خضروات مع مومو وعجة. اغتنمتُ الربع ساعة التالية للاستحمام، ثم لحقتُ به إلى طاولة تُقابل الجبل. قُدِّمَ لنا الطعامُ سريعاً. كنتُ أحبُّ تلك اللحظات التي أتحدَّثُ فيها إلى مُعلِّمي الروحي. سألني كيف أشعر. كنتُ أعيشُ تحوُّلاً داخليّاً عظيماً. كانت جميع معاييري تُهدَم. وكنتُ مرعوبةً ممّا يحدث. غير أنَّ شانتي طمأنني، أني كنتُ أمامَ نفسي، وأقنعتي تسقط. الأسلحة التي كنتُ أُتقنُها في محيطي، لم تعد صالحةً هنا. وبالفعل، لا شيء مما كنتُ أعرفه كان يساعدني. شعرتُ بنفسي ضعيفة، وجميع أطرافي تؤلمني. كانت نقاشاتُنا تُربكني، واعترفت له أنني أخاف من الثقب الأسود، هنا، أمامي!

«لا يتعلق الأمرُ بهاوية أو بأمر مخيف آخر، وإنما يتعلق بأن تتخلَّصي من كلِّ ما يُثقِلُ كاهلَكِ لتجدي نفسَكِ من جديد.

- أنا هشةٌ منذ أوّل الرحلة. لم أعد أتحكَّمُ في شيء. كنتُ أحسبني صلبةً... والحاصل هو العكس تماماً!

- لقد بنيتِ نفسَكِ على قيم مخالفة لما تعيشينه هنا».

فركتُ يديَّ ونفختُ فيهما لتدفئتهما.

«تُجبرُكِ الأحوال المناخية القصوى على أن تمتحي من مخزونات لم تكوني تعرفين بوجودها، وترجعُكِ عظمةُ الجبال إلى صِغَر الإنسان. غير أنَّ الأكثر إرباكاً، كما لاحظتِ، هو ردُّ فعل الناس الذين تلتقين بهم، فيتعذَّرُ عليكِ أن تُطبِّقي آليةَ تفكيرِكِ، واستراتيجيتِك، ودفاعِك، لذلك تشعرين بالحيرة. فنحن نبني منذ صغرنا درعاً لحمايتنا. نصنعُه بتربيتنا والدور الذي ينتظره المجتمع منّا، مع إغفال حاجاتنا الجوهرية. ففي الغرب، القيمة الأساس التي يرتكزُ عليها كلُّ نظامكم في الفهم، والقبول، والسلطة، والاعتراف، والحب، هي المال. جميع ردود أفعالكِ مشروطةٌ بهذا العنصر، وهو الأمر الذي لا يمكن أن ينفع هنا».

أحطتُ إناء الشربة بيديَّ. وقضمَ شانتي قضمةً من مومو مقليٍّ.

«أنتم مُبرمَجون لتنجحوا اجتماعيّاً. يعتمدُ تعليمكم، ورغباتكم، وتفكيركم على الفوز الماديِّ. أنتمُ تُحبّون لأن الحبَّ مُربحٌ بالنسبة إليكم.

- أنتَ تختزلُ الأمورَ هنا!

- يكون الاحترام وفق حجم حسابكم في البنك. أنتم تعيشون في الخوف من أن تفقدوا القليل الذي جمعتموه بما أنَّ الحبَّ لا ينفصل عن المال. والأمر نفسه في علاقاتكم العاطفية، لا تحلمون

إلا عبر المشاريع المادية: البيت، السيارة، المشتريات. لم تعودوا تُخصِّصون وقتاً لتتعلَّموا من الكبار، ولتعلِّموا الثقة لأطفالكم، ولتشاركوا أصدقاءكم بدل أن تقارنوا بعضكم ببعض! يتأسس نظامُ قيمكم على ما تملكون. لم تعودوا تعرفون كيف تعطون دون أن تتصوَّروا فوائدَ في المقابل. والأدهى والأمر: تخلطون من أنتم بظروف حياتكم. تربطون أنفسكم بمنصبكم، وحيِّكم، وأملاككم، وأصولكم، واسمكم، وعملكم، وعلاقاتكم، ولا توجدون إلا من خلالها. لا تتصوَّرون أن تُحَبُّوا من أن أجل من أنتم: مجرد كائن إنسانيّ. أما نحن، في الهيمالايا، فعلى أقصى الطرف المقابل. ما دمنا لا نملك مالاً، فإننا نعيش في البؤس. ولتستمر، اضطرت هذه الشعوب أن تتعلَّقَ بقيمٍ موروثة ودينية تمنح معنى لحياتهم. ليست لديهم فرصة للضياع في الترف، فهم يواجهون حاجاتهم الأولية. لا يجد الأنا شيئاً يُسمنُهُ، وهو أمر يشجع على التعاطف، والتضامن، والتفاؤل، والاهتمام، والمُتع البسيطة!

- هذا صحيح، يُذكِّرني الناس الذين التقيتُ بهم هنا أننا ضللنا السبيل بعض الشيء».

تنهَّدتُ وبدا الجِدُّ على ملامح وجهي.

«لا أجد تفسيراً لهذه الهشاشة، ينبغي أن أسترجع طبيعتي العميقة.

- لقد بنيتِ حياتَكِ على أساس العمل والتخطيط. عقلكِ يدرسُ مناورات معقَّدة لاستباق جميع الحالات المرتبطة بالإنتاجية. يتعلق الأمرُ بالمفاوضة، والربح، فيحضر الأنا في كامل قوته. أما هنا، فلا أحد يستطيع أن يشتري منكِ شيئاً، فحتى لو تمنى الكثير منهم ذلك، فهم لا يملكون المالَ اللازم.

- لست أسعى لأن أبيع أيَّ شيء!

- ربما هذه هي المشكلة. أنتِ تتحرَّرين يوماً تلو آخر من طبقات الحماية التي تُعيقك، لأن حملَها هنا مرهق جداً. إنها الآليات التي وضعتِها من أجل جلب الطاقة وانتباه الآخرين وحُبّهم. فأنتِ عندما تُسيِّرين مجموعةً من الناس ينتظرون منكِ إشارة، وعندما تقودين سيارةً يتمنى الجميعُ امتلاكها، وعندما تلمعين بأزهى الثياب، ألا تعتقدين أنَّك تثيرين الانتباهَ والحسد؟

- لكن المتعة المادية ليست أمراً سيِّئاً!

- أنا أتفق معك، فالخلطُ يأتي من كونك لا تُميِّزين بين من أنتِ وما تربحين. فأنت لا تعلمين إن كان الحب الذي يُكنُّهُ لك الآخرون مرتبطٌ بنجاحكِ، أو بما تُمثِّلين، أو بالفائدة التي قد يجنوها من ضمّك إلى دائرة معارفهم. هل تعتقدين أنَّ أولئك الذين يحقِّقون نجاحاً ماديّاً يشعرون بالثقة في ساحاتكم؟ لا أعتقد ذلك. إنهم يبحثون بيأس عن مكانة لن يمنحها إياهم المجتمع. إنَّ المفارقة هي أنَّ الأشخاص الذين وصلوا إلى الثروة لا يعتبرون أنفسهم في أمان. يريدون دائماً المزيد: مزيداً من المال، مزيداً من السلطة، مزيداً من الاعتراف، معتقدين أنهم يدَّخرون الحبَّ؛ فعلامات الثراء الخارجية تشكِّل ضمانَ الصداقة التي ستحصلون عليها».

عبستُ موافقة على كلامه. بالنسبة إلى شانتي، كانت المعاناة تأتي من خوفنا من الحاجة. فعندما ننتظر نظرة الآخر، نرتبطُ بأوكسجينه دون أن ننتبه إلى أننا نتنفس ما يزفره من هواء فاسد. وهكذا وجدتني مرة أخرى أنصتُ، من دون مقاطعة، إلى حكمة هذا الرجل الذي يعرف كيف يعثر على الكلمات المناسبة التي تزعزعني. «لماذا تشعرين بنفسك هشة إذاً؟ لأنَّك تُسقطين، واحداً تلو الآخر،

الأقنعة التي وضعها أناكِ أمامَ عينيكِ ليحمي نفسه. فإنما ستعرفين من أنتِ بقبولك هذا الضعف. أنتِ تجدين نفسك عاريةً، بلا قوقعة، لكن هذا لا يعني أنك تضعفين، بل بالعكس، أنتِ تستعيدين ما هو جوهري». جعلت كلماتُ شانتي قلبي ينبض بقوة. كانت كلمات صحيحةً، ولو أنها أفزعتني.

«كلُّ شيء متحكَّمٌ فيه ومحسوبٌ في حياتي. وأنتَ تُبيِّنُ لي أنه ينبغي أن أطلق العنان، وأن أستقبل اللحظة الراهنة، وأن أنزع حماياتي؟ هذا أمر مستحيل بالنسبة إليّ!

- لن تخلقي أبداً رداء كبيراً بما يكفي ليُخفي من أنتِ. فأنتِ ترتدين جميع ثياب المَلِكِ الآن. لماذا لا تكشفين بفخر عمّن أنتِ؟ لا تخشي أن ينبذك الآخرون أو أن تظلي وحيدةً، لأن العالمُ بأجمعه سيقع في حب ذلك القبس الإنسانيِّ الصغير فيكِ. فما تشعرين به باعتباره هشاشةً سيتحول إلى قوة. سيتفكَّكُ درعُكِ، وسيزولُ ثقلُ الأقنعة وثياب التنكر التي ترتدينها، ولن يبقى حينها سوى الجوهر».

عند عودتي إلى غرفتي، دوَّنتُ بعض الملاحظات على ورقة، محاولة أن أستجمع ما دار بيني وبين شانتي من حوارات.

أن أعيش اللحظة الراهنة بنظرة جديدة.

أن أفهم ألَّا وجود سوى لشعورين اثنين: الخوف أو الحب.

المذنب الوحيد عن معاناتنا، هو نحن.

ما قد يبدو سلبيّاً قد لا يكون كذلك.

أن أختار أولوياتي وأن أتأكَّد من أن أفكاري هي في هذا المحور، عن طريق مراقبة سلوكاتي الآلية.

أن أُطمئن طفلي الداخليَّ إذا ما أصابه الهلع.

أن أميّز بين الرسائل التي تأتي من القلب وتلك التي تصدر عن الأنا.

أن أنزع الدروع التي لا تحمي إلا في السطح، وينتهي بها الأمر إلى أن تُصيبني بالاختناق.

أن أرجع إلى ما هو جوهريّ.

أن أحلّق خفيفةً وأنا على سجيّتي.

كانت درجات حرارة الليل تنزل كلما توغلنا في الصعود. وجمَّدَ عبورُنا علوّ الألفي متر الزئبقَ تحت الصفر.

نمتُ وأنا أُردِّدُ، كأنني أتلو تعويذة، القائمةَ التي كنتُ قد دوَّنتُها... أو هضمتُها لتوي...

حقيقة مشوّهة

«لا نرى الأشياء كما هي، بل نراها كما نحن».
أنايس نين

استيقظتُ ثقيلة الرأس، مرتاحةً لعودتي إلى الواقع. كانت تلك الليلة مهداً لجميع كوابيسي، بدأً من ذكريات طفولة قديمة، مروراً بفقدان عملي، وصولاً إلى إصابتي بمرض قاتل. نادراً ما نمتُ نوماً سيِّئاً كهذا. وكان البرد يزيد من كآبة الجو. جلستُ القرفصاء فوق السرير، ثم مدّدتُ عنقي وبدني بحركات من رأسي. بدا أن التشنُّجات قد فارقتني في المرحلة السابقة. ارتديتُ ملابسي حابسةً أنفاسي مثل دأبي كلَّ صباح، وعبرتُ القاعةَ المشتركة النائمة، ثم خرجتُ لمواجهة الصقيع.

كانت الأنوارُ تنفذ من وراء الهيونتشولي. كانت مواعيدي مع الشمس تجلبُ لي فرحاً عميقاً عند كلِّ ظهور واختفاء. وكنتُ قد لاحظتُ في اليوم السابق صخرةً مسطَّحةً في مرتفع أستطيعُ أن أتأمَّل منها بزوغَ الشمس. تسلَّقتُ التلَّةَ، فإذا بشانتي قد راودتُهُ الفكرةُ نفسُها. كان جالساً جلسة اللوتس أمامَ اللامتناهي، واضعاً يديه على ركبتيه، يُصلِّي في هدوء روحه. دنوتُ بصمت واتخذتُ مكاني قربه.

كان الماتشابوتشير محفوفاً بحواريه أمامنا، يُغيِّرُ من ألوانه من ثانية إلى أخرى. نظرتُ إلى ساعتي، لن يتأخر النجمُ في البزوغ. تعلِّمُ دقةُ توقيت مواعيده الاحترامَ العميق، فهو لا يتأخر ولو دقيقة واحدة. فجأةً أضاءت كرةُ النار البرتقالية وجهينا. غمرنا جمالُ هذا المنظر الفريد ودفَّأتْنا أولى ألسنة لهبه. التفتَ مُعلِّمي نحوي وأهداني ابتسامته. فأهديتُهُ مثلَها كأنها انعكاس في مرآة، ثم بعد صمت طويل، سألني بصوت رقيق عن أهدافي لذلك النهار. فاجأني سؤالُهُ، ففكرتُ برهةً.

«أنا متلهفة للوصول إلى الغاية من هذه الرحلة، أن ألتقي المدعوَّ جيسون هذا وأن أحصل منه على الطريقة التي جئتُ أطلبُها من أجل رومان. ثم إنَّ غومار وعدني برؤية استثنائية على القمم الثلاث عشرة العليا في الهيمالايا. أنتظر الذهاب إلى هناك بلهفة. سيكون ذلك نوعاً من التتويج لكلّ جهودنا، ألا تعتقد ذلك؟».

كان حكيمي يبدو مستغرقاً في أفكاره.

«ألستَ متفقاً؟

- أعتقد أنَّ وحده الطريق يهمُّ. فالنتيجة في الغالب لا قيمة لها بالنسبة إلى الطريق الذي نقطعه».

بعد ما تعلَّمتُ منه عن الحاضر، صرتُ أبحثُ عن مصادر أخرى للتمتع القصير الأمد.

«أنا سعيدة بالمرور عبر غابة شجر الورد، فقد سمعتُ عنها الكثير. وأنتَ، ما هي أهدافكَ لهذا النهار؟

- ليس لي سوى هدف واحد، وهو الهدف نفسه كلَّ يوم: أن أكون سعيداً.

- وهل تنجح في ذلك؟

- أجتهد في سبيل ذلك. السعادة حالة ذهنية؛ فأحاول ألّا أكون سجين أفكاري. أنا سعيد بهذا النهار الجديد الذي يبدأ ويفتحني على المفاجآت الجميلة التي يُخصِّصُها لنا.

- لم تُحدِّثني قطُّ عن نفسك. هل أنتَ متزوِّج؟».

نظر إليَّ نظرة شقية، رافعاً حاجباً مستفهماً. احمرَّ وجهي، فأخذ يضحكُ. تذكرتُ ردَّ فعلي أياماً قبل ذلك عندما طرح عليَّ السؤالَ نفسَهُ.

«أنا أمازحكِ فحسب... وأشكركِ على الاهتمام الذي توليني إياه. أجل، لديَّ ثلاثة أطفال لا أراهم إلا لماماً. أنا متزوِّج، لكن... لكي أكون صادقاً، الزواج هنا مسألة طبقات.

- تقصد أنه زواجٌ مرتَّبٌ؟

- أجل، لتحقيق شرف سلالتي. أنا براهماني[1]. إن المهم بالنسبة إليَّ هو أن أوفِّر اللازم لأطفالي ليتمكَّنوا من اختيار حياتهم.

- هل كان عملك دائماً مرشداً؟

- كلَّا! ابتدأتُ أعمل حمّالاً، ثم رئيس حمالين. وموازاة مع ذلك، تعلَّمتُ الإنجليزية واجتزتُ دبلوم مرافق. وأنا سعيد بهذا الوضع!».

نظر شانتي إلى ساعته. كان الوقت قد حان للاستمتاع بفطور لذيذ. قرقر بطنُهُ، وتلته ضحكاتُنا. كنتُ أشعر أني بخير، تُحييني من جديد تلك المناظرُ الاستثنائية وكلماتُ شانتي التي تتردَّدُ نبراتُها مثل سمفونية. ابتلعنا، من شدة البرد والجوع، «**بريكفاست** كاملاً»، ثم أعلن مرشدي عن الانطلاق على الرغم من برودة الصباح.

---

(1) أعلى رتبة في نظام الطبقات الهندي-النيبالي - المؤلِّفة.

كان نوع من ريح الشمال تصفع وجهي في أثناء الطريق، فتشلُّ خدَّيَّ وشفتيَّ. غطَّيتُ المناطق التي ظلت عاريةً، لكن كانت دموعي تسيل. التفتَ شانتي نحوي ليُطَمئنني. كنا على وشك الدخول إلى غابة شجر الورد، حيث سنحتمي من الريح. كانت المناظر تتغيَّر مثلها مثل ديكورات مسرحية. وصلنا إلى طريق كانت أشجاره المتشابكةُ تصنع قبة من نبات فوق رؤوسنا. كانت الظُّلَّة تشكِّلُ حاجزاً طبيعيّاً ضد الريح، وكنت مبتهجةً بأن أسلكَ ذلك الطريق، فهذا المكان الفريد كان قد حظي بتقارير صحافية عديدة.

«ها نحن وصلنا! انظري إلى غابة شجر الورد هذه، هل سبق لك أن رأيتِ مثلها في مكان آخر؟

- أين؟ لا أرى شيئاً!

- من حولنا... كل هذه الشجيرات...

- أوه... هذه مزحة! أين هي الورود؟».

شرع شانتي يضحكُ. إنها لا تظهر إلا في فصل الربيع! أزعجني سلوكه. بدا أنه لا يُدركُ مدى خيبة أملي. كان المنظر أقلَّ إثارة في الشتاء! مشينا صامتين في طريق ترابيٍّ، وكنتُ متأسفةً لأنني لم أشهد ذلك المنظر الفريد. توقف شانتي وجلس فوق حجرة قبالة الحافة، ثم دعاني إلى اللحاق به.

«أكنتِ تتخيَّلين شيئاً آخر؟

- أجل، كنتُ أودُّ أن أتأمَّل الورود، لكننا لسنا في الربيع.

- لا توجد فصول معينة لمشاهدتها. يمكنني أن أُريكِ إيّاها».

نظرتُ إليه، متشكِّكة. كان يبحث في البعيد، وقد ضيَّقَ عينيه، في ذلك المزيج من النباتات المتعرِّشة. حاكيتُهُ، لكنني لم أرَ شيئاً! ولم أكن واثقةً من أنه يرى شيئاً هو الآخر. ركَّزَ نظرهُ، ثم أشار

بأصبعه إلى الغابة وهو يُحدِّثني عن باقات ورد ذات لون ورديٍّ فاتح، وبجانبها ورد أحمر قانٍ بشكل أبواق. تفحَّصتُهُ، مندهشة. لم يرفع عينيه عن المنظر. بحثتُ ودفعتُ نظري إلى مدى أبعد. لكنني لم أرها.

«إنها أمامكِ تماماً، هناك.

- أنت تسخر مني!».

نهضتُ، منزعجةً، فأمسكَ يدي وأجبرني على الجلوس. وأمرني بلهجة حازمة: «تمهَّلي وأنتِ تفحصين الأغصان الصغيرة المحتلمة. خضراء رطبة، تصير ضاربةً إلى السمرة ثم رماديةً مع تقدمها في السن. تأملي أوراقها الضيقة، الثابتة، البيضاوية.

- أجل! الأوراق، إني أراها!

- كم هو حجمها؟

- لستُ أدري... اثنا عشر أو ثلاثة عشر سنتمتراً.

- صحيح. إنها خضراء فاتحة الخضرة في الأيام الجميلة، وتصير داكنة في الشتاء ويمكن أن تميل إلى الحمرة كما هو حال هذه التي ترينها هناك. تتكوَّن براعم الورد عند نهاية الصيف وتتخذ شكلاً مكوَّراً، وتكون ظاهرة طوال الفصل البارد».

وأخيراً رأيتُ تلك البتلات، بالمئات.

«كثيراً ما يُدرك العميانُ الأشياء أفضل من المبصرين. أغمضي عينيكِ ودعيني أريكِ إياها.

- إذا كنتُ في الظلام، فلن أرى شيئاً!

- افعلي ما أطلبه منكِ! يمكنكِ أن تتخيَّلي ورودها ذات اللون الورديِّ الأرجوانيِّ. يبلغ قطرها خمسة سنتمترات. هي على شكل

أقماعٍ مُوَسَّعِة أو أجراس ضيِّقة، وتتجمع بعضها مع بعض لتُشكِّل باقةً».

توقَّف شانتي عن الكلام برهة ليمنحني فرصة تصوُّر تلك الورود، ثم واصل تفريخ كلماته. «انظري عن قرب: تقع الوردةُ في القرص وتتكون من خمس بتلات تويجية متشابكة. إنها تحمي الرحمَ حيث تتشكّل البويضةُ. يتربَّعُ الميسمُ في المركز، وترقصُ حوله الخيوطُ الوردية الفاتحة. تُهدي لقاحَها الأصفر الفاقعَ للريح التي تتكفل بحملها إلى مقصدها بأمان. يمكنكِ أن تريها بالآلاف».

صمتَ. كان وصفه شديد الدقة لدرجة أنّني شاهدتُ مندهشة البراعمَ تتفتَّحُ برعماً برعماً. تنازلَ الأخضرُ المائلُ إلى السمرة السائد في الأوراق والأشجار عن مكانه لصالح باقات البتلات التاجية التي رسمها مرشدي للتو. لم يسبق لي أن رأيتُ مشاهد رائعة مثل تلك ولا أن تمهلتُ لأشاهدها مرة واحدة! ابتسمتُ لشانتي. «يا للروعة!».

تأملنا الغابةَ المتورِّدة، حيث كان تغريد العصافير يزيد من حضور ذلك الربيع الافتراضيِّ. كانت أصواتُ حفيفٍ متتالية تقتربُ، وسرعان ما ولجتِ المشهدَ أوركسترا كاملةٌ. كانت الريح فوق رؤوسنا تخترق بين الفينة والأخرى طبقةَ أشجار الإيريكا الكثيفة لتشاركَ في الحفل الموسيقي. وتسرَّبت الشمسُ، ذلك الكشاف الضوئي الطبيعي، بين الأغصان المتشابكة. ربَّتَ شانتي على ساقي. كان الوقت قد حان للانطلاق نحو دورالي من جديد.

كانت حالتي الذهنية قد تغيرت، وكان قلبي يفيض بالعواطف. كنتُ أطأُ الأرضَ بلا جهد، وقد استغرقني ذلك الإحساس بالهناء في غمار اللحظة. لم نر أحداً لأكثر من ساعة، مغتنمين تلك الطاقة

الحصرية إلى أن وصلنا إلى السيل. وكنتُ قد تمكنتُ، بفضل عبورنا جسرين أو ثلاثة كلَّ يوم، من كبح خوفي بإطباق خطواتي بحذر على خطوات تيم، الذي كان يقفزُ من لوح إلى آخر.

ونحن نصعد الطريق الذي يعلو الأخاديد، فكرتُ في الدِّقة التي وصف بها شانتي الورودَ والطريقةَ التي تجلَّتْ بها أمام عينيَّ.

«تأثرتُ كثيراً بما رأيتُ. وصفتَ لي بتفصيلٍ دقيقٍ أشجارَ الورد، حتى أنني رأيتُها كأنها حقيقية!

- ألم تكن كذلك؟ ما الذي تعنيه «حقيقية» بالنسبة إليكِ؟

- شيء نستطيع أن نلمسه، شيء يوجد فعلاً!

- الفكرة، أليست حقيقية؟ والموجة الصوتية، أليست حقيقية؟ والذبذبة، والإحساس، والعاطفة؟

- بلى! لكن ما أقصدُهُ هو أنَّني تخيَّلتُ وروداً، غير أنها لم تكن موجودة.

- بل كانت موجودة بالتأكيد! في واقعك، بما أنَّكِ رأيتها.

- كلَّا! كانت تبدو ملموسةً، لكنها لم تكن كذلك. شانتي، أنتَ تعلم هذا! فلمَ هذا التحريف فجأةً؟

- ألم تريْ أحلاماً أو كوابيس من قبلُ؟ عندما يحدثُ لكِ ذلك، لا وجود لحقائق أخرى. تذكَّري، حدثتُكِ عن الأمر عندما كنتِ خائفة من عبور أول جسر معلَّق. فأنتِ تشعرين بالانفعالات، وجسدكِ يستجيبُ لوضع واقعيٍّ بالنسبة إليكِ في تلك اللحظة. ألم يحدث لكِ قطُّ أن استيقظتِ مفزوعةً، تتصببين عرقاً، بعد جريٍ مجنون، أو متجمِّدةً من شدة الخوف، وقلبُكِ يدقُّ بقوة، على إثر اعتداء؟ يُصبحُ واقعُكِ حينئذ حلمكِ. تتجلّى جميعُ الأعراض كأنك كنت تعيشين ذلك الموقفَ مستيقظة، أليس كذلك؟

- أجل، هذا صحيح، لكنه ليس الواقع.

- واقعنا يتعلَّق بإدراكنا للظروف. تنبني حقائقنا وواقعُنا عبر مصفاة ماضينا، ومصفاة تربيتنا، ومصفاة تجاربنا. لننظرْ من جديد في مثال أحوال الطقس، عندما تستيقظين في الصباح، وتكون السماءُ رماديةً، والمطر يهطل من السماء مدراراً، ماذا تقولين؟

- قبل يومين، كنتُ سأنزعج وأصرخ، لكنني اليوم إيجابية، أنا أبتهج!

- وماذا أيضاً؟ فيما يتعلق بالشمس على سبيل المثال؟

- لا وجود للشمس في جو ممطر!

- وكيف سيكون النهار إذاً؟».

ابتسمتُ لهذه الملاحظة الأخيرة، فكنتُ قد بدأتُ أتلمَّسُ ما كان يحاول شانتي أن يبيِّنه لي.

«الشمسُ حاضرةٌ بالفعل، لكنني لا أستطيع أن أراها من حيث أوجد.

- بالضبط، أنت لا تستطيعين أن تريها من نافذتك، لكن إن كنتِ في تلك اللحظة نفسها على متن طائرة، تحلِّقُ فوق بيتكِ من فوق السحاب، فإنَّ الشمس ستُبهركِ، أليس كذلك؟ عندما نواجه موقفاً ما، يستحيلُ علينا أن نُدركَ الواقعَ في مجمله إنْ نحن بقينا ثابتين في مكاننا».

اقترح شانتي استراحةً. جعلَ أعضاء الفريق يجلسون على شكل دائرة وطلبَ مني أن أُعيرَهُ هاتفي. «لا ألتقطُ شيئاً، لا فائدة منه»، أجبتُ وأنا أُخرج الهاتف من حقيبة ظهري. فحصتُهُ. كانت البطاريةُ ضعيفةً وشبكةُ الاتصال منعدمةً. مدَّ شانتي يده نحوي بإلحاح. سلَّمتُهُ إياه، فثبَّتَهُ مستقيماً فوق حجرة كان قد حرص على وضعها في الوسط

بيننا. ثم اقترح علينا أن نتأمل ونصف ما كان يمكننا أن نراهُ انطلاقاً من موقعنا.

بدأ غومار، الذي كان يفحصُ الهاتفَ من الخلف، يتحدث وشانتي يترجم ما يقوله: «أرى مستطيلاً ذا لون رماديٍّ معدنيٍّ، يبلغ حجمه حوالي عشرة سنتمترات على خمسة، فيه حلقة سوداء في الأعلى إلى اليسار، وفي الوسط رسمُ تفاحة، وفي الأسفل بعض الكتابات مع أرقام». ثم أعقبه في الكلام تيم، الذي لم يكن يرى من الهاتف سوى الحافة: «أرى شريطاً من عشرة سنتيمترات مدوَّراً من جانبيه. ثلاثة أزرار في الأعلى، زرَّان منها متماثلان وزرٌّ أصغر». وأخذ نيشال الذي كان يقابل الشاشةَ يُعدِّدُ ما يراهُ، دائماً بمساعدة شانتي في الترجمة: «مستطيلٌ أسود من عشرة سنتمترات على خمسة مع إطار أبيض، ودائرة فضّية في الأسفل، وخطٌّ أفقيٌّ أسود في الأعلى». وقدمتُ بدوري الطَّرفَ الذي كان يبدو لي.

انتظر شانتي إلى أن أنهينا كلامنا، ثم استلم زمام الحديث من جديد. «إنْ أنا طلبتُ منكم أن تشرحوا لشخص آخر ما هو الهاتف على أساس ما رأيتموه الآن، فإنَّ كلَّ واحد منكم ستكون لديه رواية مختلفة للموضوع، أليس كذلك؟ وعلى الرغم من ذلك، لا أحد منكم سيكون كاذباً؟». أجبنا لا بالإجماع. «هل تعتقدون أن أحدكم على حق أو على خطأ؟ تختلف رؤيتُنا وفق المكان الذي نوجد فيه. ينبغي أن نستحضر دائماً أنَّ الحقيقة يمكنها أن تتجاوز زاويةَ رؤيتنا». التفت شانتي نحوي.

«بما أنَّكِ تعرفين هاتفكِ، هل يمكنك أن تُخبريني إن كان مجموعُ الأوصاف التي أدليتُم بها أنتم الأربعة كافياً لكي تتشكَّلَ لدى شخص لم ير الهاتف من قبل، صورةٌ كاملةٌ عنه؟

- كلا، لن يكون ذلك كافياً لإدراكِ منافعه ووظائفه على سبيل المثال.

- تماماً، فعلى الرغم من دقّة كلٍّ واحد منكم، فنحن بعيدون عن حصر القدرات التي يحتويها».

نظرتُ إلى هاتفي. كان من السهل استيعاب استعارة شانتي: جمعُ عدد من البيانات لا يؤدي إلا إلى نتيجة جزئية؛ فالأبعاد الثلاثة لم تسمح بتعريف صحيح للهاتف. كان الأمر يحتاج إلى عناصر معرفية لإضفاء إضاءة كاملة.

«نحن نعتقد أننا نمتلكُ الحقيقة، لكن علينا أن ننتبه إلى اليقينيات التي يُولِّدها الوهم.

- هل يعني هذا أنَّ واقعنا قد لا يكون ذلك الذي نُدركُهُ؟

- بالفعل. يجب أن نظلَّ حذرين فيما يخصُّ إدراكاتنا».

في الطريق الشاهق، كانت النباتات تزداد ندرةً شيئاً فشيئاً. وكلما توغَّلنا صعوداً، شعرتُ بصعوبة في التنفس أرغمتني على إبطاء وتيرتي لأسترجع أنفاسي بانتظام. أصاب التعبُ عضلاتي، وانتقلت أفكاري من رومان، التي لم أتمكن من الاتصال بها والتي كنتُ أودُّ أن أشاركها رحلتي، وبين شانتي وتعاليمه. كانت حكمته تؤثِّرُ فيَّ. ثم حضرتني صورةُ ماتيو فانقبض قلبي. كان لديَّ شعور غريب أنني ضيَّعتُ فرصة التعرف إلى شخص محترم. طردتُ تلك الفكرة محاولةً استعادة إيجابية شانتي. كان على حق، بما أننا لا نملكُ معلومات عن المستقبل، فمن الأحسن أن نتخيَّل أفضل الأمور الممكنة. قد يجمعنا القدرُ يوماً... وإن لم يكن هو، فسيكون شخصاً آخر. ابتسمتُ وأنا ألاحظُ الآليات التي بدأت ترسَّخُ بداخلي.

لم يكن وصولُ دورالي ليُضايقني، فالنهار كان صعباً جسديّاً.

كنتُ أشعر بالغثيان منذ الصباح ولم يزدد ذلك الشعور إلا قوة. كنا نخسر كلَّ يومٍ بضعَ درجات حرارية مع صعودنا، وكانت فترة ما بعد الزوال هذه تسجّل درجات حرارة سلبية. اتخذتُ مكاني في غرفتي، وهي كسابقاتها، ذات حجم صغير وقليلة الأثاث، لكنها كافية: فراش فوق لوح خشبيٍّ، ومصباح عارٍ في السقف، وسلَّةٌ ونافذة كبيرة تطِلُّ على سلسلة الهيمالايا. رتَّبتُ بعض الأمتعة، ثم استمتعتُ، قبل غروب الشمس، بحمام ساخن، كان صاحب النُّزل يقترحه مقابل دولارين إضافيين. كان لحرارة تدفُّق الماء الساخن أثرٌ طيِّبٌ عليَّ، لكنني ما أن ارتديتُ ثيابي، حتى أدّى الفرق بين درجات الحرارة إلى تسريع سوء حالي: كانت آلام معدتي، ثم الحموضة على جانبي لساني، تُنبِئان بتطورات مقلقة. شعرتُ بأنني لستُ بخير، لستُ بخير على الإطلاق... جريتُ إلى المرحاض.

وبعد لحظات عصيبة، بذلتُ جهداً كبيراً كي أعود إلى غرفتي. كانت عضلاتي تؤلمني وتحملني بصعوبة. وأخذ جسدي الحسّاسُ يرتعش. وجعٌ في البطن، وتشنُّجاتٌ في الأمعاء، ونفسٌ قصيرٌ؛ اتَّخَذَتْني سكرةُ الجبال هدفاً لها. كنا على ارتفاع ثلاثة آلاف ومائتين متر، يفصلنا يومٌ من المشي عن أعلى نقطة، وكنتُ قد استنزفتُ آخر قواي. كيف سأستطيع تجاوز هذا الحدّ؟ كنتُ أعلمُ أنه لا ينبغي مصارعة القمم العالية، بل يجب، على العكس، الاستسلام والنزول. تسلَّلَ جسدي وأخذَ معه معنوياتي المتصدِّعة.

طُرِقَ البابُ، ولم أجد الطاقة لأردَّ، إذ كنتُ أتألَّمُ من رأسي إلى أخمص قدميّ. ألحَّ الطارقُ، فتعرفت على صوت شانتي. تأوَّهتُ بصوت ضعيف: «ادخل!». اندهش مرشدي حين وجدني منكمشةً داخل غطائي.

«ما بك؟

- إني مريضة، وخارج السباق تماماً!

- لستُ متفاجئاً!

- أنتَ تشيرُ إلى مرض الجبال، أليس كذلك؟».

أخذ يضحكُ، فاكتسى صوتي بعض القسوة.

«لا أرى حقيقة موضوعاً للتسلية!

- اعذريني، لم أقصد أن أغضبكِ. إني أسخر مني أنا وليس منكِ! يكون ردُّ فعلنا دائماً أن نبحث عن المشكلة خارج ذاتنا، وأنا أفعل الشيء نفسه عندما أشعر بالألم في موضع ما.

- لا أفهم ما تقصدهُ، لكني لستُ واثقة من أن أجد القدرةَ على الإنصات إليكَ هذا المساء».

أغمضتُ عينيَّ، وجسدي متخشِّبٌ ومشلول من الأوجاع، ورجوتُ أن يُدركَ شانتي حاجتي إلى الوحدة. دنا مني وقال بصوت منخفض: «لن أتركك تتألمين. إنَّ ذهنكِ رافضٌ لكل هذه التغيُّرات. وجسمُكِ يستجيبُ لكل ذلك، ويشرح لكِ الصراعَ الذي تعيشينه بين أولوياتكِ ومخاوفك. أنصتي إليه، اسمحي له أن يحكي لكِ ما يعانيه. لا تلومي نفسكِ، بل اسمعي ما تُسبِّبين له من معاناة. ارخي الزمام، لا تحاولي أن تتحكَّمي في كل شيء، اتركي له المجال للتعبير عن نفسه. اتخذي منه رفيقاً، إنه أفضل صديق لك. يعرف كيف ينبِّهكِ إذا ما وقع أي اختلالات. عندما يتعلَّق ذهنُكِ بمعتقداته 'الخاطئة' ويُخبركِ قلبُكِ بالنقيض، فإنَّ الجسد يجد نفسه بين الاثنين وينبِّهُكِ إلى المشكلة. اقبلي هذا الصراع الداخليَّ هذا المساءَ فحسب! لا تنخدعي، فأنتِ لا تعانين من مرض الجبال. اسمعي رسالة جسدكِ اللبقة. حاولي أن تُطمئني دماغَكِ بأن تشرحي له أنَّكِ

تأملين أن يزدهر في المجال الذي يتفوق فيه: مجال تنفيذ خيارات قلبكِ. إذا لعب كلٌّ واحد دوره، ستتمكنون من أداء السمفونية الرائعة التي هي حياتكِ».

غاب شانتي وعاد حاملاً مشروب أعشاب ساخن. ساعدني على شرب جرعة، وداعبَ جبهتي، وهمس لي قبل أن يخرج: «أرخي الزمامَ، يا مايبل!». وكالعادة، تردّدت كلماتُهُ في داخليَ. لم يكن كلُّ شيء واضحاً، لكنني أحسستُ بذلك الصراع الداخليِّ الذي كان يتحدث عنه. أيكون جسدي حليفاً ينبِّهني إلى مشكلة ما؟ ليس من السهل أن أصدِّق أنَّه في إمكاني أن أجعل أنا وحدي نفسي في مثل هذه الحال! شربتُ بضع جرعات من مشروب مُعلِّمي ونمتُ بلا جهد بالنسبة إلى أول ليلة أقضيها في علوٍّ يجاوز الثلاثة آلاف متر.

*

استيقظتُ في اليوم التالي في كامل صحتي، مندهشةً من أنني لا أشهر بألم في أي عضو من أعضائي. شعرت كأنني نمتُ أربعاً وعشرين ساعةً. كانت الساعة السادسة وعشرين دقيقة، أي الوقت المناسب لاستقبال الشمس. ارتديتُ ملابسي الباردة بسرعة، واختلستُ فنجانَ قهوة بتواطؤ من ربِّ النُّزُل الشاب، الذي وضع ماء ليغلي من جديد على الموقد الخشبيِّ، وخرجتُ إلى البرد الكبير.

كان شانتي هناك، دأبه كلَّ يوم، ناظراً إلى الفراغ، مركِّزاً في البعيد. كانت أشعة الشمس تُلوِّنُ بالبرتقاليِّ اللامع الماتشابوتشير والأنابورنا، وكانت شرائط بتدجات من الأصفر، والأحمر، والأرجوانيِّ، تلوّن السماء، وكانت السحبُ المشعّةُ تتحرّك أفقياً، بشكل مفارق لثبات الجبال العمودي. كنتُ أجد كلَّ يوم ألوان الأيام

السالفة، لكن لم يكن أي شروق يُشبه آخر. في ذلك الصباح، بدا كل شيء يستيقظُ في حركة بطيئة، وواثقة، ومنظَّمة، وخالدة. ركَّزتُ على تنفُّسي، في انسجامٍ تام مع ذلك الهدوء. انعكست الألوانُ على الجبال التي كانت تنتشر فيها الحركةُ أمام عينيَّ. حيَّتْني الأشجارُ بأوراقها، وداعبَت الريحُ وجهي. وكنتُ أنا نفسي فاعلةً، وسط هذه الرقصة الكونية. وكان دماغي المسالم لا يتوق إلا إلى الصمت، كان جسدي مسترخياً، ولم أتمكن من حبس دموعي.

كان لديَّ انطباعٌ غريبٌ أنني لستُ سوى كلٍّ كبيرٍ، في تناغمِ تلك العظمة الرَّحبة، مثل ساعة حائط قديمة معطّلة تستأنف عملها داخل آلية متقنَة. استعادتْ كلُّ قطعة مكانَها، وكانت كلُّ واحدة منها تؤدي مساهمتها في الجهاز لتمنح الساعة الصحيحة. تفحَّصتُ وعائي لأتأكَّد من عدم وجود أيِّ انسداد. كانت الطاقة تتحرَّكُ دون صعوبة، ولم يعد من ألم. فريقٌ ممتاز في طور القوة. كنتُ أشعر بنفسي مكتملة، سعيدةً، جزءاً لا يتجزّأُ من هذا الكون الذي أراه يلجُ داخل كياني كلّه عبر كمال كلِّ ما كان يحيطُ بي. نضجتُ في كلِّ ثانية بألوان المنظر. طلعت الشمسُ، وامتزجت بالإيقاع السائد، فساهمت في كمال اللحظة. يا لها من معجزة!

كان عملُ أعضائي اللامشروط يُعبِّرُ عن نفسه لوعيي. كيف أمكن لي ألَّا أنتبه إلى نفسي كلَّ تلك السنوات؟ لم أكن أعرف ما هو أجمل من هذا الحُبِّ، الذي لا يطلبُ أيَّ عرفان. كان كياني الصغير، على الرغم من الضربات التي تلقَّاها، يواصِلُ بمشاكسةٍ أداءَ ما خُلِقَ من أجله. لم أكن فخورةً حقّاً بكوني أهملتُ إلى هذا الحدّ ما هو جوهريٌّ. وسرعان ما هبطَ دماغي، المتباهي بفوزه بجوائز المدارس الرفيعة، من على قاعدته العالية. واسيتُهُ قائلةً:

«أنجزنا ما أمكننا أن ننجزه بالوسائل التي كانت متاحة لنا!

- أجل، لكن إن عبّر القلبُ عن نفسه، فسيكون الأمر أبسط.

- ليعبر عن نفسه، ينبغي أن نمنحه الفرصة.

- المكانةُ لا تُمنَحُ، إنما تُؤخَذُ!

- أرى أنك تحاول أن تسترجع موقعك، لنَدَعْهُ يشرح لنا روايتَهُ».

واصل قلبي النبض بالإيقاع نفسه.

«أنا لم أهجركما قطُّ، بل كنتُ حاضراً في جميع أفعالكم وقراراتكم، حتى عندما كنتُ لا أوافقُ عليها.

- لماذا لم تتدخَّل إذاً؟

- حاولتُ، لكنك تتكلَّم بصوت أعلى من صوتي. لا يمكنك أن تسمعني في خضم الفوضى».

أخذ جسدي الكلمةَ، متوجِّهاً بكلامه إلى الدماغ:

«أحاولُ أن أنبِّهكَ للخطر عندما تسير في الاتجاه المعاكس لقلبكَ، لكنني أحتاج أحياناً لأفرض عليكَ نفسي لكي تفهم، مثلما حدث مساء البارحة. إنها الطريقة الوحيدة التي عثرتُ عليها لتهدئتك.

- بعبارة أخرى، أنا المخطئ الوحيد! الجمع ضدّي!

- لا يتعلق الأمر بالبحث عن مذنب. نحن نعرف جميعاً قيمتَكَ عندما لا تكون تحت هيمنة الأنا. نحن بحاجة إليك! إن كنا نريد أن نُحقِّقَ ذواتَنا، فعلينا أن نعمل معاً جميعاً».

اقتنع الدماغُ ولم ينبس ببنت شفة. اتخذت الشمسُ مكانَها داخل المشهد وشكَّلت اللوحةَ التي كانت تتجسّد أمامنا. لم أجرؤ على الحركة، مخافة تغيير حالة الامتلاء تلك.

شرع هاتفي يهتزُّ داخل جيبي معلناً عن فراغ البطارية.

طاقةٌ جميلةٌ

«الحبُّ هو الجوابُ الوحيدُ على الكراهية».
ديلغو كيينتسيه رينبوتشيه

تغلَّبت فكرةُ الوصول إلى غايتنا على رغبتي في التكاسل في ذلك الصباح. استأنفنا الطريقَ مباشرة بعد فطور دسم: عجة بالجبن، وزبدية عصيدة، وفطيرتان بالعسل، وبعض الفواكه المجففة. كانت وجهتنا أعلى نقطة في رحلتنا: المُخيَّم الأساس في ماتشابوتشير، معبد أنابورنا! كانت العقبة كأداء، وكان شانتي قد أخبرني بفارق إيجابيٍّ في الارتفاع يصل إلى تسعمائة وثلاثين متراً.

ونحن على ارتفاع ستمائة متر، وبعد صباح كان التركيزُ فيه على كثافة المجهود، كنتُ سعيدة بأن أتقاسمَ الغداء مع أول فرنسنين التقيتُهم: زوجان في حوالي الخمسين من العمر، لكن سرعان ما تضايقتُ منهما عند أول انعطاف سياسي في الحديث، حيث شرعا يطلقان أحكاماً عنصرية عنيفة، فأخرجني الأمرُ عن طوري. لم أتردّد في إبداء رأيي الصريح في أفكارهما، ثم ذهبتُ لأتمدَّد إلى جانب شانتي تحت الشمس، فوق العشب على بعد بضعة أمتار. حكيتُ له الحادثة.

«لا أتحمَّلُ هذا النوع من الأغبياء!

- ألم تنتبهي إلى أنَّكِ تخسرين طاقتكِ على إثر بعض النقاشات؟

- لم أكن واعيةً بذلك، لكن عليّ أن أعترف أنني فهمتُ ذلك جيداً هذه المرة!

- كلُّ سلوكٍ يولِّدُهُ النقصُ يؤدي إلى هكذا تصرفات. إنَّ هذا النوع من الأشخاص لم يجدوا منبعهم، وبالتالي هم يستولون على أوكسجين الآخرين بتوجيه الاهتمام إليهم، وبذلك يتجدَّدُون.

- صحيح! إنهما أرهقاني، بالإضافة إلى أنهما أغضباني.

- المتشائمون، والسلبيّون، وأولئك الذين يودُّون فرضَ وجهة نظرهم، وآخرون يعارضون كلَّ ما يُقال، وأولئك الذين يدَّعون أنهم ضحايا، هم جميعاً مفترسون للطاقة. يحرِّكهم الخوفُ. ويمكنك أن تتفاديْ هذا النوع من المواقف. يكفي أن تكوني منتبهة. من السهل التعرف على ذلك الضرب من السلوك، وجسدُكِ مؤشّرٌ جيّدٌ. عندما تشعرين بتوتُّرات، وبانقباض، وبإحباط، تعلمين حينئذٍ أنَّ طاقتكِ تنقصُ.

- أليس من الأفضل أن أهرب منهم؟

- هذا حلٌّ ممكنٌ إنْ أنتِ رأيتِ أنَّ قواكِ لا تكفي، أما أنا، فأفضِّلُ أن ألاحظَ دون أن أسعى إلى أن أنسب الخطأ إلى أحد، ثم أركِّزُ لأبعثَ أفكاراً مُحِبَّةً.

- هذا يتجاوز إمكانياتي، فلديَّ رغباتٌ في القتل!

- اطمئنّي، يحدثُ الأمرُ نفسُهُ مع الجميع، لكن الغضب شعورٌ عقيمٌ لا يُريحنا. تكمن السعادةُ في أن نكون في انسجامٍ مع ذواتنا. وحدها أفكارُنا الخيرة يمكنها أن تحمينا من هذه الإساءات.

- لا يمكننا أن نظلَّ صامتين على الدوام. إن لم يجبرهم أحدٌ على التفكير، فإنهم سيستمرون في تلويث الأرض. لم تُعجبني طريقتُهم في التهجُّم عليَّ.

- إنهم يُعانون من نقص. يجبرُنا الخوفُ على التصرُّف دفاعاً أو هجوماً. إنْ أنت غيرتِ نظرتَكِ عنهم، فإنكِ ستلاحظين ألَّا شيء ممّا يقولونه موجَّهٌ ضدَّك. قد تبدين كأنَّكِ الهدف، لأنَّكِ توجدين هنا، لكن كان سيصدر عنهم السلوك نفسه مع شخص آخر غيرك. مثل سائق السيارة الذي مررنا به يوم انطلاقنا في الرحلة، أتذكرين؟ أنتِ لديكِ القدرة على أن تحتفظي بهودئك وسكينتك على الرغم من تصرفاتهم، فبتوزيع طاقتِكِ المُحِبَّة، تحفظين نفسك.

- يصعُبُ عليَّ ألَّا أردَّ.

- يصعبُ ذلك على كل شخص يعتقد أنه هدف الهجوم. إن أنتِ خرجتِ من هذه الفكرة، ولاحظتِ مخاوفَ مُحاوركِ، فإنك ستشعرين بالتعاطف. عندما تكونين واعيةً بحالتك الذهنية، فإنَّكِ تسيطرين كلَّ السيطرة على القوة التي تولِّدينها. والنقطة الأساس هي أن تتأكَّدي من أنَّكِ تَسعين إلى أن تظلي على صلة مع الآخر وليس إلى أن تكوني على صواب.

- أوه... أجل، أسعى إلى الدفاع عن موقفي!

- إنها مشكلة الكثير من الناس!

- أفهمُ ما تقصدُ... أو على الأقل أظنُّ ذلك... ماذا علي أن أفعل كيلا أترك نفسي أنجرف؟ هل توجد علامات تحذيرية؟».

دعاني شانتي إلى أن أعتدل جالسةً للقيام بتجربة. «أغمضي عينيكِ وتنفَّسي خمسة أنفاس عميقة متتالية. فكري الآن في كلمة

'ألَمٌ'». صمتَ دقيقةً. «انطقي هذه الكلمة ثلاث مرات وأنت تتمعنين بما تثيرُهُ من أحاسيس. أيمكنُكِ أن تصفي لي ما تشعرين به؟».

تمهَّلتُ بعض الوقت. «أشعر بجسدي يتصلَّبُ، ووجهي يتشنّج، وقلبي يتسارعُ، وصدري ينغلق، وعضلاتي تتوتّر، وعرقٌ...». أنصتَ شانتي دون أن يتدخَّل إلى أن لم أعد أجد ما أضيفُهُ. «فكِّري الآن في كلمة 'امتلاء'. انطقيه ثلاث مرّاتٍ». وبعد فترة تفكير، وصفتُ أحاسيسي: «أشعر بجسدي يصيرُ خفيفاً، كأنه غير موجود، بلا مقاومة، وتنفُّسي بطيء، أسمحُ للنور أن يلجني، أنا سعيدة، مفعمةٌ بالطاقة». واستمتعتُ بذلك الإحساس.

«هل تُدركين قوَّةَ الكلمات وقدرتَها على جعلنا ننتقل من حالة إلى أخرى؟ عندما يتشنّج جسدُكِ، ينبغي لكِ أن تعي ذلك في اللحظة الموالية. عندها ستستطيعين أن تُولِّدي أفكاراً مُحِبَّةً تجاهك وتجاه مُحاوِركِ بغاية استعادة امتلائكِ، مهما يكن سلوكه.

- من الصعب أن نفعل ذلك عندما نكون أمام شخص محدود الفكر يدفعنا إلى أقصى قدراتنا على التحمُّل.

- أكرِّرُ، كلُّ شيء يتعلَّقُ بهدفكِ. إن كان هدفكِ أن تظلي في انسجام بدل أن تكوني على صواب، فإنَّكِ ستُدركين أنَّ الأمر بسيطٌ بساطةَ ما قمنا به للتو».

فكرتُ في الحديث الذي دار بيني وبين مواطنيَّ المعتوهين... كنتُ فعلاً أسعى إلى أن أغيِّرَ نظرتهم إلى الأمور عن طريق فرض نظرتي أنا.

«عندما تغيِّرين حالتك الذهنية، تجلُبُ لكِ طاقتُكِ قوى بنفس المستوى.

- من خلال الفكر فحسب؟

- إنها بداية جيّدة. تسمحُ لكِ جميعُ المصادر المحمَّلة بالحُبِّ أن تلجي إلى تلك المنطقة مباشرة. الموسيقى، والفن، والطبيعة، وحتى الابتسامة. عندما تولَدُ فكرةٌ من رغبة عميقة، تحدُثُ المعجزاتُ. يُشغِّلُ الكونُ كلُّهُ العناصرَ اللازمةَ لتحقيق تلك الإرادة.

- أودُّ حقّاً أن أخرج من مشاعري السلبية، لكنني لستُ قادرة على ذلك. هل تعتقد أن الكون يمكن أن يساعدني؟

- أجل، إن كانت كلماتُكِ صحيحةً ومعبَّر عنها بدقّة، في تواؤم مع نواياكِ ونواي قلبك.

- تمهَّل، إني أحاولُ! 'لا أريد أن أسمح لطاقة الآخرين السيئة أن تمتصَّني بعد الآن'.

- أنصحكِ، من جهة، ألَّا تُشركي شخصاً غيرك كيلا تعتمدي عليه، ومن جهة أخرى، أن تُعبِّري عما ترغبين فيه في الحاضر، كأنَّك حصلتِ عليه فعلاً. يمكنكِ أن تقولي على سبيل التمثيل: 'أنا في حالة ارتياح تام وأنا الوحيدة القادرة على تغيير هذه الحالة'.

- لكن كيف لي أن أعرف أنَّ التعبير جيّدٌ؟

- هذه هي النقطة الأساس الثالثة: عندما تُعبِّرين عن تلك النيّة، خذي الوقت كي تشعري بردود أفعال جسدكِ. إن رافق ذلك شعورٌ بالارتياح، فإن تلك الرغبة ستتحقق. أما إن عجزتِ عن الشعور بالارتياح، فهذا يعني أنَّكِ لستِ في تواؤم مع إرادتكِ العميقة».

أعدتُ التعبير، ثم أنصتُّ إلى ما كان يحدثُ بداخلي. كانت فرحةٌ عارمةٌ تغمر قلبي. استمتعتُ بتلك اللحظة.

«تُحزنني نقطةٌ مع ذلك! أنا لا أنتبه إلى اللحظة التي تصير فيها أفكاري سلبيةً. إنما ألاحظُ حالتي الانفعالية بعد انتهاء الحديث. ماذا تفعل أنتَ كي تنتبه قبل ذلك؟

- أحاول أن أراقبَ نفسي. إنه تمرين ينبغي القيامُ به كلَّ ثانية، يسنحُ لكِ أن تعيشي في وعي عن أفعالكِ. حاولي أن تنظري إلى نفسكِ كأنك بعيدة عن المشهد، بصمت، دون أن تُطلقي أحكاماً على نفسكِ.

- ماذا عليّ أن ألاحظ؟

- كل شيء! قيِّمي حركاتِكِ. أتتكلَّمين بصوتٍ عالٍ أم بهدوء؟ أتشعرين بكلماتٍ طيبة، أم على العكس، بكلمات هجوم، أو دفاع؟ ما قولك عن الطاقة التي تصدر عنك؟ أمرٌ مهم آخر هو أن تتعلمي أن تُنصتي إلى جسدكِ. حاولي أن تتذكَّري الأحاسيس التي شعرتِ بها عنما قمتِ بالتمرين على كلمتيْ 'ألَم' و'امتلاء' ولاحظي قدر الإمكان ما يحرِّكُكِ. ستعرفين حينئذٍ في أيِّ حالة من الحالتين توجدين وسيمكنكِ أن تنغمري في الحالة التي ترغبين فيها بوعي كامل.

- وماذا عن الطبيعيِّ في كل هذا؟ إذا ينبغي عليّ أن أحلل كلَّ ما أقول...

- في البداية، ستُجبرين نفسك على الانتباه، لكن مع الممارسة، ستصبح الأفكار الطيّبة إدماناً، سترين. ستعتبرين كلَّ موقف فرصةً لأن تكبري.

- سأحاولُ الالتزام بذلك.

- إذا كانت هذه إرادتَكِ حقّاً، فينبغي لكِ أن تُعبِّري عن نيَّتِكِ كما شرحتُ لكِ للتو. يمكنكِ أن تقولي: 'منذ الآن، سأصوغ أفكاراً إيجابية وهي الأفكار الوحيدة التي سأُنتِجُها. سأشعر بجسدي منسجماً مع أفكاري'».

ابتسمتُ، وردّدتُ بصوتٍ عالٍ العبارةَ السحرية، فكانت الراحة

فوريّةً. وقبل أن ننطلق من جديد، شددتُ على يد مواطنيَّ راجيةً لهما طريق السلامة، وظهر على ملامح وجهيهما عدم الفهم...

كانت خطوات التسلُّق الأولى في فترة ما بعد الزوال صعبةً. صارت مظاهرُ الحياة من حولنا نادرة مثلها مثل الأوكسجين. ولم يعد من مجال للكلام. تنازل تنوُّعُ الألوان الخريفية عن مكانه للون الوحيد: كانت تدريجاتُ الرماديِّ، الممتدَّة من أسود الطرق الترابية الحجرية إلى أبيض القمم الجبلية، تُعلنُ عن مصاعب العلوِّ. ولنسترجع الألوان، كان علينا أن نُلقيَ أنظارنا إلى الوادي هناك في البعيد. كانت الشلَّالات المتجمِّدةُ، المنحوتةُ في الصخر، تُحجِّرُ صوراً لرجال الثلوج ذوي الملامح المنفِّرة. ظللتُ لمدة ساعتين أجرُّ خطايَ على نحوٍ آليٍّ دون أن أفكّر في خطواتي اللاحقة، غير أنَّ وتيرتي تباطأت إلى درجة أنها كادت تتوقف. كان تجاوزنا للأربعة آلاف متر ضربةً قاضية: أصبح تنفُّسي أليماً، وكانت تنقطع أنفاسي عند بذل أدنى مجهود.

وبينما كنا نرتاح للمرة الألف، إذا بجسدي يتوقف عن العمل. جلستُ. كنتُ قد استنزفتُ كلَّ قواي. مدَّ لي شانتي يدَهُ. توسلتُ إليه: «دعني أمُتْ هنا! لقد دخلتُ للتو رقماً قياسياً في علوِّ حياتي!».

تهاويتُ على الأرض. لم يعد باستطاعتي أن أتقدَّم. جلس شانتي بجانبي، ضاحكاً من سخريتي، وهمسَ في أذني: «لا يزال أمامنا أربعمائة متر، أقترحُ عليكِ أن تُهديها إلى كلِّ مَن ليست له ساقان ليمشيَ بهما، وإلى أولئك المصابين بأمراض تنفُّسية أو عضلية، وإلى أولئك الذين قد يحلمون بأن يكونوا في مكاننا ولا يستطيعون ذلك. ما قولُكِ؟».

التفتُّ نحوه، مندهشة. جاءت كلماتُهُ لتحطّ على قلبي في حين

تجلَّتْ أمامَ عينيَّ صورُ رومان، ثم صورُ صديقين آخرين، سارة، المصابة بالتصلُّب المتعدِّد، وسيريل، المصاب بالشلل على إثر حادث سير. بثّت فيّ كلماتُ شانتي قوَّةً لم أعهدْها. نهضتُ واستأنفتُ السيرَ وأنا أفكِّرُ في كلّ أولئك الأشخاص الذين كنتُ أحبُّهم ووددتُ أن أراهم إلى جانبي في تلك اللحظة. اندفعتُ على ساقيَّ الحرَّتين والصلبتين، وغمر الأوكسجين رئتيَّ، وشجَّعَ دماغي المقاتِلَةَ بداخلي.

بلغنا المعبد بعد ساعة ونحن نرفع صيحةَ الانتصار. شعرتُ بنفسي صغيرةً وكبيرةً في الآن نفسه، وسط القمم الثلاثة عشر العليا للهمالايا! صغيرة وسطَ تلك الجبال الشامخة الطافحة باليقينيات، لكن هائلة لأنني استطعتُ أن أصل إلى هنا. وبينما كنتُ أنصهر في ذلك المشهد الرائع، إذا برجل في الأربعين من العمر يخرج من المبنى الرئيس وينتصبُ أمامنا ببضع خطوات سريعة. عرَّفني بنفسه: «جيسون باركر. أفترضُ أنَّكِ ماييل؟».

خيار واحد: بابان اثنان

«ابدأ بأن تُغيِّر في نفسكَ
ما تريد أن تُغيِّرَهُ فيما حولَكَ».
غاندي

كانت لكنةُ جيسون الأمريكية مختلفةً عن لكنة صديقي النيبالي التي كنتُ اعتدتُ عليها. عانقَ شانتي عناقاً طويلاً، ونظر الرجلان أحدهما إلى الآخر لحظةً. سألهُ شانتي كيف تسير أعمالُهُ.

«النتائج مبشِّرةٌ، وقد التحق بي صديقٌ ليساعدني. سأشرح لكَ الأمر بالتفصيل.

- ألم تحضر إلى هنا من أجل أمر مستعجل؟ سألتُهُ بقلق.

- أجل، أنفلونزا قوية تستدعي المراقبة، لكن اتضح في الأخير أنه ليس شيئاً خطيراً».

تنهَّدتُ. كان في إمكانه أن يظلَّ في كتماندو ويُجنِّبني كلَّ هذا الطريق! عاودني القلقُ.

«أيُّ أنواع من الأعمال تقوم بها إذاً؟

- لقد لجأ ملايين التبتيين إلى النيبال على إثر صراعات حدودية مختلفة. وأدَّى التوتّر إلى ظهور أمراض خطيرة من قبيل السرطان

وغيره. ونحن مقتنعون أنَّ الخوف هو أحد الأسباب الرئيسة، ونحاول أن نُقيمَ نظاماً للشفاء عن طريق تغيير الحالة النفسية بفعل التأثير العكسي. لاحظنا أننا عندما نُعلِّمُ المرضى كيف يُحوِّلون أفكارهم وأفعالَهم، فإنَّ دفاعاتهم المناعية ترتفع بشكل لافت».

فضّلتُ أن أصمتَ كيلا أجرحهُ، لكن بدرت مني ابتسامةٌ ساخرة لم تُفلت منه. «أنا باحثٌ متشكِّكٌ وعقلانيٌّ، لكن ينبغي أن أعترف أنَّ للطِّبِّ حدوده التي يجب أن نلتف عليها بفرضيات أقل عقلانية. وقد تبدو هذه الأخيرة غريبة، لكن بإمكانها أن تؤدِّيَ إلى نتائج مكمِّلة، بل أفضل حتى».

بقيتُ متشكِّكة. بدا لي كلُّ ذلك غريباً بعض الشيء. قد أقبلُ أن يكون التداوي بالأعشاب كافياً لمعالجة بعض الأمراض البسيطة، لكن الأمر مختلف عندما يتعلق الأمر بالأمراض الخطيرة. كنتُ أرى من الخطورة بمكان أن يودَعَ مرضى مصابون بأمراض يمكن أن تتطور بسرعة بين أيدي أشخاص طوباويين. وكنتُ مطمئنَّةً إلى أنَّ رومان لن تسقط في فخ تلك الطُّرق المشبوهة التي لا تصلح إلا لتضييع وقت المثاليين. بيد أنَّ صديقتي كانت فعلاً واحدةً من هؤلاء!

«هل تعلم لماذا صعدتُ إلى غاية هذا المكان؟ هل لديكَ الكتاب الذي ينبغي أن تُسلِّمه لي؟

- طبعاً، سأسلِّمكِ إيّاه عند العشاء، لكني أقترحُ عليكِ أن تستريحي في انتظار ذلك. ستَدُلُّكِ ميريا على غرفتكِ».

لحقت به امرأةٌ واقتربت مني. كانت عيناها الضيقتان تُصدِران نوراً كثيفاً يزيد من لطافتها.

كانت الريحُ الجليديةُ تلسعُنا، وكانت درجاتُ الحرارة تقترب من خمسة عشر تحت الصفر، في حين لا تزال الشمسُ مرتفعةً. كان

العلوُّ يزيد من هشاشة تنفُّسي، غير أنَّ جمال المنظر كان يُعوِّضُ تلك المضايقات: على علوٍّ يفوق الأربعة آلاف متر، كانت تحيطُ بنا قممٌ تتجاوزنا بثلاثة آلاف متر. أدركتُ أن الأمر كأنني فوق قمة المون بلان وأنَّ جبالاً تحفُّ بنا بعلوٍّ يكاد يماثل ذلك العلوّ.

أخذتني ميريا من يدي مثل أُمٍّ وقادتني إلى حرارة المبنى، إلى غرفتي، حيث كانت أمتعتي تنتظرني. حجرة صغيرة بسيطة تُقدِّمُ رؤية بانورامية على المعبد. وقفتُ لحظاتٍ خلف النافذة أتأمَّلُ الجبالَ ثم لحقتُ بميريا في القاعة المشتركة لأتدفَّأ. كان موقدُ الخشب يُلطِّفُ درجات الحرارة السائدة في المبنى.

كانت مجموعاتٌ من ثلاثة أو أربعة أشخاص جالسين على مقاعد خشبية تحيطُ بطاولات كبيرة مرتَّبة على شكل هلال حول فرن هائل. جاءت ميريا تستقبلني عند عتبة الباب وأجلستني قرب الصفيحة الملتهبة وهي تفركُ ظهري. اجتاحت رعشةٌ جسدي، واصطكت أسناني. قدّمت لي فنجان شاي ظللتُ أمرِّرُهُ من يد إلى أخرى. وضعتُ شفتيَّ الأرجوانيتين على حافة الفنجان ورشفتُ من المشروب المغليِّ، وكانت تكفينا الإشاراتُ للتواصل فيما بيننا، مثلما كان حالي مع نيشال.

اقتربتْ منا امرأةٌ هندية. كانت ترتدي سترةً حمراء مطرَّزة بخيوط مذهَّبة فوق سروال جينز ضيِّق يُبرزُ مفاتنَها. كانت عيناها السوداوان، المزيَّنتان بالكحل في خطوط ممدودة وسميكة، تخترقُ وجهها المدوَّر. سألتْني بإنجليزية ممتازة إن كنتُ أتيتُ من أجل اكتشاف نتائج جيسون. «كلا، عمَّ تتحدثين؟».

تجاذبتْ بضعَ كلمات بالتبتية مع ميريا. أأكون وقعتُ في فخٍّ؟ كنت تائهةً في الهيمالايا على ارتفاع أربعة آلاف متر رفقةَ حمقى

مهووسين بتجارب مشبوهة، ولم أحصل بعد على مخطوط رومان. . . كان شانتي قد أكَّدَ لي أنَّ السلطات النيبالية تُفتِّشُ عن اللاجئين السِّرِّيين، لكن ألم تكن تلك السلطات تُطاردُ هذه العلاجات غير الشرعية؟

قدَّمتْ لي المرأةُ الشابَّةُ، أياتي، نفسَها. «شرحتْ لي ميريا سببَ مجيئكِ. صديقتُك جِدُّ محظوظة بكِ. أقطُنُ في قرية صغيرة في جنوب الهند، قربَ ثنجفور. وأنتِ؟».

ظللتُ حذرةً. كانت كلُّ الظروف مجتمعةً لتجعلني أهرب، لكن لطفَها أوحى لي بالثقة. نظرتُ من حولي، حيث كان الهدوءُ سائداً والجوُّ ودِّيّاً. قدمَّتُ نفسي بدوري.

«تبدين قلقة.

- أشعر بالفعل أنني غير منسجمة مع ما يحيطُ بي. هذه الأبحاث الغريبة. . . أتساءل إن كان كلُّ هذا شرعيّاً!».

راحتْ أياتي تضحكُ، ووجدتُ سلوكَها غير لائق وحرصتُ على أن أُوصل لها رأيي بنظرة سوداء رميتُها بها. استرجعت زمام نفسها واعتذرت مني والبسمةُ لا تزال عالقةً على شفتيها. «الأبحاث التي يقوم بها جيسون شرعيةٌ، بل غاية في الشرعية. إنَّ الدولة نفسها تموِّلُ قسماً من هذا المشروع، وأنا نفسي باحثةٌ في دلهي. اقترح عليَّ جيسون أنْ ألحق به هنا ليُطلعني على النتائج المدهشة التي حصلَ عليها. توصّل إلى أنَّ كوننا في ترابط مع ما يحيطُ بنا قد يُغيِّرَ سلوكَ خلايانا ويطلق هرمونات يُفرزُها الدماغُ، مسؤولة عن رفاهيتنا. باختصار، لقد حدَّدَ حالتَين ممكنتَين في حياتنا اليومية: حالة الخوف وحالة الحُبّ. الخوف هو حالة عماءٍ وآليةٍ، في حين أن الحبَّ هو حالة وعيٍ، ولانهاية، وترابط. الحبُّ لا يتجسّد إلا في الحاضر،

ولديه كلُّ شيء ليقدِّمه. أما الخوف فيحكُمُهُ الماضي أو استباقُ نقص في المستقبل: الخوف ليس بشيء، ليس إلا اختراع للذهن». ولم يكن بوسعي إلا أن أؤكِّدَ هذه الحقيقة بعد ما عشتُهُ من تجارب في الأيام الماضية.

«وهو يتعمَّقُ في أبحاثه، أدرك جيسون أنَّ الانغماس في حالة الحُبّ يسمحُ بالتخلُّص من الطاقات المحبوسة التي هي أصل معظم الأمراض. هو يُؤوي في الطابق العُلويِّ، منذ عدة سنوات، حوالي خمسين من التبتيين. إنهم لاجئون هربوا من التبت، مرعوبون من الصينيين.

- لكن، ألم يكن نفيُ التبتيين في سنوات 1950 أو 1960؟

- أجل، بدأ ذلك سنة 1950 عندما هجمَ جيش التحرير الشعبي على القوات التبتية. ثار السكان والمعابدُ، لكن ضغطَ السياسات المعادية للدين دفعتِ التبتيين إلى الرحيل. ومنذ ذلك الوقت، وصل إلى الهند عشراتُ الآلاف من اللاجئين عام 1959، معظمُهم من الفلاحين والرعاة. وعلى الرغم من أنهم اعتُبروا من قِبَل الهنود قادرين على العمل في المرتفعات، إلا أنَّ عدداً مهمّاً منهم ماتوا، ضحايا الأمراض أو انهيارات الصخور.

- وماذا عن فتح الحدود عام 1980؟

- لقد سمح ذلك للتبتيين بالذهاب إلى الهند لزيارة عائلاتهم أو لاكتشاف الأماكن المقدَّسة للبوذية، وبعضُهم استقرَّ ولم يعد. وبعد تنحية هو ياوبانغ[1]، زاد تدهورُ الوضع في التبت من كثافة الهجرة. وإلى يومنا هذا، لا يزال يعبر الهيمالايا كلَّ عام ما بين ألفين وثلاثة

(1) الأمين العام للحزب الشيوعي الصيني من 1980 إلى 1987 - المؤلِّفة.

آلاف لاجئ، طالبين اللجوء هنا أو في الهند. ثلثُهم من الأطفال غير المرافَقين، وتذكُر العديدُ من التقارير أنَّ عدداً من التبتيين يهلكون في أثناء رحلتهم.

- لكن ما علاقة ذلك بأعمال جيسون؟

- أولئك الذين كُتِب لهم البقاء على قيد الحياة ينخرهم الخوفُ. وتبلغ نسبة الأشخاص المصابين بمشاكل صحية خطيرة نسباً مهمة. اقترح جيسون على بعضهم حصصَ تفكير تسمحُ بالتحرُّر من قلقهم لينتقلوا إلى ما يسمِّيه 'حالة الثقة'، فلاحظَ أنَّ ذلك أدّى إلى تقوية نظام المناعة لديهم.

- وهل يجدي الأمرُ نفعاً حقّاً؟

- أجل، النتائج مدهشة: تختفي المشاكلُ البسيطةُ بسرعة. أما عن الحالات الخطيرة، فقد استعاد شخصٌ من كل اثنين حياةً عاديةً، ويشعرُ الثلثُ بالتحسَّن ويواصلُ الطريقةَ، ويواصلُ البقيَّةُ مقاومةَ المرض ويبحث عن الطريق. وتستند حصصُ العمل على المبدأ القائل إنَّ حالة الثقة وحدها تستطيع أن تشفينا. نحن نعيش في خوف دائم، محبوسين داخل عاداتنا المحكومة بماضينا، وأولى المراحل التمهيدية لعملية التحوُّل هي تحقيق الوعي بهذا العماء. إنها تتمثل في أن نُدركَ أنه لدينا الخيار أن نكون إما تابعين لمعتقداتنا الآلية أو في حالة الثقة».

كنتُ أرغبُ في أن أعرف المزيد، فالأيام الأخيرة كانت قد قلبتْ نظامَ تفكيري رأساً على عقب. فعندما فتحتُ عينيَّ على الخيار الذي ينبغي اتخاذه بين تينك الحالتين في أول مساء التقيتُ فيه شانتي، قررتُ أن أتبعهُ وأن أُنصِتَ إلى قلبي بدل مخاوفي. ومن خلال أعمال جيسون، بدا كأنَّ أياتي تؤكّد ما كنتُ أشعرُ به. كان

عليها أن تلتحق بأحد زملائها، لكنها اقترحتْ عليَّ أن نطَّلِعَ على العناصر التي أرسلها لها جيسون. غابتْ فترة قصيرةً وعادتْ حاملةً حزمة أوراق مشبوكة، من خمسين صفحة تقريباً. شكرتُها وجلستُ إلى الطاولة، وانغمستُ في القراءة ودوَّنتُ بعضَ النقاط.

كان القسمُ الأول يتحدَّثُ عمَّا كانت مايا قد علَّمتْني إياهُ عند وصولي. وكان شانتي قد ألحَّ على هذا الموضوع أيضاً: أن أنظر إلى الحياة بعين جديدة، مثل طفل يكتشف العالم. ينبغي الانفتاح على ما يرغبُ فيه قلبُنا، بدل التصرف وفق معتقدات آلية يقودُها الخوفُ. كان جيسون يُسمِّي ذلك «معتقدات تلقائية» - في مقابل «حالة الثقة» - وهي تستند على قوانين كونية غير قابلة للتفسير، لكنها يمكن أن تُختبَر في كل لحظة.

يقتضي المنطق أننا إذا ما أعطينا شيئاً لشخص على سبيل المثال، يربطُ المعتقدُ الآلي ذلك بالخوف من النقص، لأننا عندما نُعطي، نفتقر. وبذلك نتقاسمُ أقلَّ ما يمكن أن نتقاسمه مع الآخرين، ونُراكِمُ أشياء لا فائدة منها بدل أن نُفيدَ بها الآخرين. وينطبق هذا المعتقدُ على الماديِّ مثلما ينطبق على غير الملموس: فالتفاهاتُ التي نَضيعُ فيها تُغذِّي وَهْمَ افتقارنا إلى الوقت، بيد أننا، باحتفاظنا بما نملكُ، فإننا نحصُرُ أنفسَنا فيما لدينا، ونقطعُ انتقال الطاقات.

استوقفتني هذه العناصرُ، فتوقفتُ عن القراءة لأفكِّر. كان قبو بيتي مليئاً بأشياء غير مفيدة؛ وكانت دواليبي تفيضُ بالثياب، لم أكن أرتدي منها أكثر من الربع؛ وكان العملُ يشغلُ معظمَ أسابيعي، وأغتنمُ اللحظات القليلة التي تَفْضُلُ لي لأسترخيَ في قاعة رياضة. صحيح أنني لم أكن أُخصِّص سوى القليل من الوقت للآخرين، غير أنَّ أيامي كانت قصيرة ولا تسمحُ بأن أفعل غير ذلك!

استأنفتُ قراءتي. يُغذّي المعتقَدُ الآلي مخاوفَ جديدة من أن نفقد ما نمتلكُه، وألّا نكون راضين أبداً، وأن نصير حسودين إزاء ما يملكُهُ الجارُ أكثر منّا. أما حالة الثقة، على العكس من ذلك، فتؤكّدُ أنه كلما زاد عطاؤنا، ازدادت حياتُنا ثراءً، فسعادة الهِبَةِ ليس لها ما يُعادلُها. لا يمكن للحب أن يُحرمنا، فهو يتضاعفُ، ولا ينقسمُ أبداً. عندما نشارك وقتَنا، أو بسمةً، أو مالاً، فإننا نتوصَّلُ إلى منبع الكون الذي لا ينضب. ترتكزُ حالةُ الثقة على الوفرة إذاً، وتنبع منا، في حين يرتكز المعتقَدُ الآلي على الخوف من النقص ويتغذّى على بقايا خارجية.

أدركتُ أنني، نوعاً ما، أمام بابين. وكان لديَّ الخيار بين أن أدفع أحدَ البابين أو الآخر في كل لحظة. إما أن أعبر البابَ الذي يسمحُ بالولوج إلى الحُبِّ، أو أن أعبر ذلك الذي يحبسني في مرآة الخوف.

انتقلتْ ميريا من طاولة إلى أخرى، حاملة إناء حافظاً للحرارة، وملأت الفناجين الفارغة. ابتسمتُ لها، فداعبتْ خدِّي، ثم رفعتْ إبهامَها لتسألني إن كان كلُّ شيء على ما يُرام. أجبتُها بإشارة من رأسي وأمسكتُ يدَها لأشكرها. ابتعدتْ بضعة أمتار لتخدمَ المجموعةَ الصغيرةَ الجالسة في الجهة الأخرى. واصلتُ قراءتي.

شرح جيسون أننا، إلى أن نعِي ذلك، نعملُ بشكل آليٍّ، بحيث يقودُنا الأنا الذي يسيطر علينا. ويصيرُ من المستحيل علينا أن ندرك أنَّ البابَ الثاني موجود، لأن هيمنةَ الأنا تجعلُ الفرضيةَ الوحيدة هي الفردانية.

شعرتُ بالارتباك عند قراءتي هذه الفكرة الأخيرة، ووضَّحَتْ لي البقيّةُ الأمرَ، لكن كان عليَّ أن أفهم طريقة عمل الأنا قبل كل شيء.

أكّد جيسون أنَّ هذا الأخير يحافظُ على هويَّته بادِّعائه أنَّ العالم خطيرٌ، وأنّ بقاءنا على قيد الحياة هو بفضل حمايته. ولذلك، هو يضعُ قواعدَهُ الخاصة وآلياتِهِ في الدفاع والهجوم ويحبسُنا في الخوف. وكلما أكثرَ من خلق النقص في حياتنا اليومية، توافرت لديه حججٌ أكثر ليحبسنا في الوهم. يسجننا ويخنقنا في وسطٍ ضيِّق. وتتكاثرُ الأفكارُ السلبيةُ، التي تتغذّى على جنون الارتياب من واقعنا المشوّه. سلاحُ الأنا ثابتٌ لا يتزحزح: الآخر هو المشكلة! فبطرح نفسه باعتباره ضحيّة، يُلقي الأنا مسؤولية الخطأ على أول شخص يمرُّ: «إذا ما كنتُ تعيساً، فهي السبب»؛ «قبل أن ألتقي بها، وقبل أن تقول لي كذا، أو تتصرّف بتلك الطريقة، كان كلُّ شيء على ما يُرام...».

يوطِّدُ الأنا موقعَهُ: إنما أحمي نفسي بسبب أحداث خارجية، وليست هجوماتي سوى ردِّ فعل على هجومات الآخرين. يتميَّزُ دفاعُهُ بنقد الآخرين وإدانتهم ليبرِّر ألَّا من سبب يدعونا لنكون في الحُبّ، إلا إنْ تعلَّق الأمرُ بشخص يخدمُ مصالحه. والطريقة الوحيدةُ لدخول دائرة أصدقائه هي أن تمنحه شيئاً، وإلا فإنه يُقصيكَ. هو يُطلق الأحكام، ويوبِّخُ، ويتلاعبُ بالمشاعر. يُحدِّدُ إن كان الآخر جديراً بالحب أو لا. ويجازي الآخرَ بتقديره إن كان يستجيب لمعاييره في الحفاظ على نفسه، وإلا فإنه يعاقبُهُ بسحب تقديره له. إنَّ الحبَّ غير المشروط يُعتبَر تهديداً بالنسبة إلى الأنا لأنَّ هذه الحالة تتسبّب باختفائه. لذلك فإنه يُخضِعُ، ويفرّقُ، ويُنوِّم ليتأكَّدَ أننا لن نستطيع الوصولَ إلى الباب الثاني الذي سيحكم عليه بالموت.

كنتُ واعيةً بآليات الدفاع لديَّ، لكنني لم أكن أعي بوجود خيار آخر. لم أكن أرى باباً آخر ينفتح أمامي. شرحتْ ملاحظات جيسون

أنَّ الباب الثاني يُقدِّمُ عالماً مناقضاً للأول. وتنطلق هذه الملاحظات من فرضية أنّ السعادة لا يمكن الوصول إليها إلا في فهم الترابط المتبادل فيما بيننا. فنحن لدينا انطباع أننا مفصولون، إلّا أننا في الواقع كُلٌّ لا يتجزأ.

وجدتُ صعوبةً في فهم هذا الخيار المتاح. تخيّلتُ البابين، باب الخوف وباب الحُبّ، لكنني لم أُدركْ بوضوح ما الذي يعنيه هذا الأخير. وأدهشتني بقيةُ المخطوط. كان جيسون يُلِحُّ على أنَّ تحقيق الوعي ليس بالأمر البسيط، لأننا نعيش تحت سيطرة الأنا منذ ولادتنا. فإذا ما بدأنا نرى أنَّ الحقيقة موجودة في مكان آخر، فإنَّ ذلك يعني أننا نَقبلُ بأنَّ الأنا إنما هو وهمٌ فحسب. وهذا يعني أن نسير عكس اتجاه الحفاظ عليه. فكيف يمكن له أن يقبل بذلك من دون مقاومة؟ إنَّ الأنا لا يحكمُ إلا وفق ذاته ووفق ما يخدمه. هو يُبقينا في حالة فزع تُلزمنا بألَّا نرى سوى باب واحد. ذلك أننا إن سلَّمنا بذلك، فإننا نأخذ الانكفاءَ اللازمَ لرؤية الباب الثاني.

يتمثل الباب الثاني في إدراك أنَّ خلف أعداد الوجوه اللاّنهائية فوق الأرض، توجد وحدةٌ موحَّدةٌ. إننا نستجيبُ جميعاً بكيفية متماثلة، بإراداتٍ، ومخاوف، وحاجات متطابقة، حتى وإن بدا الشكلُ مختلفاً. ينبغي لنا، من أجل رؤية الخيار المتاح أمامنا، أن نخلع نظارات الأنا الموضوعة على أعيننا لننتبه إلى أننا لسنا في الحقيقةِ، وإنما في الرؤيةِ التي يريد الأنا أن يُرينا إيّاها.

كانت المرحلةُ التمهيدية لعملية التحوُّل تتمثل في إدراك أن لدينا خيارَين. من الممكن أن نعِيَ ردود أفعالنا الآلية التي تُترجَمُ بالدفاع، وبالإحساس بالذنب، والوهم، والغضب، والصراع، والمعارضة، والحزن، والانفصال، والفردانية، والتفوق، والدونية، وثقل

الماضي، والخوف من المستقبل، والنقص، وحتى بالمرض، لنختار العيش بشكل مختلف عبر نافذة حالة الثقة، والوحدة، والامتلاء، واللحظة الحقيقية الوحيدة التي هي الحاضر، وعبر صلاح سلوكاتنا وكلماتنا وجميع مواقفنا التي يرشدُها القلبُ.

في نهاية نَصِّهِ، نصح جيسون بإجراء تمرينٍ ليُغيِّرَ المرءُ عاداته:

«في الساعات الأربع وعشرين المقبلة، ركِّز على الأفكار الآتية:

1) راقِبْ أفكارَكَ، ونواياكَ، وتمنياتكَ، وحاوِلْ أن تتأكَّد إن كانت من القلب أو من الأنا.

2) امنح الآخرين ما تريدُ أن تحصلَ عليه: ابتسامات، وأفكاراً لطيفةً، ووقتاً، وإنصاتاً، وتفهُّماً، وشارك الآخرين ما تُحبُّ.

3) لاحِظْ أنَّ كلَّ ما تمنحُهُ للآخر، إنما تمنحه لنفسكَ، لأننا مترابطون».

شغلَني هذا الكشفُ، فلم أسمع جيسون يقتربُ مني. رأى الأوراقَ أمامي وسألني عن رأيي، فاعترفتُ له بكل صدق بحيرتي وقدّمتُ له تحليلي بإيجاز.

«أنتَ تشرحُ أننا نتصرّفُ بشكل آليٍّ، بقيادة الأنا الذي يتحكّم بنا. وهذا هو الحالُ في معظم الأحيان. وقد أدركتُ في الأيام الأخيرة أنني كنتُ أحبسُ نفسي داخل سجني الخاص أمام انفعالات مثل الغضب أو الحزن على سبيل المثال. فهمتُ الآن أنني كنتُ أتصرَّفُ عبر مصفاة الأنا الذي يحبسُني داخل معتقداتي، مُلقِياً اللوم على الآخر.

- هذا صحيح، فالأنا لا يصمد إلا داخل وهم أنه كيانٌ منفصلٌ عن البقيّة.

- فهمتُ أنني أدفع دائماً البابَ نفسَهُ، بابَ الخوف. أنتَ تشرحُ أنَّ لديَّ الخيارَ في أن أخرجَ منه وأن أدخل عبر الباب الثاني الذي سينفتحُ أمامي إذا ما قبلتُ بفرضية الترابط، أي ما تُسمِّيه حالة الحب أو الثقة!

- ينبغي لنا، للوصول إليه، أن نتخلّى عن معتقد الانفصال. نحن لا نُشكِّلُ سوى كيانٍ واحد موحَّد مع كلِّ ما يُحيطُ بنا.

- ما الذي تقصدُهُ بهذا الكلام؟ أنا مختلفة جسديّاً عنكَ، وعن الجبال، والأشجار، والحجارة، والطاولة، والأشخاص... أنا فريدةٌ ومنفصلة عنكَ.

- هل أنتِ واثقة من ذلك؟ يمنحُنا العلمُ إضاءة مهمةً حول هذا الموضوع. يتكوَّنُ جسدُنا من عشرة آلاف مليار من الخلايا التي يختلف بعضُها عن بعض وتجتمع لتُشكِّلَ أنسجتَنا وأعضاءنا. الخليَّةُ هي مجموعة من الجُزيئات، والتي هي بدورها مجموعة من الذرّات المترابطة في ترتيب محدَّد. أتعلمين ما هي الذرة؟ إنها تتشكَّلُ من نواة موجبَة الشحنة، يدور حولَها إلكترونات سلبية الشحنة. وهنا يصبح الأمرُ مثيراً للاهتمام. مكَّنتْ أدواتٌ أكثر وأكثر دقةً من أن تُحدِّد أنَّ النواة أصغر مائة ألف مرة من الذرة كاملةً، فيمكننا أن نستنتج أنَّ الذرة تتشكَّلُ من فراغ بنسبة 99,99 في المائة.

- هل هذا يعني أنَّ الذرّةَ هي عبارة عن طاقة مجهريّة مكوَّنة من الفراغ مائة في المائة تقريباً؟ لكن، أليست المادةُ مصنوعة من الذرّات؟

- بلى، بالفعل، مثلها مثل كلِّ شيء حيٍّ أو جامد موجود في

الكون. إنَّ المسافة الفاصلة بين ذرَّتين هائلةٌ، فهي نسبيّاً أكبر من المسافة التي تفصل بين الأرض والشمس. تبدو المادةُ، في سلَّم رؤيتنا، صلبةً، لكن في سُلَّم المجهر، ليست سوى كتلة مركَّزة من الطاقة مكوَّنة من الفراغ».

فكرتُ لحظةً فيما كان يحيطُ بي. وجدتُ صعوبةً في تخيّل الطاولة باعتبارها فراغاً. أما عن جسدي، فالأمرُ كان مستحيلاً! إن كنتُ فهمتُ برهنةَ جيسون، فهذا يعني أننا لسنا سوى كتلة ذبذبيَّة كبيرة. ومن ثَمَّ، فإننا فعلاً مرتبطون جميعاً بعضنا ببعض.

«الأمر الوحيد الذي يمكن أن نؤكِّدَهُ فيما يخصُّ المادة، هو أنها ضربٌ من الجزء المركَّز من المعلومات والأفكار.

- المعادلة الشهيرة $E=mc^2$؟

- أجل. كان أينشتاين أول من بيَّنَ أنَّ الطاقة الدائمةَ الذبذبةِ هي ضوءٌ مركَّزٌ. وأكَّدت الفيزياءُ الحديثةُ هذه البرهنة، فالجسد، مثله مثل الأفكار والعواطف، ليس سوى ذبذباتٍ خالصة. إن عدم وعينا لأهمية هذه القوة يسمح بانفلات أفكار سلبية يكون لها آثار كارثية علينا جميعاً. وهكذا تنبَّهتُ، متسلِّحاً بهذه الدراسات، إلى أنَّ المرض يمكن أن يُعتبَر ذبذبة غير متناغمة، قابلة لأن تُحوَّلَ بواسطة تغيير في الفكر. الطاقةُ لا تختفي، بل هي في تحوُّلٍ دائم. وكلُّ واحد منّا لديه القدرة على تغيير حاله. كلُّ ما نُصدِرُهُ، نتلقَّاهُ في المقابل.

- بواسطة الفكر؟

- تماماً! نحن نجلُبُ ما نحنُ عليه. يكفينا، لكي نتطوَّر في حقلٍ ذبذبيٍّ أعلى، أن نرفَعَ قناعاتنا، وهي المرحلة التمهيدية الثانية لعملية التحوُّل. والجسد مؤشِّرٌ ثمينٌ على الحالة التي نوجد فيها.

كيف تشعرين في هذه اللحظة؟ في مزاج جيد، خفيفة، أو على العكس هشة، مُتعَبة؟».

كنتُ متوتِّرة، لكنني أكَّدتُ له أن كلَّ شيء على ما يُرام. عبس جيسون ليُشير إلى أنه لم يكن غافلاً عن حقيقة وضعي، فتنهَّدتُ واعترفتُ له بارتباكي.

«أجد صعوبةً في تصديق كلِّ تلك الظواهر، فلستُ مولعةً بهذه الممارسات الجديدة، ثم إنَّ كلَّ هذا شديد التعقيد!

- أنا أيضاً أحبُّ أن يكون لديَّ الدليل، لذا أقترحُ عليكِ أن تحاولي. إنَّ سِرَّ الشفاء لا يكمن في الإقرار به، بل في عيشه.

- أنا لستُ مريضةً!

- كلَّا، أرجو ذلك! لكن ألم تشعري أبداً ببعض التشنّج في حضور أشخاص معيَّنين، أو على العكس، بفائض من القوة مع أشخاص آخرين؟».

فكرتُ في الغداء من جديد، وفي ما انتابني من إرهاق جراء المحادثة، وحكيتُ له ذلك.

«يمكنكِ تغيير الحالة الذبذبيّة والخروج من تلك الطاقات المتدنيّة لتلتحقي بتردُّدٍ أسمى وتتجدَّدي. إنها الطريقة المثلى لاكتساب مناعة ضد الباكتيريا والفيروسات. ولترفعي من تردُّداتكِ الذبذبيّة، ينبغي أن تكوني واعية بحالتك الذهنية، وبذلك يمكنكِ أن تقيسي ما تُصدرينه من موجات. ويناسبُ تردُّدُ الذبذبات لديك حالَتَكِ النفسيّةَ في لحظة محدَّدة، فكلما ازدادتِ انسجاماً مع ذاتكِ، وارتباطاً بالآخر، ازداد الحبُّ الذي تُنتجينه قوةً، وارتفع تردُّد الذبذبات لديكِ. وهو يُصبح في أعلى مستوياتها عندما تصلين إلى

الانصهار مع الوحدة. في تلك اللحظة يكون كلُّ شيء ممكناً. تدخلين حينئذٍ حقل الممكنات غير المحدود».

شعرتُ أنني لم أعد قادرة على مجاراته! فطلب مني جيسون أن أقيس حالتي النفسيّة على سلَّم من واحد إلى عشرة، إبّان ذلك الغداء.

«حالةُ امتلائي كانت قريبة من الصفر!

- هل يمكنكِ أن تُقيِّمي، على هذا السُّلَّم نفسه، مستوى الحبِّ الذي كنتِ تُصدرينه تجاه محاوريْكِ في أثناء تلك المحادثة؟

- لم أكن أصدر أدنى عاطفة، بل كنتُ أودُّ أن أخنقهما! لذلك أقدِّر مستوى الحب بأنه صفر، هذا أكيد!

- أقترحُ عليكِ الآن أن تأخذي ثلاثة أنفاساً عميقة وأن تنسي تلك الحادثة وتعودي إلى اللحظة الراهنة».

أخذتُ نَفَساً كبيراً من الهواء، ثم زفرتُهُ ببطء ثلاث مرات متتالية.

«بِمَ تشعرين؟

- أشعر أني قلقة بعض الشيء جرّاء كل هذه التغييرات. أظن أن المستوى هو حوالي خمسة أو ستة على عشرة الآن.

- وماذا عن كميّة التعاطف الذي تُصدرينه نحوي؟».

كنتُ محرجة. كان جيسون يفعل كلّ ما في وسعه لأجد طريقي، لكنني ظللتُ في وضعية الدفاع. ألحَّ عليَّ أن أكون صادقةً. «حوالي خمسة، ربما ستة». شكرني على صراحتي ولم يبدُ عليه التأثُّرُ بما صدر مني. «الأمرُ الأول الذي يمكنكِ ملاحظتُهُ هو أنَّ الحبَّ الذي تُصدرينه مرتبطٌ بحالتك النفسيّة. فعندما لا تشعرين

بالراحة مع شخصٍ ما، يكون مستوى الذبذبات المتعاطفة التي ترسلينها إليه متدنِّياً. ولكي تصلي إلى ذلك الفضاء غير المحدود، ينبغي لكِ أن ترفعي من طاقتِكِ. إنها الدرجةُ الأعلى في السُّلَّم، وتكفي ثانيةٌ واحدةٌ للوصول إليها! الماضي ولَّى ولم يعد لدينا تأثيرٌ فيه. لكن في المقابل، يسمح لنا الحاضرُ بأن نفعل بشكل آنيٍّ. يكفي أن نكون واعين بحالتنا الذبذبيّة وبالموجات التي نُصدِرُها».

بالنسبة إليَّ، كانوا جميعُهم يتكلَّمون بالطريقة نفسها، كأنهم طائفة دينية! غير أنَّ فضولي كان قد أثير من جديد. تساءلتُ ماذا عليّ أن أفعل. أخبرني جيسون أنَّ الأمر سيكون أبسط في البداية إذا كانت الظروف مناسبة. ارتدينا سترتينا وخرجنا إلى الساحة الكبيرة حيث كنا قد وصلنا. كانت الشمسُ تهمُّ بالغروب. انحبستْ أنفاسي أمام جمال المكان: كان الضوءُ الوحيد يُرسِلُ من جبلٍ إلى آخر انعكاسات ذهبية ثم برتقالية. تابعتُ بعينيَّ الأشعة التي كانت تنعكس على المرايا المجمَّدة في ثلاثمائة وستين درجة. كانت درجات الحرارة قد هوَتْ بعشر درجات على الأقل في ساعتين. سحرَتنا الرؤية الاستثنائية على معبد أنابورنا لدرجة أنها نسّتني التمرين الذي كنتُ بصدده. كنتُ مبهورة. أخذ المنظر الرائع قلبي رهينة، فراح يدقُّ بقوة غريبة.

«هل يمكنكِ أن تُحدِّدي موقعكِ على سُلَّمنا الافتراضيِّ؟

- قريب من عشرة! إني أتوحَّدُ مع ما أرى.

- هل تشعرين أن تردُّدَكِ الذبذبيَّ قد تغيَّر؟

- أجل، أنا سعيدة، وتصدرُ عنّي طاقةٌ مذهلة.

- عندما نوقفُ الذهنَ، تختفي المعتقداتُ التلقائية، بحيث لا

تترك مكاناً إلا لحقيقة اللحظة. كلُّ شيء يصبح واعياً: الفضاء بين الكلمات، والصمتُ بين الأصوات، والضوء في الظلام... نتوغَّلُ داخلَ ذبذبة القلب، لننصهر في الإحساس الحقيقي الوحيد: الحبّ. ومن هذه الحالة يمكنكِ أن تصنعي كلَّ ما تتمنّيه، بارتقائكِ إلى بُعدٍ أسمى: بُعد حقل الممكنات».

كنتُ أشعرُ بذلك التذبذب الاستثنائي. انتابني الشعورُ بالوحدة مع الطبيعة نفسُهُ إبان تجربتي مع شانتي في العيون الساخنة.

«عندما تبلغين هذا التردُّدَ الذبذبيَّ، تكتسي الأفكارُ الصادرةُ عن قلبكِ صدى شديد القوة بحيث تتحقَّقُ إرادتُكِ بواسطة الذكاء الكونيِّ، ذلك المكان الموحَّد وغير المحدود فيما وراء المظاهر».

لم أفهم ما كان جيسون يحاول أن يقوله لي، لكني شعرتُ بفرحة عارمة، بأمر يتجاوزني. كنتُ بحاجة إلى الصمت، كنتُ أرغبُ في أن أعيش هذه الهدية الفريدةَ التي أهدتْني إياها الحياةُ.

أنهت الشمسُ مسارَها خلف الأنابورنا. وعندما التفتُّ بضعَ دقائق بعد ذلك، رأيتُ أنَّ جيسون كان قد انسحبَ بصمت. لم أجرؤ على مغادرة ذلك السِّحر، في قلب الساحات قبالة الامتداد اللامتناهي. شرعتُ أقفزُ لأتدفَّأَ وأنا أستمتع بذلك الاتصال مع العلوِّ، والجديد، والمرة الأولى، والبرد، والتجربة، والاختلاف عن حياتي، ولقاءاتي الأخيرة: شانتي الذي كان صبوراً بحيث جعلني أصعدُ إلى هذا المكان فاتحاً أمامي عالَماً لا يُصدَّق، وفريقُهُ الحريص على راحتي، والاستقبالُ الحارُّ للنيباليين الذين يكادون لا يملكون شيئاً، لكنهم يهبون كلَّ شيء. ثم جاءت رؤيةُ ذلك الإيطاليِّ الذي تركتُهُ يُفلِتُ بدافع الكبرياء. ازدادت سرعةُ دقّات قلبي، السريعة أصلاً، عند استحضاري صورته. كنتُ في مواجهة عجزي: أنا التي

كنتُ أعتقد أنني أتحكَّمُ في كل شيء، كان كلُّ شيء هنا يُفلتُ مني... حتى الأفكار!

أمام تلوُّنات الألعاب النارية، وقفتُ أشاهد الجبالَ وهي تُرسل بعضُها إلى بعض تدرجات من الألوان في تناسق كامل. دعتْني لوحةُ الألوان التي تعجز البرمجيّاتُ المعقَّدةُ عن تقليدها، إلى أن أنتقل معها إلى بُعْدٍ جديد. كنتُ هامدةً، مبهورةً، متوحِّدةً مع الجمال اللامتناهي. تبخَّرتْ أفكاري، وكنتُ أرغبُ فقط في أن أكون هناك وأن أستسلمَ للغروب. وكان جسدي، المتكافل مع المنظر الطبيعيِّ، يستجيبُ لإيقاع الأضواء، والعطور، وخفق أجنحة الطيور العابرة، والأشجار، والحجارة، وكل ما كان يُشكِّلُ اللوحةَ النهائية. جعلني كمالُ اللحظة خالدةً. كنتُ واعيةً، تحملني قوةٌ لا توصف، فاستسلمتُ في ثقة.

هل تجمَّدَ دماغي؟ اخترقت برودةُ الليل ثيابي واشتدَّت عند اختفاء آخر أشعة الشمس، لكنني لم أكن أريد أن أقطع هذه اللحظة الاستثنائية. أظلمَت السماءُ، وتجلّى التبايُنُ المعاكسُ، حيث انطفأت الألوانُ في خلفية سوداء تخترقها آلافُ النجوم.

خرجتُ من سباتي، مرتعشة اليدين، لا أقدر على الحركة. كان يراودني شعورٌ أني هبطتُ على الأرض بعد سنوات في الفضاء. لم يعد جسدي، الذي أضحى ثقيلاً، يستجيبُ لأوامر دماغي المشلول. بقيتُ واقفةً لحظةً، جامدةً. وعندما خدشَت الريحُ الجليديةُ وجهي، تفاجأتُ لدفءِ غطاءٍ على كتفيَّ. همس صوتٌ رقيقٌ في أذنيَّ: «درجاتُ الحرارة تضاهي السبعة وعشرون تحت الصفر. المشهد رائعٌ، لكن يُستحبُّ أن تعودي إلى الداخل حتى لا ينتهي بكِ الأمرُ متجمِّدةً».

استدرتُ وهناً على إيقاع جسدي المتيبِّس. تسارعت دقات قلبي، الذي بدأ يطرقُ ضلوعي بقوة، واستبدَّت بي طاقةٌ مدهشة فيما اخترقني تيّار كهربائيٌّ. كنتُ أتألَّمُ بمقدار ما أبتهجُ، فاللحظة الخارقةُ أرعبتني. أخذت يداي ترتعشان. أأكون تجاوزتُ نقطة اللاعودة؟ أأكون انتقلتُ إلى الجهة الأخرى من الحاجز؟ شعرتُ بساقيَّ تتلاشيان، والدُّوار يغشاني. ظللتُ هناكَ، ذاهلةً. كان ماتيو يقف أمامي، متلفِّعاً في سترة فراء سوداء، معتمراً غطاء رأس من الريش.

أُغمِيَ عليَّ.

الوحدة المطلقة

«الجنونُ هو أن نتصرَّف دائماً بالطريقة نفسها
وأن ننتظر نتيجةً مختلفة».

ألبرت أينشتاين

كان شانتي يُربِّتُ على خدَّيَّ بحرارة ليعيدني إلى الواقع. كنتُ أستعيد وعيي بصعوبة، ممدَّدَةً في القاعة المشتركة، مغطّاةً من رأسي إلى قدميَّ.

«أين أنا؟ أأنا ميتة؟

- أنتِ حيَّةٌ، لكنكِ أخَفْتِنا.

- كان الأمرُ رائعاً، كأنني في حلم، كنتُ غاية في السعادة...».

كنتُ موضوعَ الإثارة في ذلك المساء. رحَّبتِ الوجوهُ من حولي باستيقاظي. حاولتُ أن أعتدلَ جالسةً، لكن شانتي منعني من ذلك. لم أكن أبحث سوى عن واحد، ولم يكن هناك. تعرَّفتُ على الغطاء الأحمر، فشددتُهُ حولي. هل كنتُ ضحية هلوسة؟ بدا حقيقيّاً حقّاً.

جلس شانتي قربي وسألني كيف أشعر. كنتُ قد عشتُ تجربةً لا

تُصدَّق. تذبذبتُ مع الكون، ثم... لا شيء بعد ذلك: انقطع التيّار! بحسب مرشدي، كان الأمر حبّاً من أول نظرة.

وصلَ ماتيو فجأة حاملاً مزادة ماء من الألومنيوم وغطاء آخر. ظهر عليه الارتياحُ لما رأى أني استعدتُ وعيي. قدَّمَ لي المزادةَ التي ارتجل منها مُسخِّناً فألصقتُها ببطني، وغطّاني بالبطانية وفركَ ذراعيَّ بيديه. فاجأتني حركاتُهُ الواثقةُ، واشتعل قلبي لملمسه. كنتُ مشلولةً، لكنني استسلمتُ له. نهض شانتي، وعلى شفتيه ابتسامة، وغمزني بعينه ليجعل الأمرَ تواطؤاً بيننا. طلب العشاء، فتفرّق الجمعُ، واستؤنفت الأحاديث.

اصطنع ماتيو لهجةً شقيةً: «لديكِ طرقٌ عجيبةٌ لتتحاشيني بها. في المرة السابقة هربتِ مني، واليوم أغميَ عليكِ. إلا إن كان ذلك وسيلة لإثارة انتباهي؟».

تمتمتُ في حرج: «أنا آسفة بالنسبة إلى المرة الأخيرة، لستُ أدري ما الذي أصابني... أوه... لم أكن أنا نفسي... العلوُّ، والجِدَّةُ، والبرد... ثم إنك أنتَ أيضاً لم تكن لائقاً معي! لقد هربتَ مثل لصٍّ!

- أرى أنَّكِ تستعيدين وعيكِ. هذا أمرٌ يُبهجني».

أُصِبتُ في كبريائي، فندمتُ على ما كِلْتُهُ له من اتهام. لكن «إيطاليّي الجميل» استدركَ بصوت هادئ:

«أدينُ لكِ باعتذار. رحلتُ في وقت مبكِّر لأنَّ جيسون كان في حاجة إليَّ هنا. وهكذا نكون أنا وأنتِ متعادلين.

- هل نجحوا في تلويثكَ بنظرياتهم؟

- لستُ أدري من لوَّثَ الآخر، لكن هذه الأبحاث استغرقت السنوات العشر الأخيرة من حيواتنا، والنتائجُ واعدةٌ».

لم أصدِّق الأمرَ. كيف يمكن للمرء أن يكون بهذه السذاجة؟ **اهدئي يا مايبل!** كانت الحياةُ تمنحني فرصةً جديدة لأعرف ذلك الرجل، وكنتُ أريدُ أن أغتنمها.

«لا بد أنَّ أموراً كثيرة فاتتني. ما الذي يستهويكَ؟ لا أفهم جيّداً أبحاثكَ. هل أنتَ طبيب؟ ما هي مسيرتكَ؟ وما هي ثمرة هذا العمل؟». كنتُ أطرحُ سؤالاً تلو الآخر دون أن أنتظر الإجابات. كنتُ في حاجة إلى الاحتفاظ به إلى جانبي.

«أحتاج إلى ليلة كاملة لألخِّصَ لكِ المقدِّمة!

- ها هي الليلة أمامنا!».

كنتُ أشعر بنفسي في قمة الابتهاج. التقطَ ماتيو ملاحظتي الموحية، فنظر إليَّ وهو يميل رأسَهُ. احمرَّ وجهي احمراراً شديداً. «أنا أمزح»، استأنف قائلاً وقد لاحظَ حرجي. **أما أنا فلا أمزح!** ورسمتُ على وجهي ابتسامة. اختنقت الكلماتُ، وظلَّت نظراتنا معلَّقةً لحظةً بذلك الصمت الذي قطعه بلطف.

«كان النهار متعِباً، ويُستحسَن أن ترتاحي قبل العشاء. ستكون لنا فرصةٌ للحديث عن ذلك غداً.

- لا، لا، كلِّي آذان صاغية! لديَّ رغبة قوية في أن... أقصد... أن أعرفكَ... أقصد أن أعرف أبحاثَكَ... ثم...».

كنتُ سخيفةً. ولاحظتُ، ملتهبةَ الخدَّين، مهتاجةَ القلب، كيف تفلت مني أفكاري. كان لذلك الرجل تأثير كبير عليَّ. لم أعد أتعرَّفُ على نفسي. كان ضغطي الشريانيُّ قريباً من ضغط قنينة غاز سجينة حريق! ابتسم لي من جديد وسألني عمّا أريد أن أعرف.

«كيف توصلتَ إلى هذه الاكتشافات؟

- أتممتُ دراستي في الطب في ميلانو. تخصَّصتُ في علم الأعصاب. وبعد عامين من العمل في إيطاليا، أتيحت لي فرصة السفر إلى نيويورك لألتحق بفريق بحث في مستشفى جامعيٍّ. بقيتُ فيه مدة سبع سنوات، وهو ما مكَّنني من ممارسة الجراحة مع مواصلة أعمالي حول الطاقات التي تتحكَّمُ في جسد الإنسان. لقد اهتممتُ بعمل الدماغ وآثاره على الكيفية التي ندرك بها الواقع، وهو أمر يُفسِّرُ عدداً كبيراً من المشاكل المرتبطة بالعلاقات بين الناس».

كنتُ أنصتُ إليه باهتمام. افترَّ فمُهُ عن أسنان بيضاء مرصوصة تُكلِّلُ وجهَهُ الملائكيَّ. لم يكن أمامي إلا أن أعترف بأني واقعةٌ تماماً تحت تأثير سحره. هرع جيسون نحونا قلقاً. استفسر عن حالي، ثم بعد أن اطمأنَّ، مدّ لي رزمةً مربوطة بحبل، بحجم كتاب صغير، ملفوفة بورق التغليف.

«هذا ما جئتِ تبحثين عنه.

- كل شيء هنا؟

- أجل! أعتمد عليك كي تسلِّميه إلى رومان يداً بيد.

- سأفعل، ثق في ذلك. فقد عبرتُ كلَّ هذه الطريق من أجل هذا الهدف فقط!».

كنتُ أودُّ أن أعرف أكثر عن الطريقة، لكنني لم أجرؤ على التطرق إلى الموضوع أمام ماتيو الذي لم يطرح أيَّ سؤال. لم أكن أعلم ما أفشى عنه جيسون. وضعتُ الحزمةَ في حقيبة ظهري التي لن تفارقني بعد ذلك. اقترب شانتي. «رجعتْ إليكِ ألوانُكِ الجميلة. العشاء جاهز، أترغبين في بعض الطعام؟». حشذت الروائح الصادرةُ عن المطبخ شهيَّتي، فنهضتُ باحتراس، وأمسكَ ماتيو بيدي. «لن تُفلتي مني بهذه السهولة. سأدعُكِ تستردِّين قواكِ، لكنني أنا أيضاً

لديَّ بعض الأسئلة أريد أن أطرحها عليكِ». غرقتُ في عينيه البنِّيتين، وزادنا دفءُ أصابعه تقارباً. ابتلع ريقَهُ، وتابعتُ تفاحة آدم البارزة وهي ترتفع في عنقه، ولم يعد شيء يهمُّ سوى تلك اللحظة.

كان جيسون قد دعا أياتي للالتحاق بنا من أجل تناول العشاء. «لقد سبق لكما أن التيقتما من قبل. أياتي تعمل مع ماتيو على المرحلة التمهيدية الثالثة لعملية التحوُّل: الطريقةُ التي يخلق بها دماغُنا واقعَنا وردودَ الفعل المتعلِّقة بفهمنا عند مواجهتنا لموقفٍ معيَّن». كنتُ راغبةً في أن أظهر اهتمامي، خاصةً بعد الصورة العليلة التي قدَّمتُها عن نفسي، فطلبتُ منهم أن يُخبروني بالمزيد!

قدَّمَ شانتي شربةَ الخضروات، ثم جلس إلى يميني، وكان ماتيو جالساً إلى يساري، وأياتي وجيسون أمامنا. أشار إليَّ مرشدي برأسه ليطمئنَّ على حالتي الصحيّة. لاحظَ ماتيو ذلك، واعترفتُ لهما أنَّ كلَّ شيء يسير بسرعة فائقة بخصوص تلك المفاهيم التي كنتُ أجهلُها. لقد أدركتُ أنَّ الواقعَ قد لا يكون ذلك الذي نعتقدهُ. وفكَّرتُ مهلةً أستجمعُ فيها أفكاري.

«جيسون، لقد قرأتُ ملاحظاتكَ حول الواقع المشوَّه الذي يفرضُهُ علينا الأنا. ثم شرحتَ لي أنَّ المادة مكوَّنةٌ من الفضاء، بما أنها تمثِّلُ كتلةً مركَّزة من الذرّات، مُشَكِّلَةً بذلك حقلاً طاقيّاً. أجد صعوبة في أن أتصوَّر أنَّ كلَّ ما يحيط بي إنما يتشكَّلُ من فراغ، تماماً مثلنا نحن، وإنْ كنتُ أفهمُ الاستدلالَ. شعرتُ بانصهارِ جسدي بالبيئة من حولي، لدرجة أننا لم نعد نُشكِّلُ سوى كتلة كبيرة من الطاقة، بعد التجربة التي جعلْتَني أقوم بها عند غروب الشمس. فهمتُ إمكانية تغيير حالتنا الذبذبيّة من خلال تحويل أفكارنا. وأدركتُ أيضاً أنَّ رفاهيتنا متعلِّقةٌ بالحبِّ الذي نُصدِرُهُ. كلُّ هذا

جديدٌ بالنسبة إليَّ، لكن ينبغي عليَّ أن أُقِرَّ أن التجربة عجيبة. وهذا يطرحُ عليَّ سؤالاً: هل نعيش الواقع؟ ألم يكن رؤيةً للعقل، أو للأنا، أو لشيء آخر لا أعرفُهُ؟

- إنّ الواقعَ معقَّدٌ، أكَّدَت أياتي. عندما نواجهُ موقفاً ما، نحن لا نُدرِكُ سوى جزء صغير من الحقيقة، وفق حدود رؤيتنا، وإدراكِنا، وفهمِنا، والأبعادِ التي نعرفُها، ومعتقداتِنا، وتربيتِنا، ووفق عوامل أخرى، لم نذكر منها إلا بعضَها.

- تذكَّري التجربة التي أجريناها على هاتفك المحمول، قال شانتي معلِّقاً.

- في أثناء تجربة في المختبر، طلبتُ من شخص أن يفحَصَ شيئاً، استأنفت أياتي. وعندما أوصلتُ دماغَهُ بماسح ضوئيٍّ، لاحظتُ أنَّ مناطق معيَّنة من دماغه أضاءت. ما من شيء غريب حتى الآن. نزعتُ الشيءَ من مجال رؤيته، واقترحتُ عليه أن يتخيَّلَ ما فحصهُ قبل قليل. أضاءت المناطقُ ذاتُها. إذاً، فالدماغ لا يميّز بين ما يراه وما يتذكّرُهُ، فنحن نُشغِّلُ الشبكات العصبية ذاتها، وهذا يطرحُ سؤالاً أولاً عن واقعنا: هل نحن نرى أم نخترع؟

- تعالجُ الكتلةُ الدماغيةُ أربعمائة مليار بايت من المعلومات في الثانية، لكننا لا نعي إلا ألفيْ بايت، شرح ماتيو. تُخبرُنا هذه العناصرُ عن محيطنا، وعن جسدنا، وعن الزمانية. بيد أننا لا نرى سوى جزء ضئيل من العالم الذي يحيطُ بنا. يصير الشيءُ حقيقيّاً ابتداءاً من اللحظة التي نضعُ فيه الوعيَ. وهذا يطرحُ سؤالاً ثانياً عن الواقع: أليستِ الطريقةُ التي نُدركُ بها الواقع مرتبطة ارتباطاً حميماً بمعرفتنا؟ نحن نرى شيئاً، ثم انعكاسَهُ في مرآة الذاكرة. انظري إلى

الطاولة على سبيل المثال. تصلُ الصورةُ إلى بؤبؤ عيننا ثم إلى دماغنا، فنضيفُ المعرفةَ اللازمة لنعتبر أنَّ هذا الشيء طاولة. لقد انقضتْ فترةٌ زمنيةٌ بين رؤية قطعة الأثاث هذه وفهمنا لها. فنحن لا نكون قطُّ بصدد إدراكٍ مباشر، وإنما بصدد تأويل.

- بتعبير آخر، نحن نصنع واقعَنا انطلاقاً من معرفتنا وتجاربنا؟

- تماماً، لكن ليس هذا فحسب. إنَّ الواقع تُكيِّفُهُ عواطفُنا. دعيني أشرح لكِ كيف يعمل دماغُنا. إنّه يتكوَّنُ من خلايا عصبية لديها تفريعات لتتصل بعضُها ببعض وتُشكِّلَ الشبكة العصبية التي تزداد تعقيداً كلما أدخلنا معلومات وغذَّيناها. وفي نقطة اتصال الخلايا العصبية، تتشكل فكرةٌ أو ذكرى. يصنعُ المِهادُ، وهو منطقة صغيرة جدّاً من الدماغ، موادَّ كيميائية، تُسمّى الببتيدات، تتجمَّعُ لتخلق هرمونات عصبية تناسبُ كلَّ عاطفة معيشة.

- مثل الغضب؟ والفرح؟

- أجل، الحزن، والإحباط، والمتعة، واللذة... فما أن نشعر بعاطفة حتى تُفرَغ الببتيدات المتكوِّنة في الدم لتنتقل إلى الخلايا المستهدَفة. كلُّ خليّة مجهَّزةٌ بآلاف المستقبِلات المنفتحة على العالم الخارجيِّ. وتُرسِلُ المادةُ الموزَّعةُ في الجسم إشارةً إلى المستقبِلِ الذي يلتقطُ المعلومةَ ويُطلِقُ سلسلةً من الاستجابات البيوكيميائية قادرة على تغيير الخليّة.

- كأنها لديها وعي؟

- تماماً. إنها حيّةٌ. تجعلها مستقبِلاتُها تتطوَّرُ وتعيدُ اختلاقها وفق المشاعر الأكثر شيوعاً في حياتنا. الأفكار والأحاسيس مترابطة بتلك الشبكة العصبية. ومن ثم فإن الدماغ يظل في بناء مستمر. يتغير

في كل ثانية وفق المعلومات التي تصلُهُ. وبهذه الطريقة نخلُقُ نماذجَنا في رؤية العالم الخارجي.

– هذا يعني أن دماغي، في أثناء حديثك هذا إليَّ، يتحوَّلُ ويُشكِّلُ روابط جديدة؟

– هذا صحيح. إنه يُسجِّلُ ويُعزِّز نموذجاً موجوداً حول هذه المواضيع، وهو الأمر الذي يُغيِّرُ بنيتَه. ثم إنه يعالجُ المعلومةَ التي تصل بأن يُضيف إليها ذكاءً معيَّناً. ويطلِقُ الدماغُ، حسب مُحاورك، العواطفَ المعنيَّةَ.

– أنا آسفة، لستُ أفهمُ.

– لنأخذ مثالاً: تعرفين أنَّ اسمي ماتيو، وأنني رجل، إيطاليٌّ، وأنني أمارسُ مهنة طبيب أمراض عصبية. وبواسطة هذه المعايير الأربعة، سيمنحُ دماغُكِ للمعلومات التي يتوصَّلُ بها مصداقيةً تزيد أو تنقصُ حسب تجاربكِ الماضية والطريقة التي عشتِ بها تلك التجارب. سيربطُ الأمرَ بالإيطاليين الذين التقيتِ بهم، والأشخاص الذين يحملون الاسمَ نفسَهُ الذي أحملُهُ، وبنفورك من الوسط الطِّبِّيِّ أو اهتمامكِ به. في الحقيقة، يقوم دماغُكِ بعرض آلاف المعلومات التي تدخل على تلك المعلومات المعروفة مسبقاً: رنَّة صوتي، حجم يديَّ، قَصَّة شعري، حرارة الغرفة، الأصوات المحيطة بنا، وكل ما يستطيع أن يلتقطه، ويُغيِّرُ كلّ الأنماط المتأثِّرة بالمعطيات الجديدة. كلما ازدادت معلوماتُنا، ازداد نموذجُنا تفصيلاً».

وأوضحتْ أياتي أنه يصعُبُ علينا أن نكون موضوعيين عندما نواجه موقفاً ما لأننا نعالجه بأن نضيف إليه استجابةً عاطفيةً ذاتية. باختصار، نحن نحكي لأنفسنا قصةً عمَّا هو العالم الخارجيُّ.

أعدتُ صياغة الفكرة قائلة:

«ما يعني أن المعلومة نفسها التي تُطلَق أمام شخصين في لحظة محدَّدة سيُنظَرُ إليها بطريقة مختلفة من كل واحد منهما حسب النماذج العصبية القائمة. والأمر نفسه يحدث بالنسبة للعواطف المولَّدة: ستكون مختلفة حسب التجارب المعيشة.

- هنالك نقطة مهمة أخيرة، أضاف ماتيو. إنَّ الخلايا العصبية التي تنشَطُ معاً تتعاونُ. فعندما نُكرِّرُ تصرُّفاتٍ متطابقةً كلَّ يوم، تَخلُقُ الخلايا العصبيةُ علاقةً راسخة تُحدِّدُ شخصيتَنا. فإنْ كنتُ أغضبُ، أو أتألَّمُ، أو أشعر بالاضطهاد في حياتي اليومية، فأنا أقوّي هذه الشبكة العصبية.

- لكن كيف يمكن إيقافُ ذلك؟ هل نحن محكوم علينا أن نبقى خاضعين لهذه السلوكيات الآلية؟

- كلَّا! لدينا القدرة على كسر تصوُّراتنا، فمن خلال تغيير معتقداتنا، يصبح في إمكاننا أن نستبدل نماذجَنا بنماذج أخرى».

وأضافتْ أياتي أنَّ الخلايا التي لا تتعاون ينتهي بها الأمرُ إلى أن تفقد علاقاتها. فكل مرة نوقِفُ فيها السيرورةَ الذهنية التي تُنتِجُ ردَّ فعل كيميائي في جسدنا، تشرع الخلايا العصبية المشارِكةُ في تحطيم رابطها.

قدَّمَ لي شانتي سلَّةً من الشباتي، وهو نوع من الخبز الهنديِّ المُرقَّق. أخذتُ خبزةً ومرَّرتُ السلَّة لماتيو، ثم فكرتُ لحظةً.

«ثمةَ شيءٌ يُحيِّرُني: ماذا نكون إنْ كنا مُشكَّلين من الفراغ مثلنا مثل كلِّ ما يحيطُ بنا؟

- يمكننا أن نعرِّف بأنفسنا على أننا طاقة ذبذبية ذكيّة، أجاب جيسون.

- وإن جعلني ذلك أبدو بلهاء، هل يمكن أن تُبيِّنوا لي ما هي الطاقات التي تتحدثون عنها؟

- اطمئنِّي، لقد استغرق مني الأمر خمسة عشر عاماً لأفهم أنَّ كلَّ شيء إنما هو طاقة، كما استغرق عقوداً من علماء الفيزياء ليبرهنوه! ولم تُقدِّم الفيزياءُ الكمِّية إضاءة جديدة لبنية الفضاء إلا في القرن العشرين».

يا له من حظٍّ ويا لها من مصادفة! كنت قد قرأتُ مقالاً في الطائرة يتناول تعريفات الفيزياء الكمِّية، حيث شرح الصحفيُّ أنها تمثِّلُ دراسةَ اللَّامتناهي الصِّغر وتسمحُ بوصف الظواهر الأساس التي تعمل داخل الأنظمة الفيزيائية، على السُّلَّم الذَّرِّيِّ. ثم أوضح جيسون أنَّ الفيزياء الكلاسيكية المعمول بها في القرن التاسع عشر كانت تعتبر أنَّ الفضاء مليئ بالفراغ فحسب، وكان ذلك العلمُ الجديد يشير إلى أنّ الفضاء إنما هو مادة حيَّة، ذبذبيّة وذكيّة. إنه حقل طاقة يوحِّدُ كلَّ الكون الذي نحن في اتصالٍ معه من خلال أفكارنا، وعواطفنا، ومجموع مشاعرنا. بدا لي كلُّ ذلك لا يُصدَّق. لم أكن أتمكَّنُ من أن أتصوَّر أنَّ هذا البعد يُفلتُ منّا إلى هذا الحد. بدا لي واقعنا مختلفاً جداً...

هبّت الريحُ، وكنا نسمعُها تصفعُ النوافذ في رشقات. دخل نيشال وتيم بضوضاء إلى القاعة المشتركة. كانا يكسوهما الثلجُ. أخبرنا أكبرهما سنّاً أنَّ ثمة عاصفة تتجه نحونا، فأدهش الأمرُ جيسون. «لم نكن نتوقع وصولَها إلا في الأسبوع القادم».

غادر شانتي الطاولةَ وخرج ليُحلِّلَ الوضعَ. بدت السماءُ سوداء عبر النافذة الكبيرة، وتوارت النجوم خلف طبقة سميكة من السُّحب. وكانت زوابع تتلاعبُ بندف ثلج ضخمة تدور في الهواء ثم تسقطُ

على الأرض. اختفى انسجامُ المكان، الذي بدا كساحة معركة.

عاد شانتي وجلس بيننا. حدّقتُ فيه، متسائلةً. «لنأمل أن تهدأ الرياح وإلّا فإننا سنضطرُّ إلى تأخير عودتنا. لا نعرفُ كم من الوقت يمكن أن تستمر العاصفة. لكنها لا تدوم أكثر من يومين أو ثلاثة عموماً». نظر الرجالُ بعضُهم إلى بعض، ولم يبدُ عليهم التأثُّرُ بالوضع. سألتُ عن البدائل. «الصبر»، أجابني جيسون. راجعتُ شانتي، آملة أن أسمع كلمات أخرى، إلّا أنه عبس في حرج. لم أجرؤ على أن أتخيَّل نفسي محبوسةً عدة أيام في هذا المكان. انشغلتْ أفكاري بعملي، وشعرتُ بالهلع يتصاعدُ بداخلي، وبنَفَسي يتقطّع. أخرجتُ هاتفي المحمول من جيبي: لا وجود لشبكة اتصال! ربَّتَ شانتي على ظهر يدي. «سندرسُ الأمرَ غداً صباحاً. لا داعي للقلق اليوم بما أننا لا نملكُ المعلومات اللازمةَ. سنجدُ الحلَّ عندما تكون لدينا مشكلة، وفي هذه اللحظة، لا مشكلة لدينا!».

طبَّقتُ تعاليمَهُ بأنْ تحكَّمتُ في حججي السلبية عبر إعادة صياغتها في أفكار إيجابية. فهدّأ ذهني الذي كان قد اشتعل. كانت ميريا قد وضعتْ طبقَ غراتان السبانخ وأسياخ دجاج مقليٍّ وسط المائدة. رحَّبتُ باللحم الذي كان نادراً منذ بداية صعودنا، وتوجَّهتُ بالكلام إلى جيسون، بعد أن استعدتُ رباط جأشي.

«شرحتَ لي المراحلَ الثلاث الأولى لعملية التحوُّل: الأولى تكون بأن نعِيَ أن لدينا الخيار في كل ثانية في أن نفتح بابَ الخوف أو بابَ الحبِّ، والثانية بأن نرفع حالتنا الذبذبية لنتّصلَ بالطاقة الخالصة: الفضاء حيث كلُّ شيء هو خلقٌ، وحقل كلّ الممكنات، والثالثة بأن نفهمَ من نحن وكيف نعملُ. فما هي المرحلة الأخيرة؟ حدِّثني أياتي عن أربع مراحل.

- لهذا السبب، أودُّ أن أُشاركَكِ أعمالَ الدكتور ماسارو إيموتو[1]، فأقترحُ عليكِ أن تلتحقي بنا بعد العشاء لاكتشاف نتائج تجربة مدهشة».

*

في الساحة، كانت الريحُ المشاكسة ترفع سحباً من ندف الثلج. وجدنا ملاذاً في ممرِّ المبنى المجاور الذي يقود إلى المختبر. أخرجَ جيسون ملفّاً سميكاً من درج مكتبه. «نجح الدكتور ماسارو إيموتو في ملاحظة استجابات الماء عن طريق تصوير بلّورات مجمَّدة. لقد برهنَ على ما كانت شعوب قديمة تتحدَّثُ عنه قبل آلاف السنين وما تسمحُ الآن الفيزياءُ الكميّةُ من تأكيده: يمتلكُ الفكرُ قدرةَ خلقٍ فوريةً. تكمنُ منهجيتُهُ في تجميد عيّنات من الماء على حرارة عشرين درجة تحت الصفر مدةَ ثلاث ساعات لكي تتحوَّلَ إلى بلّورات، ثم التقاط بسرعة كبيرة صور للبلور الذي تشكَّل فوق تاج قطرات الجليد على السطح. وهكذا اكتشف أنَّ نوعية الأشكال وتناغمها يتوقفان على صفاء الماء. فتصوغُ الماءُ الصافية نماذجَ رائعة في حين تُقدِّمُ ماءٌ مستعمَلةٌ أو راكدةٌ أشكالاً غير مكتملة وغير متناغمة. ومن ثم اهتمَّ ببنية الماء الجزيئية وبما يمكن أن يؤثِّر فيها».

فتح جيسون الملفَّ أمامه وأخرج من جيبٍ أوّل مجموعةً من الصور. «لقد أنجزَ تجارب محيِّرة باستعمال محفِّزات ذهنية، ولاحظَ

(1) Dr Masaru Emoto: مؤلِّف ياباني (1943-2014)، حاصل على دكتوراه من جامعة يوكوهاما في الطب البديل، اشتهر بنظريته حول آثار الفكر والعواطف على الماء - المؤلِّفة.

أنَّ الماء كانت تستجيبُ لظواهر غير مادية! قام بتصويرها بواسطة مجهر ذي خلفية سوداء وها هي النتيجة». عرضَ علينا جيسون شكلاً غير منظَّم. «هذا شكل ماء سَدِّ فوجيوارا، ثم هذه صورة للماء نفسه، وقد باركَهُ لحظات بعد ذلك راهبٌ بوذيٌّ». قدَّم لي الصورةَ التالية، تُظهِرُ بلَّوراتٍ صافية ذات بنياتٍ سداسية الشكل، ومرَّرتُها إلى شانتي.

«واصلَ أبحاثَهُ عبر محاولات جديدة وأثبتَ أنَّ ذبذبات الموسيقى أو الكلمات تؤثِّرُ في الماء أكثر من أيِّ عنصر آخر، والأشكالُ المصوَّرةُ تدلُّ على ذلك. عملياً، قامَ بتعريض ماء مُقَطَّر لأمواج السمفونية السادسة 'الرعوية' لبيتهوفن». عرض علينا جيسون صوراً ذات كمال نادر.

«وأعاد التجربة مع السمفونية بـ Ré بالسلَّم الكبير رقم 44 لموزارت، ثم لحن Suite رقم 3 لجان سيباستيان باخ، وهنا أيضاً، كان جمال البلورات لا يوصف، ووجد الأشكالَ الرائعةَ نفسَها عند تعريض الماء لذبذباتٍ مُحِبَّة.

- هذا أمر خارق! صاحتْ أياتي. لكن ما الذي يحدث إذا تعرّضت الماء لأفكار سلبية؟ هل توصّل الدكتور إيموتو إلى قياس الفرق بينها؟

- أجل، هذا ما كنتُ أودُّ أن أعرضه عليكم. انظروا! عندما تتعرَّضُ الماءُ للكراهية، والعنف، وحتى للموسيقى النّشاز، فإنَّ الأشكال تصيرُ غير متناغمة وغير منتظمة، وتصيرُ البلوراتُ غير مهيكلة وجزئية. أليس الأمرُ مدهشاً؟».

كانت الصُّور محيِّرةً فعلاً. بل إنَّ الباحث الجامعيَّ كان قد ألصقَ بطائق على قنينات مليئة بالماء كُتِبَت عليها كلمات من قبيل

«روح»، «جمال»، «حُبّ»، وكانت النتيجة لا تحتملُ الجدال، بحيث تجلّت أشكالٌ معقّدةٌ وكاملةٌ، في حين أن تلك المعرَّضة لتعليقات «قبيح»، و«أبله»، و«شيطان» أظهرت أشكالاً بشعةً غير منظَّمة. أذهلتْني تلك الصُّور التي كان جيسون يعرضُها علينا وهو يُقدِّمُ لنا شروحاته.

واصل الباحثُ الياباني سلسلةً من التجارب: وضعَ أرزاً مطبوخاً في إناءين زجاجيين متماثلين. وكل يوم، «تحدَّثَ» إلى الأرز شاكراً الأول بكلماتٍ طيّبة، ثم مخاطباً الثانيَ بأنه «لا فائدة منه». وهكذا، بعد شهر من ذلك، لاحظَ أنَّ الحبوبَ التي عومِلت معاملةً سيِّئة تعفَّنتْ بسرعة أكبر بكثير من الأخرى. وجدتُ صعوبةً في تصديق كلِّ ذلك!

«أنا أيضاً، كي أكون صادقاً! اعترفَ جيسون. لكن إذا فكّرنا في أعمال كريغ برادن[1]، فلن نجد الأمرَ مفاجئاً، إذ تُبيِّنُ أبحاثُهُ آثارَ التردُّدات على قطرة ماء. وهنا أيضاً تُنتِجُ الذبذباتُ العُليا أشكالاً متناغمةً. نحن نعلمُ أنَّ الموسيقى هي مجموعة من الموجات ولا يحتاج تأثيرُها إلى دليل، لكننا كنّا أقلَّ وعياً بتأثير الأفكار، والكلمات، والأشخاص، والألوان، والروائح، والفنّ، والقراءات علينا.

- أجل، أضافت أياتي، تماماً مثلما أنَّ الانغماس في الطبيعة يمكن أن يكون له القوة نفسها، أليس كذلك؟

---

(1) «عندما تتعرض قطرةُ ماء لتردّدات صوتية»، مقتطف من محاضرة كريغ برادن، «الشعور هو الذبذبة». لمزيد من المعلومات عن كريغ برادن: www.greggbraden.com - المؤلّفة.

- صحيح!».

سألتُ جيسون إن كانت هذه الذبذبات تُستخدَمُ لأهدافٍ علاجية، وعلمتُ أنَّ أطباء الطب البديل يستخدمون الطاقة الحيويةَ منذ عقد من الزمن في علاج مختلف أنواع الأمراض، إذ كانت التردُّدات العالية تنجح في تذويب المادة، مثل بعض الأورام التي ما هي إلا تصليب لأخرى، سفلى. كنتُ مشدوهة.

«أتعلمين مدى أهمية هذه الاكتشافات؟

- لا أعرفُ مداها تماماً، لكن أظنُّ أنَّ قسماً كبيراً من الكائن البشريّ يتكوَّنُ من الماء، أليس كذاك؟

- فعلاً، بنسبةٍ تفوف السبعين في المائة. تفتح هذه الأبحاثُ أمامنا مسالكَ مهمّة: تؤثر الموجاتُ الذبذبيةُ على كل جزيِّئ من جزيئات الماء، أي على كامل جسدنا! وتُثبِتُ هذه التجاربُ ما لم نكن نستطيعُ تفسيرَهُ: قوة الفكر وقوة التركيز الخيّر لهما تأثير تناغمي. إنها المرحلة الرابعة من عملية التحوُّل، ولقد خلقْنا بروتوكول العلاج انطلاقاً من هذه الاكتشافات، وارتكزنا على الفرضيات الآتية: أولاً، يسمح لنا العلمُ بأن نلاحظَ أنَّ ما يبدو لنا صلباً ما هو إلا فراغ. ثانياً، نعلمُ أنَّ جسدنا مكوَّنٌ في أكثر من ثلثيه من الماء، وهي جزيِّئٌ مكوَّنٌ من الأوكسجين والهيدروجين، وهي نفسها ذرّاتٌ، يشكِّلُ الفراغُ 99% منها، وهي تستجيب لتأثير الأفكار. ثالثاً، يعيد الدماغُ خلق نفسه من خلال المعلومات التي نُرسِلُها إليه والأفكار التي نُعربُ عنها. توقفتُ عند الفكرة لأنها قلب الموضوع وتوصَّلتُ إلى وجود حالتين اثنتين فحسب: الخوف والحُب، وتنبع جميعُ أفكارنا من إحدى الحالتين. يؤدي الخوفُ إلى الحزنِ، والغضبِ، والعدوانيةِ، وغيرِها من الانفعالات التي يكون

لها وقعٌ كارثيٌّ على جسدنا. وفي المقابل، تسمحُ الأفكارُ المولِّدةُ في حالة حبٍّ بتناغم الجسد، والتصالح، والوحدة، والصحة. لقد فكّرنا في بروتوكول علاج يتركّز على الوعي بهاتين الكيفيتين في الوجود، والأفعال التي تنشأ عنهما، والآثار المباشرة على صحّتنا وحياتنا».

وددتُ أن أفهم عملية التحوُّل بصورة أفضل، لكن الوقت كان قد تأخّر، فاقترح عليَّ جيسون أن نحاول ذلك في الغد، وظلَّ هذا الأخيرُ في مختبره برهةً. ذهبت أياتي للنوم، ورافقني ماتيو وشانتي إلى القاعة المشتركة لتناول شايٍ أخير.

«أيستطيعُ أياً كان أن يعيش عمليةَ التحوُّل؟

- أجل، كلُّ مَن يرغبُ في أن يتغيّر، أكَّدَ لي ماتيو. لكي أصلَ إلى التحوُّل، كان عليّ أن أدرك أني تعيسٌ، ولم يكن الاعتراف بذلك لنفسي أمراً سهلاً! كنتُ، بطبيعة الحال، كنتُ أمرُّ بلحظات متعةٍ عابرة، لكن لم يعد شيءٌ يفرحني مدة طويلة.

- من ذا الذي يجرؤ على أن يشتكي وهو لديه كلّ ما يسعى إليه المجتمع، أليس كذلك؟

- تماماً! كنتُ محظوظاً بأن أُغدِقَ على نفسي كلَّ ما كنتُ أتمنّاهُ، وكنتُ محفوفاً بالأصدقاء، وكانت حياتي العاطفية تلائمني، وصحتي جيدة. لكنني كنتُ أشعرُ في أعماقي أنَّ أمراً ما ليس على ما يرام. لم أكن أدري ما هو، لكنني لم أكن أجد مكاني في هذا العالم القاسي. كانت الكآبةُ السائدةُ تؤثّرُ فيَّ، ولم أكن أجد طبيعتي العميقة في تلك المعركة.

- مثلي تماماً! هذا ما أشعرُ به. لحظاتٌ قصيرة من السعادة، ثم

أسقطُ في الإحباط من جديد كلما أزعجني موقفٌ أو شخصٌ ما. لا أستطيع الخروج من هذه التوترات، لكنني أنا أيضاً أودُّ أن أتغيَّر!

- أنتِ جاهزة إذاً للتحوُّل الذي يبدأ في اللحظة التي نَوَدّ فيها أن تتطوَّر حياتُنا. فبعد أن ندرك أننا حبسنا أنفسنا داخل سجن، وأنَّ لدينا الخيار في أن نغادرهُ، نحتاج إلى المفاتيح. وهذا ما سيشرحهُ لكِ جيسون غداً».

كانت جفوننا مثقلَةً بالنوم، لذا كان يَجمل بنا أن نلتحق بغرفنا، على الرغم من رغبتنا في مواصلة النقاش. ملأَ شانتي قربتي المصنوعة من الألومنيوم بماء ساخنة. «دُسِّيها في داخل غطائكِ، فستكون الليلةُ قارصة».

رافقني ماتيو إلى باب غرفتي. كانت عيناهُ الغائصتان في عينيَّ تبدوان كأنهما تقرآن في روحي، فاشتعلَ جسدي المنهَكُ. أمسك ماتيو بيدي وقبَّلها ووضع قبلةً طويلةً على خدِّي وهو يتمنى لي أحلاماً هنيئة، وظلَّت نظراتُنا مشتبكةً إلى أن دخلتُ الحجرةَ.

اندسستُ داخل غطائي، مسلَّحةً بطبقات من الثياب لأواجه درجاتِ الحرارة السلبية، وتجمَّدتُ لا أتحرَّكُ لأنصتَ إلى حركاته عبر الجدار الفاصل الرفيع. كان سريره يلاصقُ سريري في الغرفة الأخرى. نمتُ على آخر كلمات همسَ بها:

«Buona notte[1]»، ماييل.

- ليلة سعيدة، ماتيو».

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) ليلة سعيدة بالإيطالية.

ابتداءً من الآن...

«أن تؤمن، هو أن تصعد الدرجة الأولى،
حتى عندما لا ترى السُّلَّم بكامله».

مارتن لوتر كينغ

هبَّت الرياح طوال الليل. استيقظتُ سعيدة القلب، وكان جسدي الخَدِرُ يطالبُ بمزيد من الراحة على الرغم من تسع ساعات من النوم. أطللتُ بعين من خلف الستارة، وكان الثلج لا يزال يتساقط، وضباب كثيف يحجبُ الجبالَ. كانت مغادرتي الغطاء، مثل كل يوم، ضرباً من العذاب، لكنني كنتُ متلهِّفة للالتحاقَ بفريقي من جديد، وخصوصاً إيطاليّي الجميل. أصغيتُ إلى الجهة الأخرى من الخشب الرقائقي: لم أسمع صوتاً. ألا يزال نائماً؟

تحاملتُ على نفسي، وواجهتُ البردَ، واغتسلتُ غسلاً سريعاً، وارتديتُ ملابس نظيفة لكنها مجمَّدة، والتحقتُ بشانتي في القاعة المشتركة. كان الجميع قد استيقظوا وانخرطوا في العمل. جلس مرشدي إلى جانبي حاملاً قدح قهوة. أخبرني أنَّ جيسون كان ينتظرني في المبنى المجاور. أما ماتيو، فكان يعمل مع أياتي. اضطربتْ شهيّتي لسماع ذلك، إذ كنتُ، في الحقيقة، غيرى بعض الشيء!

كانت الريح قد هدأت، لكن الطرق ظلّت خطرة، فكان يُستحسَنُ تأجيل العودة إلى الغد بعد شروق الشمس، حيث ستكون الطرقُ مسرَّحةً. قلقتُ بشأن احتمال عودة الثلج. أخبرني شانتي أنَّ النزولَ كان غير ممكن. حاول في وقت مبكِّر أن يسلك الطريق، لكنه انزلق ثلاث مرات على مسافة خمسين متراً. وكانت انزلاقاتُ الأراضي تُهدِّدُ بتأخيرنا وقتاً أطول. أراني ذراعَهُ المخدوش.

«هل تألّمت؟ يجب أن تُطهِّرَ الجرح!

- هذا لا شيء، مجرد خدوش بسيطة. لم تعلن الأرصاد الجوية عن سقوط ثلوج في اليومين القادمين، وستتكفَّلُ الشمسُ بإذابة طبقة الثلج الخفيفة في أربع وعشرين ساعة.

- تعال معي. لا بد أنَّ جيسون لديه ما يلزم لعلاجكَ».

نجحتْ توسلاتي اللاحقة في إقناع شانتي بمرافقتي: رافقني إلى غاية المختبر. كانت الأسطح، والطرقُ، والحجارةُ مغطّاةً بمعطف ناصع البياض ذي أشكال مدوَّرة، وكان كلُّ شيء هادئاً وحميميّاً، لا يُسمَعُ صدى صوت في الجبال، وحدها خطواتُنا المكتومة في الثلج المندوف كانت تتحدى الصمتَ.

كان جيسون يتحدث إلى خمسة تبتيين. حيَّانا عبر النافذة. وعند انتهاء الحصة، خرجت المجموعةُ الصغيرةُ وحيَّونا باحترام عند مرورهم بنا. أجلس الأمريكيُّ شانتي على كرسيِّ تلميذ، ووضعَ ضمادة كحول ومُرهم معقِّم على ذراعه ثم غطّاها بشاش ليحميَ الجرحَ من الاحتكاكات. التفتَ جيسون نحوي وسألني إن كنتُ قد نمتُ جيّداً، وأشار إليَّ أن أتخذ مجلسي إلى جانب شانتي وجلس هو على كرسيِّ قبالتنا وقد وضع ذراعيه على ظهر الكرسيِّ.

«أجل... نوعاً ما. ينبغي أن أعترف أنَّ كلَّ هذه المستجدّات

في حياتي تُربِكني! أتوقُ بفارغ الصبر إلى أن أعرف المزيد عن عملية التحوّل تلك.

- هذا أمرٌ جيّد! ها أنتِ جاهزةٌ للولوج إلى حقل كلِّ الممكنات!

- إلى التحوُّل، أليس كذلك؟

- أجل، يبدأ التأسيس له بفكرة في لحظة معيَّنة وحاضرة. نحن نعلمُ في أعماقنا أنَّ لفكرنا صدى، وأنَّ الحلمَ ليس بالبعيد. لكن يصعب في الغالب الانتقالُ إلى التطبيق. لماذا؟ لأنَّ الأنا يكبحُنا، ويثبِّطُ عزيمتنا. تبدو حججُها بالغة الحكمة لدرجة أننا نُفضِّلُ أن ننسى ما كنا نصبو إليه.

- أجل، صحيح... لدينا بعض الالتزامات في حياتنا، تمنعنا من تحقيقها!

- كلا! لا شيء يمكن أن يوقف رغبة نابعة من القلب، عدا الأنا. والأنا مفاوِضٌ ذكيٌّ، يعرف كيف يُرجِعُنا إلى 'صوابه'، فيبدأ الصراع الداخليُّ: 'أعرف أنَّ الأمور يجب أن تتغيَّر، لكن ليس لي من خيار سوى أن أستمر على هذا النحو، لن أسيء إلى أطفالي، أو إلى رفيقي، أو إلى سين أو ياء، ثم... أنا لستُ محظوظاً، ولا موهوباً، فمن الأحسن أن أتراجع...'؛ 'أنا أعرف ما أريدُهُ طبعاً، لكن فات الأوان، أو لم يئن الأوان بعد...'. يشتمل التحوُّلُ على مرحلتين، أولاهما أن يكون المرءُ عاقداً العزم على أن يرى الأمورَ بشكلٍ مختلف!

- أن يرى الأمورَ بشكلٍ مختلف؟

- أجل. نحن نبني ونُقوِّي نظامَ معتقداتنا على أساس تربيتنا، وثقافتنا، وتجاربنا. نتبنّى الجملَ التي تُردَّدُ على مسامعنا باعتبارها

حقيقة: 'الحياة قاسية وظالمة'، 'ما الحياة إلا صراع'... ونتصرف على نحوٍ آليّ. نعيد إنتاج دورات سابقة ونحن نقلقُ بشأن المستقبل. يرمي بنا ذهنُنا في زمن مختلٍّ.

- أنتِ تصبحين حرةً في اللحظة المحدَّدة التي تصيرين فيها واعية، تدخَّلَ شانتي قائلاً، وفي هذا الفضاء سيمكنك اتخاذ القرارات بنظرة جديدة، من دون ثقل الماضي، ومن دون إحساس بالذنب ولا إسقاطات في المستقبل.

- تماماً، واصل جيسون. بتخليكِ عن موشور الخوف، تمنحين نفسك حريَّةَ رؤية الوقائع والآخرين كما هم، وهكذا تتوقف أفكارُكِ الآليةُ وتصلين إلى أفكاركِ المتعلِّقة باللحظة. الأمر بسيطٌ: عندما نخرج من معتقداتنا، تنطلق العملية.

- هل يمكنكَ أن تذكر لي معتقداً؟

- 'أخاف من الفشل'، على سبيل المثال.

- لكن... هذا واقع! من ذا الذي لا يخاف الفشلَ؟ ألم يسبق لك أن عرفتَ ذلك؟

- لا يوجد الفشلُ إلا في عالم الأنا، لأنه مُطلِق الأحكام. بيد أنَّ التجارب هي التي تسمح لنا بأن نكبر ونتعلَّم. فنحن نبلغُ أحلامَنا بتقبّلنا للمحن. أتعتقدين أننا كنّا سنمشي اليوم لو أننا لم نسقط ألف مرة؟ لا نجد التوازنَ إلا بعد سقطات عديدة. وليس الأمرُ فشلاً، إنما هو عملية التعلُّم العادية.

- لو أنَّ الباحثين استسلموا كلما سلكوا طريقاً مسدوداً، ما كانت الأبحاث لتكون جزءاً من معجمنا، أضاف شانتي.

- الوقوع في الخطأ عنصرٌ ضروريٌّ للنجاح. وعندما نتخلَّصُ من ضغط الخطأ، نستطيع أن نتحرَّرَ من حواجز الخوف ونشرعَ في

التحوُّل. تُعيدُ الدوراتُ إنتاج نفسها ما دمنا نغذِّيها. ألم يحدث لكِ قطُّ أن عشتِ السيناريو السلبيَ ذاتَهُ في فترة معيّنة من العام؟».

فكرتُ وابتسمتُ لمثال خطَرَ على بالي.

«أصابُ بنزلة برد متكررة في الأيام الأولى من يناير. صار الأمرُ عادةً، بحيث بتُّ أحمل معي دائماً بعض الأدوية من باب الاحتياط عندما أسافر.

- أنتِ تعيشين ما تخلقين. كلّ عام، أنت تتصوّرين التهابَكِ قبل أن يحدث، فيقع الالتهابُ.

- كلَّا طبعاً! فأنا لا أتعمَّدُ أن أمرض!

- لا أشكُّ في ذلك، لكنكِ سجَّلتِ ذلك في نظام تفكيركِ. ولتوقفي هذا النمط، ينبغي أن تكبحي هذا المعتقَد عن طريق التحكُّم في ذهنك. كلما لا تروقكِ فكرةٌ، لا ترفضيها، وإنما أبْطِليها بواسطة صورة معاكسة، ثم صادقي بصوت مسموع على ما تحوِّلينه. فعلى سبيل المثال، عندما تتذكرين نزلة برد السنة الماضية وتتخيَّلين أنَّكِ لن تفلتي منها هذه السنة، تأملي هذه الفكرة وأعيدي برمجتها. يمكنكِ أن تتصوّري نفسَكِ وقد شفيتِ ثم تؤكِّدين: 'سأبدأ السنةَ بصحة جيّدة. لا يستطيع أي فيروس أن يصيبني. ساترك الأدويةَ في الخزانة'.

- وتعتقد أنَّ ذلك يكفي؟

- أجل، تدخَّل شانتي قائلاً، مثله مثل الروح الإيجابيّة التي سبق أن تحدثنا عنها.

- تُعيدُ معتقداتُكِ إنتاجَ نزلة البرد كلَّ عام، فلماذا لا نعتبر أنَّها تعمل في الاتجاه الآخر؟ إذا أنت قررتِ أمراً ما بعزم، فإنك ستحصلين عليه. ألا يوجد في محيطكِ أشخاصٌ ذوو حظٍّ خارق؟

- بلى، أفكّرُ في أحد زملائي، لا تحصل له إلا أمور لا تُصدَّق. إنه دائماً في المكان المناسب في الوقت المناسب.

- أتسمعينه يشكو، أو يُطلق الأحكام، أو ينتقد؟

- كيف له أن يفعل ذلك، إنه لديه كلُّ شيء! امرأة تُحبُّهُ، أطفالٌ رائعون، عملٌ مُذِرٌّ حيث يجد متعته... كلما حدث أمرٌ جيّدٌ، يكون من نصيبه. سيكون من سوء الأدب أن يشتكي!

- لا أحد أكثر حظّاً من ذاك الذي يؤمن بحظِّهِ. يعيش جميع الآدميين خيباتٍ ومعاناة، لكنكِ ستلاحظين أنَّ أولئك الذي يجذبون الحظَّ يكون لهم هم أنفسهم موقفٌ إيجابيٌّ تجاه الحياة. إنها دورة صالحةٌ في إمكان أيّ أحد أن يقيمَها. ويزداد صلاحُها لكوننا كلما نجحنا في أمر ما، فإننا نزداد ثقةً في أنفسنا، وتبتعد عنَّا الخشيةُ، ونجرّب أموراً أخرى. وبالطريقة نفسها، بإمكان أيّ أحد أن يحبس نفسه داخل معتقداته السلبية التي تُغذِّيها تجاربُهُ الماضية. الخوفُ يشُلُّنا ويحبسُنا داخل حلقة مفرغة، فنجذبُ ما يُخيفُنا. إن فكركِ الحاضر هو الذي يُشغِّلُ عملية واقعكِ المستمرة. هذا ما أسمِّيه قانون الجذب. أنت تجذبُ ما أنت عليه.

- لستُ واثقةً من أنَّ نظريتك تلائم الجميعَ. أفكّرُ في صديق لطيف لطفاً عميقاً، تجده دائماً مستعدّاً لمدِّ يد العون، لكنه لا يصيبه إلا المصائب. فلو كان قانون الجذب ينطبق كما شرحتَ لي للتو، فإنه ينبغي أن يستحقَّ السلامَ والوئام، غير أن هذه ليست حاله البتة.

- يعملُ قانون الجذب عندما يكون فكرُكِ، وأفعالُكِ، ورغباتُكِ العميقة مصطفةً على الذبذبة نفسها. فإن كان صديقُكِ يتصرَّفُ بفعل الواجب لأنه لا يعرف كيف يردُّ طلباً، فإنَّ اختياراته تختلف عن نواياه، ومن ثم لا يُفلح سحرُ القانون.

- ولماذا قد يفعل ذلك؟

- ليكون محبوباً على سبيل المثال. قد يكون يعاني من جرح عميق، يجعلُهُ يعتقد أنه لكي يحظى بالتقدير، عليه أن يساعد الآخر إلى درجة أن ينسى حاجاته. هل تظنين أن أفعاله متناسقة مع أحلامه؟

- لا، فعلاً، فقد أخبرني أنه لا يعرف أن يقول لا، ما يخلق له مشاكل في بيته. فزوجته وأطفاله يؤاخذون عليه غيابَهُ، حيث يقضي معظم وقته في خدمة الآخرين. مكتبة سُر مَن قرأ

- إن ما يجده من صعوبة في الرفض يستدعي الطلبات التي يتوجس منها. وينتهي به الأمرُ إلى إهمال نفسه.

- تبدو العمليةُ سهلةَ الفهم، لكنها صعبةُ التطبيق، لأننا لا نستطيع تحديد ما هو لاشعوري. لذلك من الضروري أن نواجه رغباتنا، وخيباتنا، وأن ننصت إلى صوتنا الداخليِّ لنتعلَّم التنسيق بين طاقاتنا لنتمكَّن من مغنطة ما نحبُّ في أعماقنا. هل ترغبين في ذلك حقّاً؟

- أجل، أنا جاهزة، لكنني لا أعرف كيف أفعل ذلك.

- إنَّ أول شيء هو أن تُعبِّري عمّا تحدثنا عنه للتو وأنتِ تتصوّرين حياتَكِ كأنها صارت واقعاً حقّاً. حاولي أن تبدئي جملتكِ بـ'ابتداءً من الآن، أنا...'».

نهضتُ واتّجهتُ نحو النافذة لأستجمع أفكاري. كان الثلج يبدو كأنه أضفى السكون على المنظر الطبيعي. أهديتُ الكلمات التي انبثقت من قلبي إلى روح الهيمالايا: «ابتداءً من الآن، أنا أثق في الحياة، هي تُقدِّمُ لي الفرصَ وأنا أغتنمها. ابتداءً من الآن، أنا أقبلُ أن أُخطئَ، فالخطأُ جزء من التحوُّل. ابتداءً من الآن، أنا أجذبُ ما

أفكِّرُ فيه، إذا كانت أفكاري إيجابيةً، فإنَّ الإيجابيَّ سيلحق بي، وإذا كانت أفكاري سلبيةً، فإنَّ السلبيَّ سيلحقُ بي. ابتداءً من الآن، أنا واعيةٌ بالبابين أمامي. ابتداءً من الآن ، أنا على سجيتي!».

انتظر جيسون لحظةً، ثم أعلنَ قائلاً: «ها أنتِ شرعتِ في عملية التحوُّل!»، فأضاء وجهي. وفي الآن نفسه، انقشعت السحب عن السماء، وأضاءت الشمسُ الغرفةَ، وكان هذا ما كنتُ أشعر به في داخلي: كان جيسون قد أنارَ داخلي. وكانت الجبال تزداد تجلِّياً كلما تفرَّقت السحبُ أكثر، كأن... كأن ماذا؟ لستُ أدري... لكن المنظر كان غاية في الجمال لدرجة أنني رغبتُ في أن أكتب عن ذلك.

انتظر جيسون أن أُركِّزَ انتباهي على النِّقاش من جديد، ثم استأنف قائلاً: «تتمثل المرحلة الثانية والأخيرة من التحوُّل في بلوغ قدرتكِ. فنحن البشر جميعُنا مختارون، وموارِدُنا لا حدود لها. لكننا كثيراً ما نضلُّ الطريق، مبهورين بأمور تافهة، ولا نعود قادرين على العثور على طريق الإبداع من جديد، فننسى جوهرَنا، ولا نعود نفهمُ إشاراتنا ولا شفراتنا. فنُبحِرُ وحيدين، في ضباب كثيف، مستسلمين لوسائل التسويق ولحياة الاستهلاك التي تمنح معنى، ولو سريع الزوال، لحياتنا اليومية. لكن يوجد بداخلنا شعلةٌ صغيرةٌ تُذكِّرُنا بأننا لسنا مغفَّلين. فأمام مرآتنا، نحن نعرف أننا نكذبُ على أنفسنا، لكن كيف السبيل إلى العثور على الطريق من جديد؟ كيف لي أن أعترف أنني ضللتُ الطريقَ طوال كلّ تلك الأعوام، وأنني صارعتُ العواصفَ لأحصلَ على ما أملكه اليوم، وأنَّ معركتي لم تصلح لشيء؟».

هززتُ كتفيَّ، لم يكن لديَّ جواب.

«الأمرُ الأولُ هو ألّا نُطلق أحكاماً على أنفسنا أبداً. كلُّ ما قمتُ به يفيدني في أن أفهم. إنَّ قَبول التحوُّل والتغيُّر هو أيضاً الاعتراف بماضينا بعطف. فمعاركنا القديمة مكَّنَتْنا من تدرُّب لا بأس به. فأنا ما أنا، واعياً بنقاط قوتي وضعفي، مع أهداف جديدة. لا ينفع في شيء أن نتّخذ موقف الضحية أو أن نشعر بالندم، فقد عشنا في انسجام مع أهدافنا السابقة.

– كنتِ خائفة من أن تقعي في الحب، لذلك بقيتِ وحيدةً طوال هذه الفترة، قال شانتي مشاركاً في الحديث. كنتِ تريدين كسب المال، فوفَّرتِ لنفسك الوسائلَ لتحقيق ذلك بواسطة العمل الكثيف المتواصل. وإن كنتِ ترغبين الآن في شيء آخر، فكلُّ شيء ممكن إن أنتِ عقدتِ العزمَ على ذلك.

– أجل، قدراتُكِ غير محدودة، يا ماييل».

لكن كيف السبيل إلى بلوغ قدراتي؟ كان يتوجب عليَّ أن أعثر من جديد على طريق تلك الحجرة الداخلية التي كنتُ نسيتُها.

«خُذْ بيدي. أنا أشعر بما تقوله، وأهرب ممّا أرغبُ فيه لأنني أخشاهُ. تعبتُ من العيش مثل إنسان آليٍّ، لكنني غير قادرة على التمييز بين ما أنا في جوهر ذاتي وما يُنتَظَرُ مني. كيف أفصلُ بين رغباتي وواجباتي، ومخاوفي التي لستُ واعيةً ببعضها؟». ما كنتُ أظنُّ أنني سابوح يوماً بهذا النوع من الأمور.

«اقبلي بالوضع، وضع أنَّكِ لا تعرفين ما ترغبين فيه في أعماقكِ.

– فإذاً، لن يتغيَّر شيء؟

– بلى، على العكس، إنَّ قبولَ ما هو كائنٌ يفتح الطريقَ للوصول إلى الحقيقة.

- لستُ أفهمُ، كنتَ تقول لي قبل قليل إنَّ على المرء أن يبنيَ حياتَهُ وهو يتخيَّلُ التتمة، وهو يتصوّرُ نفسَهُ في ما يتمنّاهُ في اللحظة الراهنة.

- إنَّ تقبُّل ما هو كائنٌ يسمح لكِ بعملية التحوُّل تلك، لأنه يُحرِّرُكِ من ثقل الماضي، ومن الخوف، ومن الأحكام، ومن الفزع من المستقبل. أنتِ تريدين أن تتغيَّري، وأن تعرفي نفسكِ كي تتحرَّري من استجاباتك الآلية. فأنت الآن على الطريق نحو تلك الشعلة الداخلية. انتبهي إلى مصادفات الحياة وفوِّضي الأمرَ للكون، الذي سيعملُ وفق قوانين الجذب. كلما ازددتِ وضوحاً وأنتِ تلاحظين ما هو كائنٌ، دون إطلاق أي أحكام، قلَّ تدخُّلُ إدراكُكِ، وتسارعَ عملُ سحر قانون الجذب.

- أتقصد أنَّ عواطفي تشوّه استجاباتي؟

- بالتأكيد، لأنَّ حياد كلِّ شيء أو كلِّ موقف تُبطِلُه إسقاطاتُنا العاطفية، والتربوية، والاجتماعية-الثقافية وحتى الدينية. وقد يكون ما يمثّل مشكلةً للبعض تحدِّياً لآخرين، ولعباً أو تجربةً لآخرين أيضاً. إذا نحن تمكَّنَّا من أن نفصل إدراكَنا عن الحدث، فإننا سنتمكَّنُ من التفكير في الحلِّ على نحوٍ أسهل، إذ لدينا جميعاً داخلنا مكانٌ حيث المعرفةُ غير محدودة، جزءٌ منّا يُذكِّرُنا أننا، ما وراء مظاهرنا، متَّصلون بشيء يتجاوزنا.

- تعني أننا متّصلون بـ... الرب؟

- سَمِّيهِ كما تشائين، فأنا لا أحبُّ أن أضع اسماً على ما هو لا نهائيٌّ. إنَّ تسميتَهُ تفرضُ حَدّاً لا يمكن أن يوجد بحكم التعريف نفسه. إنَّ ربط الاتصال بهذا المصدر الداخليِّ يمكِّننا من بلوغ كلِّ قدراتنا على الإبداع.

- أتعتقدُ أنني عندما سأقبلُ ما هو كائنٌ، سأعلمُ ما أرغبُ في إبداعه؟

- أجل، ستبدئين بسماع ذلك الصوت الصغير. هل راودتْكِ حدوسٌ من قبل؟ هل عملتِ بها؟

- ليس دائماً، لكن أعترف أنني كثيراً ما أندمُ على ذلك، لأنها تتحقق.

- نحن نُفضِّلُ أن نطلب النصيحة من محيطنا، فنمنحهم النيابةَ عنّا في حياتنا. فإن أنا فشلتُ، يكون لديَّ المذنبُ جاهزاً!».

لم تغب عني سخريةُ جيسون.

«لا أتبع غريزتي دائماً، لكنني أتحمَّلُ مسؤوليةَ اختياراتي. أحسُبُ احتمالات النجاح وأقرِّرُ أن أمضيَ في الأمر أم لا.

- إنَّما العقلنةُ طريقةٌ أخرى للتهرب من حدسنا. إننا، في العالم الغربيِّ، نُهمِلُ المصادفات، مثلما نُهمِلُ كلَّ ما يصدرُ عن النصف الأيمن من دماغنا: الإبداع، والمَلكة الفنية، والذكاء الشامل. آثرْنا استعمال نصفَ دماغنا الأيسر، مَقَرَّ المنطق والاستدلال، معتقدين أنه الوسيلة الوحيدة لحَلِّ المشاكل. لذلك نجد أنفسنا عاجزين أمام المرض، لأن الإحصائيات لا يمكنها أن تنفعنا بشيء. إنَّ بلوغَ جوهر كلِّ شيء يستلزمُ تجاوزَ الفهم، فالشفاء هو أن نُدركَ وجودَ فضاءٍ من الكمال داخلنا. يكفي أن نشعر به لنعثر عليه فوراً.

- عن أيِّ مكان تتحدّث؟ أنا ضائعة!

- الاعتلال الجسدي شكلٌ خارجيٌّ، والشفاءُ سلامٌ داخليٌّ، غير أنَّ الاثنين يتولَّدان من الفكر، ثم يتجلَّيان في الجسد. مصدر المرض إدراكُنا لنقصٍ خارجيٍّ. وتمثِّلُ الصحةُ الحوارَ المثاليَّ بين

خلايانا والوسط الذي نعيشُ فيه. وعندما نرفعُ من مستوى وعينا، فإننا نرفعُ من تردُّدات ذبذباتنا ونُقوّي نظامَ مناعتنا.

- شعرتُ بحالة ذبذبيّة مختلفة في أثناء التجربة التي أجريناها أمس، أهذا هو المكان الذي تتحدث عنه؟

- لستُ أدري. ما الذي لمستيه؟

- شعرتُ بشيء أعظم، قوةً خاصة، بُعداً أوسع لا أستطيعُ تفسيره.

- إنه التعبير المناسب: فضاء آخر يستحيل علينا بلوغُهُ بإدراكنا ذي الأبعاد الثلاثة. إننا نحبس أنفسنا داخل تصوّر ثلاثيّ الأبعاد، معتقدين أنه الوحيد الموجود. يقود الدماغُ العاطفيُّ استجاباتنا في أطوار آلية متكرِّرة، وتستحوذُ القوة الذهنية على المكان كلِّه، فيصعبُ علينا بلوغُ الطاقة الكونية التي توصِلُنا إلى حقل الممكنات غير المحدود. غير أن اليوم، لدينا وعيٌ بعوالم موازية يستحيل علينا رؤيتُها، لكننا نستطيع أن نستشعرها؛ فإنما يولد الحدس من هذا المكان. إننا نلجُ عصراً غير مسبوق، عصر الطاقة الخالصة: حقل الترددات العُليا. في هذا الفضاء، تهيمن روحُنا على استجاباتنا الآلية وتعيد برمجة خلايانا الواحدة تلو الأخرى بواسطة شفرات جديدة تُحرِّرُنا من الذاكرات الملوَّثة. ونتوصَّلُ إلى فهم آخر: نُجرِّبُ الوحدةَ في بُعْدٍ ذبذبيٍّ وحيدٍ ونحن نُدركُ أنَّ الازدواجية ما هي إلا وهم. ونبدأ بفحص شكلٍ تواصلٍ مجدِّدٍ: الحدس حيث تتجلّى الأفكارُ في اتصالها بالطاقة الكونية.

- هل يمكننا بلوغه منذ الآن؟

- إنه هنا، نحن فيه، وإذا كنّا لا نراه فإننا نستطيع أن نستشعرهُ، بإنصاتنا إلى ما يدور بداخلنا. وكما قلتُ لكِ آنفاً، كوني متنبِّهةً

للإشارات التي تصدر عن قلبكِ عند مواجهة أشخاص تقابلينهم، وللأماكن التي تُضفي عليكِ السكينةَ، والملاحظات التي تجرحُكِ، أنصتي إلى الرسالة التي تحملها إليكِ تلك الإشاراتُ وخذيها على محمل الجِدِّ. إذا أنتِ أدركتِ أنَّ مصيركِ أوسعُ منكِ وأنَّكِ جزء لا يتجزأ من كلٍّ، فستعرفين أنَّ ما يحدث إنما هو نتيجة بذرتِكِ في المصفوفة الكُلِّية. إنَّ الكون يستجيبُ لانتظاراتكِ في كل لحظة.

- أنْ أثق فيما يحدثُ لي، يبدو لي هذا الأمرُ مستحيلاً في العالم الذي أعيش فيه، حيث يجبُ عليَّ أن أُبَرمِجَ كلَّ شيء، ولا يمكنني أن أسمح لنفسي بأن أضعفَ وبأن أتهاونَ في السيطرة على زمام الأمور.

- خُوضي المخاطرة. إنَّ الأنا لا يوفِّرُ لكِ أيَّ حماية، بل مجرَّد طبقات من الوهم تُثقلكِ وتُجبركِ على البقاء مقيَّدةً إلى الأرض. اخلعي الدِّرعَ، وسيجد النورُ طريقه من خلال ثغراتِكِ.

- هل تبلغُ أنتَ ذلك البُعد؟

- أجتهدُ من أجل ذلك، أنا متنبِّهٌ وأعبِّرُ عن هذه الإرادة. أردِّدُ التوكيدات التالية على نفسي كلَّ يوم: 'أنا أومنُ بنفسي، وأشعرُ بقوّتي غير المحدودة'؛ 'أنا أُنْصِتُ إلى الإشارات التي تُرشِدُني'؛ 'أنا أحصُلُ على ما أريدُ، فأنا أستحقُّ الأفضلَ'. تساعدني هذه الإعلاناتُ على ألَّا أضعف عندما يحاولُ أنايَ أن يتدخَّلَ. ثم أطرحُ على نفسي السؤالَ الأثمن: ما الذي أرجو إبداعه في حياتي؟

- هل هذا ما وجدتَهُ في الطريقة التي سلَّمْتني إياها من أجل رومان؟

- الأمرُ أعقد من ذلك. أُفضِّلُ أن تُحدِّثَكِ عن ذلك هي نفسُها».

طرق ماتيو البابَ ودخل. كان الفطورُ جاهزاً، وكانت الساعة الثانية عشرة والنصف ظهراً، وكان الصباح قد مرّ مثل البرق الذي أصابني به إيطاليٍّ في قلبي.

كانت طبقة السحب السميكة قد اختفت، مخلِّفةً سماءً زرقاء صافية. انتابني شعور بالراحة والصفاء. وكنتُ جائعةً. . .

كيلومتر صفر

«لا شيء في العالم أقوى من فكرة آن أوانُها».
فيكتور هوغو

ونحن نتناول الفطور جميعاً، رمقني ماتيو بنظرة، فأجبتُهُ ببضع ابتسامات خجولة. ثم خرجتُ لتناول القهوة تحت الشمس. كانت الجبال تبهرني، حيث كانت أنيابُ القمم البيضاء تقطعُ السماءَ الموحَّدَة في ثلاثمائة وستين درجة. تبعني شانتي، فاعترفتُ له أنَّ حديث جيسون حول موضوع الأبعاد الموازية قد أربكني.

«هل تعتقد أنها موجودة؟

- أنا أشعرُ بحدود رؤيتنا وبحضور شيء يتجاوزنا. لستُ أدري إن كان هذا يجيب على سؤالكِ.

- هل يمكن للأحلام أن تكون جزءاً من ذلك الكون؟ في العادة، أكاد لا أتذكَّرُ حلماً، لكنني رأيتُ حلماً غريباً هذه الليلة: رأيتُنا ننطلقُ معاً، أنا، وأنتَ، ونيشال، وتيم، وماتيو بحثاً عن كنز في جبال الهيمالايا».

وفيما كنتُ أحكي تفاصيل هذياني الليلي، انغمس شانتي في

أفكاره، وأخبرني، بعد صمت طويل، أنَّ حالة الطقس كانت رحيمةً. «لن يدوم الثلج، فسنتمكَّنُ من النزول عند الفجر كما كان مقرَّراً. ارتاحي عند العصر، فسيكون النهار مرهقاً غداً». نهضَ ودخل المبنى الرئيس، وطارت أسئلتي المعلَّقة وأنا أستسلم لدفء الشمس يخترقني.

مرَّ تيم أمامي، يرافقُهُ مراهقٌ في الخامسة عشرة، اسمه ييشيه. كانا ذاهبين لشراء أعلام العبادة من عند شقيق هذا الأخير لربطها على سارية قائمة ثلاثين متراً بعيداً عن البنايات. كانت مئات قطع الثوب الملوَّنة ترفرفُ من قمة ذلك العمود، مشكِّلةً تاجاً عظيماً.

تبعتُ الولدين إلى غاية الجماعة التبتية، حيث يوجد المتجرُ المقصود، وهو كوخ قديم قرب المبنى الأخير. استُقبِلتُ بانحناءات تقدير كبيرة. كان تيم يتصرف كأنه في بيته، والتبتيون يعتبرونه واحداً منهم. وكان رجلٌ في الثلاثين من عمره يقف في حجرة داخلية، عند نهاية ممرٍّ متهالكٍ. حيَّرَهُ وجودي، فسأل شقيقه الأصغر الذي طمأنَهُ. انحنى في اتجاهي وأخفى يديه الملطَّختين بالمداد خلف ظهره.

كانت روائح المواد مهيمنةً في الورشة الضيِّقة التي لا تزيد مساحتُها عن عشرة أمتار مربعة، خصوصاً أنَّ صناديق من الورق المقوَّى المتراكمة إلى غاية السقف كانت تشغل نصفَ الفضاء. وكانت مستطيلاتٌ ملوَّنة تنتظر، فوق طاولة، دورَها لتمرَّ تحتَ المطبعة. كان الأمر يتعلق بـ'لونغتا'، وهو ما يعني «خيولٌ في الريح» بالتبتية. كان الحصان المطبوع في الوسط يُظهر جواهر البوذية الثلاث: بوذا، أي المستيقظ، والدّارما، الدال على تعاليمه، والسانغا، الذي يمثِّلُ جماعةَ الممارسين لتلك التعاليم.

كانت تظهر أيضاً على اللونغتا أربعة كائنات خارقة للطبيعة تحضر لتعزيز الحصان في الريح: غارودا أو الحارس السماوي، والتنين، والأسد، والنمر. كان الخمسةُ يمثّلون المركزَ واتجاهاته الأربع. أراني ييشيه الأثوابَ واحداً تلو الآخر ليستدلَّ بالصور على تفسيراته. مرَّرتُها إلى تيم الذي كان يُنصتُ مشدوهاً. كان الشقيق الأكبر ساكناً، ويداه لا تزالان خلف ظهره. كانت الأعلام ذات خمسة ألوان مختلفة، يحمل كلٌّ لون دلالة معيَّنة: الأزرقُ للفضاء أو السماء، والأبيضُ للهواء أو الريح، والأحمرُ للنار، والأخضر للماء، والأصفر أو البرتقاليُّ للأرض. كانت تلك الرمزيةُ تحيلُ إلى العناصر، كما تحيل إلى بوذات العائلات الخمس.

داعبتُ بإبهامي الرايةَ الأخيرة التي مدّها لي ييشيه. كانت تُسمى «أعلامُ العبادة»، لأنها تحتوي على تعويذات إلهية مهداة إلى روح الريح. فوفق أتباع البوذية التبتية، فإنَّ النسيمَ الذي يهبُّ يداعبُ عند مروره العباراتِ المقدَّسة المطبوعة، وينثرُها في الفضاء، وينقُلُها إلى الآلهة وإلى كلِّ مَن تمسّهم في طريقها. وكانت صناعة الأعلام تُجرى انطلاقاً من تلوين نقوش على الخشب وطبعها على قماش من قطن. كانت كلُّ قطعة قماش نُقِشَ عليها الإله، والتعويذة الخاصة به، ودعوات الأمنيات والرموز الميمونة.

كان ييشيه يُعلِّقُ على جميع حركات شقيقه الأكبر، الذي كان قد استأنف عمله في الورشة. «يوضع الثوبُ على اللوح المغطى بالمداد، ويُضغطُ بواسطة المدحاة ليلصق بشكل صحيح. ثم تُخاطُ الأعلامُ المطبوعةُ وتُربطُ بخيطٍ ثم تُلوى وتُجمَعُ في رِزمات». ضرب بكفه ضربتين على صندوق ورقيٍّ مليءٍ ليُعلن عن نهاية الربورتاج، ثم اتَّخذ مظهراً متواطئاً وهو يغيّر في صوتِه. «إنها جاهزة للكشف عن

أسرارها للريح، لذاك الذي، أو تلك التي، سيحرِّرُها...».
ابتسمتُ وتيم لهذه الكلمات الأخيرة.

اشتريتُ عشرة لفافات بـ250 روبية، وهو ما يساوي بالكاد 2 يورو. أعطيتُ واحدةً لتيم، وأخرى لييشيه، واقترحتُ على الفنان أن يُشرِّفنا بمصاحبتنا إلى السارية ليربط واحدةً معنا. ابتسم ووافق بحماس. فتَّشَ في صناديقه الورقية وأخرج رايةً رائعةً، في وسطها حصانٌ مهيبٌ مطرّزٌ بخيوط من خمسة ألوان، يحيطُ به عدد من التعويذات المطبوعة باللون الأسود. ترجم لي ييشيه الكلمات التي كان شقيقه يخاطبني بها بالتبتية: «هذه الراية هديّة إليكِ، ستجلبُ لكِ الحظَّ». نظرتُ إليه بتأثُّر وهو يلفُّها في ورق جرائد.

وعلى الرغم من شمس الظهيرة الحارقة، كانت درجات الحرارة السلبية تحافظُ على طبقة الثلج المتساقط في أثناء الليل فوق الأرض. درنا حول المباني، في اتجاه سارية الأدعية. نادى علينا ماتيو من أسفل الساحة: «انتظروني!» ولحق بنا بخطواتٍ سريعة وسلَّم على الأولاد الثلاثة.

«كنتُ أبحث عنكِ»، قال لي بحنان، مثبِّتاً عينيه في عينيَّ، ثم مرَّرَ يداً في شعره الأسود. كانت لحيتُهُ الخفيفة تكسو غمّازةَ ذقنه، ويرسمُ خدّاهُ المحفوران وجهاً بارز العظام. لم أقدر على أن أنتزع نفسي من عينيه. كان هذا الرجل يجعل قلبي يدقُّ كلما دنا مني. مددتُ له لفافةً. «أتأتي معنا؟».

كان المنظرُ فريداً، حيثما وقفنا. كنا نسير في سفح الجبل باتجاه المكان المقدَّس، وتصفعنا هبّاتُ ريحٍ جليديةٌ. راقبتُ ييشيه وشقيقه وهما يفكّان أعلامهما بحرصٍ ويهديانها للريح، وفعلتُ ما

فعلاه، فقلَّدَني تيم وماتيو. نظرتُ إلى كلِّ راية من راياتي المتوزِّعة حول حصاني الذي كان يتربَّعُ في المركز.

ربطنا خيوطَنا الواحدَ تلو الآخر إلى الشرائط الموجودة المتشابكة، ثم شرع التبتيان في الصلاة في صمت. شعرتُ أنا أيضاً برغبة في التأمُّل لحظة. طلبتُ من حصاني أن يُضفي الطمأنينة على كلِّ شخص يمرُّ به، وأن يحلِّقَ إلى غاية رومان ليشفيها. أحسستُ، من أعلى قمم الهيمالايا، بصدري ينشرحُ ويُطلِقُ حُبّاً انبثق من قلبي. هزَّني ذلك الإحساسُ من الأعماق. فتحتُ عينيَّ ولمحتُ الرجالَ الأربعةَ، وقد ضمَّ كلٌّ منهم يديه. لم أكن مؤمنةً، لكن شيئاً غريباً كان يحدث، شعورٌ بالعظمة، وبالسلام الداخليِّ. تصوّرتُ صلواتي وهي تمتزج بصلوات الآخرين كأننا نعزف معاً سمفونية حيواتنا، على الرغم من شدة اختلافها. لحظة مشتركة. تقاطعٌ في سبل وجودنا. كنا هناك في المكان نفسه، وفي الوقت نفسه، وفي الذبذبة نفسها، لنُهديَ العالمَ طاقتَنا الرائعة. فتحوا أعينهم، فنظر بعضُنا إلى بعض في مشاركة صامتة.

«يجب علينا أن نعود إلى العمل»، قال ييشيه وهو يودِّعنا. نزل الشابان رفقة تيم، وجرَّني ماتيو إلى ظهر سارية الصلاة. كانت أقدامنا تغوص في الثلج كأنه أرضٌ سبخةٌ. «انظري إلى كل مجموعات الرُّكَام[1] الصغيرة تلك، لنصنعْ، واحداً معاً»، قال وهو يتوغَّلُ بين الصخور. كانت العشراتُ من أكوام الحجارة من جميع

---

(1) نوع من الأهرامات الصغيرة المشكَّلة من الحجارة يقيمُها متسلِّقو الجبال والمستكشفون لتكون معالم يُستدَلُّ بها على مرورهم من ذلك المكان - المؤلِّفة.

الأحجام تنتصب أمامنا، بعضُها يقوم على الأرض مباشرة، وبعضها الآخر موضوعاً فوق صخرة، والبعض أيضاً على شكل مربَّعات مُخمَّسة. كانت تشير إلى هبةٍ، أو أملٍ، أو أمنية، أو شكر، أو ألف شيء آخر...

جمع ماتيو حجرَين غليظَين مسطَّحَين وثبَّتَهما فوق صخرة. «إنهما الأساساتُ. والآن جاء دورُكِ لتضعي حجرَكِ». عثرتُ على حجر ووضعتُهُ وسط حجريه. وهكذا رفعنا بناءنا بالتناوب. كان ذلك المشروعُ المشترَكُ يغمرني حماساً، وقلبي يخفق بقوة. وبعد أن راكمنا حوالي عشرين صخرة صغيرة، اقترح عليَّ ماتيو أن نعبِّر عن أمنية، من أجلي أنا فحسب.

أغمض عينيه ليركِّز انتباهه، وفعلتُ مثله. أمنية من أجلي أنا؟ كل تلك العواطف منذ بضعة أيام... لم أعد أعرف ما الذي سأطلبه. تنفَّستُ بعمق. أحسستُ بالريح الباردة تتدفَّقُ من منخريَّ. كان رأسي فارغاً، وتركتُ الهدوءَ يستقرُّ. وعبَّرتُ، كأنما الأمر بديهيٌّ، عن أمنيتي في أن أعثر على طريق السعادة. فتحتُ عينيَّ، فأهداني ماتيو ابتسامةً، أجبتُهُ بمثلها. كانت ألوانُ السماء آخذةً في التحوُّل. اجتاحتني رعشةٌ، فأحاطني ماتيو بوشاحه، وتحلَّقَ عطرُهُ حول عنقي. فركَ ظهري، فاستسلمتُ له. ضمَّني بين ذراعيه، وأحطتُ خصره بذراعي. وددتُ لو قبَّلني. لكن لم يفعل! رافقني في الطريق إلى المبنى الرئيس، حيث كان شانتي ينتظرنا حاملاً غطاءين وضعهما على كتفينا. وبعد أن تدفَّأنا قرب الموقد المتوهِّج، خرجنا ثلاثتُنا من جديد لنشاهد غروبَ الشمس في قلب معبد أنابورنا. الألوان نفسُها، وعواطف متماثلة لكنها فريدة كل مساء رغم ذلك.

*

كانت أطباق المومو المقلية، وأخرى مطهوّةٌ بالبخار تمزجُ روائحَها بشربة خضروات. ملأ ماتيو زبادينا ثم جلس على المقعد الخشبيِّ الذي كنا نتشارك الجلوس عليه. كان جيسون يجلس قبالتي، وقدَّمَ لي صحناً من المعجنات. صاحبَنا صمتٌ قصيرٌ في أثناء استمتاعنا بذلك العشاء. كنتُ أشعر بنفسي بخير، وحيَّة، وإذ بشانتي يطعن سلامي بضربة سكين. كان قد أخبر جيسون بحلمي! كدتُ أختنق وأنا أبتلع الطعام، وتحوَّلَ شعوري بالهناء إلى شعور بالسخافة. رميتُ مرشدي بنظرة سوداء، آملةً أن يُخلِّصني من هذه الورطة.

«مايل، أعتقد أنكِ تُمسكين بالمفتاح الذي ينقصُنا، قال جيسون بنبرة جادَّة. اسمحي لي بأن أشرح لكِ الأمر: لقد سمعنا مؤخراً عن حكيم قد يكون لجأ إلى الهيمالايا منذ مدة قصيرة، بعد أن عمل فترة طويلةً على العلاقات الإنسانية. وتؤكِّدُ لنا الأساطيرُ التي تدور حوله أنَّ معتقداتنا قد لا تكون صحيحة، ونحن مقتنعون من أنَّ نظرياته يمكنها أن تُغيِّرَ روابطنا وتحمل رؤية مختلفة للإنسانية.

- ما هذه الحكايات الجديدة؟ من هو هذا الحكيم؟».

أطلقتُ عبارات سخريتي المعتادة دون أن يبدو على جيسون التأثُّرُ بذلك ودون أن يفقد جدِّيةَ نبرته.

«لا نعرف ذلك حقّاً، لكننا حلمنا الحلمَ نفسَه جميعاً.

- أيّ حلم؟

- الحلم نفسه الذي رأيته أنتِ».

التفتَ نحوي ماتيو مندهشاً.

«هل أنتِ أيضاً سمعتِ نداءَهُ؟

- مهلاً، مهلاً! لستُ أدري عمّا تتحدثون. رأيتُ حلماً لا معنى له على علوِّ أربعة آلاف متر، نذهبُ فيه أنا، وأنتَ، وشانتي، وتيم، ونيشال، للبحث عن كنزٍ ما. لكن لا وجود للكنوز. ثم استيقظتُ هذا الصباح. هذا كلّ شيء. نقطة نهاية! يبدو لي ضرباً من الهذيان أن نحاول تأويل أيِّ شيء في هذا الحلم!

- الغريب في الأمر هو أننا أنا، وماتيو، وشانتي، رأينا الحلمَ نفسَهُ، في الليلة نفسها. بيد أننا نبحثُ عن ذلك الرجل منذ عدة شهور. حدَّثني شانتي عن تفاصيلٍ في حلمكِ، يمكنها إذا ما أضفناها إلى تفاصيلِ أحلامنا، أن تكشف لنا عن المكان الذي يوجد فيه هذا الرجل».

كنتُ حائرةً. واصل مرشدي الحديثَ:

«أذكرُ أنني رأيتنا ننزلُ الطريقَ في اتجاه شومرونغ، وكانت الأنابورنا واحد غرب الأنابورنا اثنان على يميننا. تعرَّف جيسون على الجسر الذي يعبر كيمرونغ كولا، ورأى ماتيو حقولَ الدخن قبالةَ ماتشابوتشير، وأنتِ يا مايِل، أضفتِ إلينا معلومةً مهمَّةً...

- لستُ أدري حقيقةً ما هذا الأمر المهم الذي رأيتُهُ في الحلم!

- رأيتِنا ونحنُ نستحمُّ».

تعجَّبَ ماتيو: «عيون الماء الساخنة!». أخرج جيسون خريطة الجبال ونشرها فوق الطاولة بعد أن أفسحَ لها المكان. «استنتجنا من ذلك مع شانتي أن الأمر يمكن أن يتعلق بمكانَين محتملَين، أحدهما قربَ سينوا، على بعد مسير يومين، والآخر أبعد من ناحية الشرق». انكبَّت الرؤوس على الخريطة. تنحنحتُ واستأنفتُ الكلامَ بنبرة منفعلة: «عذراً على الإلحاح، لكن ألا تعتقدون أنَّ حاجتنا إلى التغيير تُحرِّكُ خيالنَا أكثر من اللازم؟ ما ذلك الشخص سوى

أسطورة، سمعتم عنه حديثاً غامضاً، لم يرَهُ أحد، وتُخمِّنون أعمالَهُ باعتبارها ثوريةً. عودوا إلى الواقع... أو 'إلى الحاضر'، كما تقولون!».

لم يلتفت الرجالُ الثلاثة إلى ملاحظاتي. لم أكن أستطيع أن أتصوَّر أنَّ هؤلاء الأشخاص، ذوي الذكاء فوق المعدَّل، يمكنهم أن يشطحوا في أفكارهم بهذه الطريقة. «أنا واثقٌ من أنه يتوجب علينا أن نتجاوز ما هو مرئيَّ. إنَّ الحدسَ، كما شرحتُ لكِ هذا الصباح، هو جزء من ذلك البعد الذي قد يصبح أفضلَ مرشد لنا في وقت قريب. نحن لم نحلم صدفةً بأمور متطابقة في الليلة ذاتها». وصمتَ جيسون لحظةً ثم استأنف حديثه متأمِّلاً:

«ليس لديَّ دليل أُدلي به الآن، لكن سيحدث ذلك قريباً.

- فلنذهب لنرى بأنفسنا، مهما يكن الأمر... ما الذي سنخسر؟ اقترح ماتيو.

- فعلاً، إنْ كان لديكم وقت تهدرونه... أما أنا، فيتوجب عليَّ الرجوعُ إلى الديار!».

لم تحرِّك فيهم استجابتي ساكناً. أغاظتني مثاليتهم. خرقَ شانتي جليد الصمت. «أقترح أن نتواصل صباح غد عند بزوغ الشمس لنُقرِّر الوجهة التي سنسلكُها»، قال بتلقائية مطلقة، فاستعادت عيناهُ الضاحكتان بريقَ الفرح، وانصهر جيسون وماتيو في الطاقة نفسها. وبقيتُ مشدوهةً أمام هذا الاقتراح الجديد. نظرتُ إليهم حائرةً؛ كان من الواضح أنهم ينتظرون مني إجابةً. أصرَّ ماتيو: «هل أنتِ مستعدة أن تخوضي معنا تجربةَ الحدس؟ يتعلَّقُ الأمرُ بأن نركِّزَ انتباهنا لحظةً قبالةَ سحر طلوع الشمس ونحاول أن نسمع صوتَنا الداخليَّ الصغيرَ، فمن المفترض أن يكشف لنا إحدى الوجهتين. وسنقارنُ النتائج».

زفرتُ متضايقةً، واعترفتُ لهم بموقفي حتى لو حسبوني متخلِّفةً: «لا داعي أن أقول لكم إنني لم أعد أستطيع أن أسايركم! من الأفضل لكم أن تُجروا التجربة من دوني.

- حضورك مُهِمٌّ، يا مايبل، أصرَّ جيسون. ليس لديك ما تخسرينه إن جرَّبتِ الأمر.

- ليس من المهم أن تشعري بشيء أو ألّا تشعري»، شرح لي ماتيو وهو يمسكُ بيدي.

عبرت جسدي دفقةٌ كهربائية، وذكَّرتني رقَّةُ عينيه ونعومةُ أصابعه على أصابعي بواقعي القاسي: لقد وقعتُ في حب شخص مهووس!

«أنتِ تحضرين بزوغَ الشمس كلَّ صباح، والمنظر رائعٌ من داخل المعبد، لن يكون عليك إلا أن تنظري، أضاف شانتي.

- ثلاثة ضد واحد... هذا ليس عدلاً! أستسلمُ. لقد انتصرتُم، سآتي غداً، لكن لا تنتظروا مني أن أتبعكم. يجبُ عليَّ أن أنزل الجبل لأغادر».

سحبتُ يدي برفق من يد ماتيو، وطمأنني شانتي قائلاً إنه سيفعلُ ما سأقرِّرُهُ وسيرافقني إلى مطار كاتماندو كما كان مقرَّراً.

كان القمر يطلع، فانصرفتُ لأنام.

*

في صباح اليوم التالي، تزاحمت الأفكار في رأسي، وبدا لي احتمالُ النتيجة المتطابقة ضعيفاً.

«لا تقلقي بشأن الغاية، أجابني شانتي. حاولي أن تنظري إلى كلِّ ما يتجلى أمامك من خلال مصفاة قلبكِ، دون أن تنشغلي بما سيحدث في الدقيقة التالية. ركِّزي انتباهكِ على جمال المنظر كأننا

نعيش لحظاتنا الأخيرة. وإذا ما عبرتْ فكرةٌ ذهنَكِ، لا ترفضيها، دعيها تمُرُّ مثل سحابة في المشهد الطبيعيِّ. عودي إلى الواقع. استمتعي بروعة ما هو كائن. املئي نفسك بهذه الطاقة الجميلة».

كانت الألوان البرتقالية تدفِّئُ القمم المكسوَّةَ بالثلوج، والمجمَّدةَ بفعل برودة الليل الشديدة. وكان الظلام يُفسِحُ المجالَ للضوء، وانعكاساتُ الجبال المعدنية كأنها لعبة مرايا، توحي بوجود شموس عديدة تلمع. كنّا في وسط سلسلة الأنابورنا، وكنتُ أشعر بنفسي في أحسن حال.

وفجأةً، تراءتْ لي صورةُ رومان، فكدَّرَ إحساسٌ بالظُّلم تجاه مرضها صفاءَ اللحظة. تذكَّرتُ كلمات شانتي فتركتُ تلك الأفكار تمرُّ فتشتَّتتْ في الوادي، وعدتُ إلى الأنوار التي استحوذت على انتباهي فشعرتُ بمتعة عظيمة. ثم قطعتْ صورةُ حلمي هذه اللحظةَ المعلَّقةَ. لم أتمكَّن من إخراجها من رأسي: كنا ننزل نحن الثلاثة بمساعدة حمّالينا عندما رأيتُ لافتةً خشبية مثبَّتة على عمود، كُتِبَ عليها «تشونغ» باللون الأبيض. لم أكن قد سمعتُ عن ذلك المكان من قبل. لماذا كان هذا الحلم يسكنني إلى هذا الحد؟ هل نجحوا في غسل دماغي بحكاياتهم الغريبة؟ كلّا! كان ينبغي لي العودة إلى الواقع، فكان ثلاثمائة أجير ينتظرون عودتي من مغامرتي الصغيرة. واختفتْ هذه الفكرةُ مثل سابقاتها. ألقيتُ نظرةً خاطفة حولي: كان الرجال الثلاثة المستغرقون في تأملهم ساكنين. بزغت الشمس قبالتنا، وأضاءتنا بأشعتها الدافئة. استسلمتُ لفعل سحرها، مركِّزةً كلّ انتباهي على روعتها. لا يمكنني أن أقول كم من الوقت مضى، لأنه بدا وكأنه لم يعد موجوداً. خرج رفاقي من سباتهم، ومن دون أن ينبسوا بكلمة، التفتوا نحوي.

«ألم تجدي هذا الشروقَ رائعاً؟ سألني شانتي مبتسماً بابتهاج.
- أوه... بلى، مدهشٌ!»، أجبتُ متلعثمةً.

صاحبَ الصمتُ لحظةً استيقاظَ الطبيعة. أنصتُّ إلى حفيف ذوبان الثلج، وأنفاس الريح الصاعدة من الوادي وهي تحمل روائح الخشب المحروق والقهوة إلى منخرَيَّ.

نهض جيسون. اقترح أن نلتقي عند الفطور، وتبعهُ شانتي. اقترب مني ماتيو، فتسارعت دقاتُ قلبي. وقف خلفي وأحاطني بذراعيه وهو يُحدِّقُ بنظره في اتجاهٍ موازٍ لنظري، قبالةَ كرة النَّار. لم أجرؤ على أن أتحرك. همس في أذني: «أفضِّلُ أن أمسكَ بك. لا يدري المرءُ ما يمكن أن يحدث معكِ... يمكنك أن تفكِّري في أن يُغمى عليكِ من جديد».

ابتسمتُ، ثم حبستُ أنفاسي. أحسستُ بحرارة نَفَسِهِ قرب صدغي حيث وضعَ قبلةً. شهقتُ شهقةً عميقةً لتلطيف حريقي الداخلي والتفتُّ نحوه ببطء، وأنا أحاول أن أقرأَ في عينيه. أشعلتْ شفتاهُ شفتيَّ، والتهبَ جسدي المتَّقدُ عند أول تماسٍّ بيننا.

لم أكن قد أحسستُ بذلك الإحساس منذ زمن طويل. انكمشتُ بين ذراعيه لحظةً، مذعورةً من شدة انجذابي إليه. قبَّلني من جديد، فاستسلمتُ لقبلاته. غاص بنظرته في نظرتي قبل أن يحيطني بذراعه ليُعيدني إلى الداخل. ابتهج شانتي لتقاربنا ولم يتردَّد في أن يُخبرنا بذلك. «كيف الحال أيها العاشقان؟». احمرَّ وجهانا كلانا وسط النظرات المتواطئة. جعلني ماتيو أدورُ حول نفسي وأنهى الحركةَ بانحناءة في اتجاه الحضور، ولم يتأخَّر التصفيقُ. اتخذ مكانه إلى جانبي وهو يقدِّمُ لي فنجان شاي ساخن. كانت حرارةُ الموقد تأجّج روائحَ الخبز المحمّص والعسل المدفَّأ، وجلبتْ ميريا فطائر ساخنة.

وبينما نحن نلتهم وجبتَنا الأولى في النهار، اعترفتُ له، متأسِّفةً:

«حاولتُ جهدي في إنجاز التمرين هذا الصباح، لكن لم تظهر لي أيُّ وجهة من الوجهتين.

- ولا أنا، كان قلبي في مكان آخر، قال ماتيو متنهِّداً.

- من جهتي، بدا لي أنني تعرفت على غابة صنوبر، إلا أنها ليست علامة يمكن أن نهتدي بها، قال جيسون وهو يحكُّ رأسَهُ.

- لديَّ إحساس أنَّ الوجهة الأولى هي الصحيحة، أكَّدَ شانتي. لا تسألوني لماذا، فليست لديَّ أيُّ فكرة».

استذكرتُ اللافتة الخشبية التي لمحتُها هذه الليلة، فذكرتُ لهم، هكذا دون تفكير، الاسم الذي رأيتُهُ في حلمي: «تشونغ». نظر جيسون وشانتي أحدهما إلى الآخر، متسائلَين، ولم يبدُ أنَّ أحدهما يعرفه. غابَ الأمريكيُّ لحظةً ثم عاد صحبة شابٍّ تبتيٍّ نشرَ أمامنا خريطةً مفصَّلةً. لم يكن ذلك الاسم مجهولاً بالنسبة إليه، لكنه لم يكن يعلمُ مكانه بالتحديد.

فحصنا خريطة ضاحية المكانين اللذين أشير إليهما أمس، وكلٌّ واحد منا يدقِّق، سنتمتراً سنتمتراً، في الخريطة التي قسمناها افتراضيّاً. لم يكن هنالك شيء يشبه اللافتةَ التي رأيتُها. رفعتُ رأسي، فبدا الشابُّ التبتيُّ منهمكاً في التفكير، عيناه شبه مغمضتَين. كان تركيزُهُ واضحاً جليّاً في التجاعيد العمودية الخفيفة التي تخترق جبهته. قطعَ الصمتَ وهو يصيح بجمل تُعلن عن الفوز.

لقد وجد ما كنا نبحث عنه. «تشونغ » تعني «تجمُّع» في لهجة تبتية قديمة. كان السكان المحليون يستخدمون هذه الكلمة ليجتمعوا ويتبادلوا الحديث حول جولاتهم الأخيرة قبل أن يتفرقوا من جديد.

وكانت مراعي عديدة تحمل هذا الرمز ناحية الإفريست. صمتَ التبتيُّ ووضعَ يديه أمام وجهه، حكَّ عينيه، ثم واصل كلامه، واستمرَّ شانتي في ترجمة ما يقول. قال إنَّ نُزلاً كان قد بُنِيَ على شرف أولئك الرُّحّل في منطقة سينوا.

ارتمى الرجالُ على الخريطة وحدّدوا مكانه بسهولة. كنا نبعد عنه بحوالي كيلومترَين. اتجهت جميعُ النظرات نحوي، فتراجعتُ خطوة إلى الخلف، وابتسم لي جيسون بحماس: «شكراً، يا مايبل، أعتقد أننا نقتربُ من الهدف هذه المرة». غير أني التفتُّ، متشكِّكةً، نحو ماتيو الذي كان يحدِّقُ فيَّ بعينيه البُنِّيتين. رجاني أن أرافقهم: «نحن بحاجة إليكِ لتحقيق التحوُّل».

شعرتُ بالدُّوار، فالتقطتُ معطفي وفنجان شايي وخرجتُ لأستنشق بعض الهواء التقيّ في الخارج. تبعني ماتيو، لكن أوقفهُ شانتي بحركة من يده، مستشعراً حاجتي إلى الوحدة. اقتعدتُ صخرةً قبالةَ الشمس. لم أعد أعرف حقيقةَ وضعي: كان قلبي يخفق من أجل هذا الرجل الذي أكاد لا أعرفه، لكن كانت حياتي تنتظرني في فرنسا. كنتُ قد حصلتُ على المخطوط من أجل رومان، ولم يكن من المعقول أن أنخرط في مسابقة للعثور على كنز تخيَّلَه باحثون مثاليون. كانت أحلامي محيِّرة، وكان كلُّ شيء مشوَّشاً. لم أعد أعرف ماذا كان عليّ أن أفعل. كانت رغباتي تمتزج بمخاوفي. كان عليَّ أن أعود، غير أنَّ أمراً ما كان يدعوني إلى أن أخوض هذه المغامرةَ السخيفة، فقد سبق لي أن تصرفتُ بغباوة تحت تأثير الحُبِّ، وكنتُ لا أزالُ أتذكَّرُ المآل الذي قادني إليه ذلك: إنهاكٌ مدَّةَ ثمانية أشهر! لن أسمح بأن أقع في ذلك مرة أخرى: سأرجعُ إلى باريس كما كان مقرراً!

كان شانتي واقفاً إلى جانبي، ولم أترك له الوقتَ ليُغويني:

«فكرتُ في الأمر مليّاً، ويجب عليَّ أن أعود.

- أنتِ صاحبة القرار».

حدقتُ فيه وقد أدهشتني سرعةُ استسلامه. ظلَّ صامتاً، ونظرُهُ مسحورٌ بالملكوت المتجلِّي أمامه، كأنه يكتشفه لأول مرة، وكانت الجبال تلمعُ.

«ماذا كنتَ لتفعل لو كنتَ مكاني؟

- كيف لي أن أعرف ذلك؟ لا أحد سواك في مكانك!

- أنتَ لا تساعدني كثيراً. يتعذّر عليّ الإيمان بالمصادفات، وتخيفني هذه الحكايات. ويجب عليَّ أن أعود، فالعمل في انتظاري.

- أين تكمن المشكلة إذاً؟

- أشعر أن أمراً ما يحثني على البقاء.

- أمرٌ ما أم شخص ما؟».

ابتسمتُ بانفعال.

«ماتيو، بطبيعة الحال، لكنني لا أودُّ أن أسقط في أخطائي السابقة. يُرهبني أن أغوص من جديد في قصة حبٍّ تأسرني جسداً وروحاً.

- ماتيو من مدينة ميلانو، وسيعود إلى إيطاليا بعد بضعة أيام. أنتما تقطنان متجاورين، فلا شيء سيمنعكما من أن تلتقيا من جديد عند عودتكما. خذي مهلةً للتفكير في أثناء غيابه، إن كنتِ لا تودِّين أن تستعجلي الأمر».

شربتُ شايي الذي صار دافئاً بجرعات كبيرة، وأحسستُ به

ينزل طولَ مريئي المتجمِّد إلى غاية معدتي. نظرتُ إلى شانتي. «يحزنني أن أتخلّى عن هذا اللقاء الافتراضيّ، فالعقل يفرضُ عليَّ أن أعود، غير أني أسمعُ صوتاً داخليّاً صغيراً يتوسَّلُ إليَّ أن أبقى. لا أدري كيف أشرح لكَ الأمرَ!». نهض شانتي، وربَّتَ على كتفي واستنتجَ بنبرة راضية: «لديكِ الجواب الذي تبحثين عنه!». وتركني وحدي.

أيُّ جواب؟ ما الذي كان يقصد؟ «كُفِّي عن إنكاري». تبيَّنتُ الصوتَ بجلاء، فانتفضتُ مندهشة، والتفتُّ: لا أحد. هل كنتُ أفقد صوابي؟ غير أنني شعرتُ بحضورٍ مُطَمئنٍ، فتلاشى قلقي. كنتُ أُدركُ ذلك في أعماقي: كان ذلك الصوتُ الداخليُّ الصغيرُ الذي حدَّثني عنه جيسون حاضراً من أجلي دائماً. كنتُ أتهرَّبُ منه خشيةَ أن أضطرَّ إلى أن أتحمَّلَ نتائجَ خياراتي، لكنني كنتُ أرغبُ اليوم في أن أتبعه، وإنْ بدا غير معقول. ولأول مرة، وددتُ أن أثقَ فيه. كانت قوة تدفعني، فقد آن الأوانُ لتجريب أمر جديد: كان ينبغي لي أن أحترمَ حلمي.

هدَّأَتْني هذه الأفكار. كان شانتي قد علَّمني الإنصاتَ إلى جسدي، فاستغرقتُ فترةً صغيرةً أستكشفُ استجاباته. كان مسترخياً، فأحسستُ بالارتياح. كنتُ قد اخترتُ القرارَ الجيِّد.

انتظر شانتي عودتي مع تيم ونيشال اللذين كانا يستكملان جمعَ الأمتعة.

«هل أنتم مستعدّون لمواصلة المغامرة؟ سألتُ مرشدي الذي ضمَّني بين ذراعيه.

- أكثر من أي وقت مضى!».

كانت هذه المرة الأولى التي نتصرّف فيها بتلك الألفة. انفصلتُ

عنه وبحثتُ، قلقةً، عن ماتيو وجيسون. كان الأول يجمع أمتعتَهُ فيما سيبقى الثاني ليهتمَّ بشابَّة تبتية، وكان غومار سينزلُ رفقته فيما بعد. كان الانطلاق سيكون بعد ربع ساعة، وكان ينتظرنا نهارُ مشيٍ طويلٌ إلى غاية تشونغ.

شعرتُ بالضغط يرتفع، فتشنّج وجهي، وفجأةً لم أعد واثقةً من طموحاتي.

«لقد اتخذتِ القرارَ الصائبَ، طمأنني شانتي.

- لكن، ماذا إنْ كانت كل تلك الصور مجرد وهمٍ؟

- استمتعي بالطريق، ولا تبحثي عن النتيجة. إنما السعادة حالة ذهنية، ولا تتعلق بما سيحدث فيما بعد ولا بأمر خارجيٍّ. إنها تبدأ هنا والآن.

- لكن، يا شانتي، إن لم نعثر على ذلك الحكيم، فإننا سنكون قد بذلنا كلَّ هذه الجهود عبثاً.

- الأمر متعلِّقٌ بأهدافكِ. هل أنتِ تسعين إلى لقاء هذا الشخص أو إلى أن تكوني سعيدةً؟

- لا يتمُّ أحدُ الأمرين دون الآخر في هذه الحالة تحديداً. فنحن نقوم بهذا المسير غير المبرمج من أجل العثور على تعاليم معيَّنة. سأكون راضيةً إذا ما تعرَّفنا إليه، هذا... إنْ كان موجوداً أصلاً!

- هذه مشكلة متكرّرة في عالمنا الحديث: النتيجة! يمكن لتعيين الوجهة أن يكون مفيداً، غير أنَّ التركيز على الهدف يُنسينا الرحلةَ. إنَّ هوسنا بالنتيجة يولِّدُ خوفَنا من الفشل، فنعاني من الريبة إلى أن تصل اللحظةُ المحتومةُ: إما أن نصل إلى هدفنا، ونعيِّنَ هدفاً آخر

ونقلقَ من جديد، وإما لا نصل إليه، ونسقط في براثن الغرق مُعزِّزين فكرةَ قيمتنا الهزيلة، فيصبح هنا الهدفُ صدمةً. إن النتيجةَ ليست سوى واقعة، لحظة قصيرة بين رحلتين. أتعتقدين أنَّ السعادة تنحصر في لحظة قصيرة إلى هذا الحدّ؟

- كلاَّ، ولكن... من الصعب فصلُ حركاتي وأفكاري عن هدفي. ثم، أُذكِّرُكَ أنَّكَ علَّمتَني أنَّ أمنياتنا تتحقق عندما نتصوّرُها.

- هذا صحيح، إنْ تعلَّق الأمرُ بتنسيق أفعالكِ، لكن ليس من أجل إنماء أفكار سيِّئة على أرض الخوف الخصبة. هل تُدركين أنك لا تعيشين إلا في خشية ممّا قد يحدث؟ إنَّ السعادة في مكان آخر. إنها منفتحة على كل ما يحدث. تتغذّى على سحر الحاضر، وكمال اللحظة الراهنة، والخطوة التي تخطينها في تناغم مع الوردة التي تتفتح. إنْ أنتِ سمحتِ لمخاوفكِ أن تسجنَكِ في المستقبل، فلن تستطيعي أن تعيشي السعادة أبداً. ليس الهدف سوى نقطة وصول، هو جزء من الرحلة مثله مثل نقطة الانطلاق، لكنه ليس الرحلة ذاتها.

- تقصد ألَّا فائدة من عثورنا على ذلك الحكيم من عدمه؟

- ما أشرحه لكِ هو أن لا فائدة من التركيز على النتيجة. لا أنا ولا أنتِ نملكُ اليقين حول ذلك اللقاء، وأفضل طريقة للعثور عليه هي أن نكون يقظين تجاه كل ما يحدث. لكن مهما يكن المآلُ، فإنَّ الهدف هو الاستمتاع في كل ثانية، وبذلك ستكون الرحلةُ ناجحةً. لا تكمن السعادةُ في الكيلومتر النهائيِّ الذي لن يوجد أبداً، بل في الكيلومتر صفر، الذي يبدأ في كلِّ لحظة».

ابتسمتُ، وقد اعترتني رعشةُ إعجاب. كان شانتي مُحِقّاً، كنتُ أتخيَّلُ سيناريوهات وأختلق مشاكلي: هل اتخذتُ القرارَ الصائب؟

وماذا إذا لم نعثر على ذلك الحكيم؟ وماذا لو أنَّ ماتيو ليس بالشخص المناسب؟ وماذا لو، ولو، ولو... فلنستمتعْ باللحظة الراهنة فحسب! وشعرتُ بالارتياح.

«إن الأمر بسيط في النهاية، يكفي أن نكفَّ عن التركيز على النتيجة وأن نتوقف عن التفكير فيها!

- أو أن ننقلها إلى موقع آخر. إذا كنتِ تعتبرين أنَّ هدفكِ هو أن تكوني سعيدةً، فاعلمي أنَّ كلَّ ثانية هي النتيجة. فلا فرق بين الطريق والهدف منه.

- يا لذكاء ذلك! النتيجة حاضرةٌ مسبقاً في كلِّ لحظة من لحظات الرحلة.

- أجل. إن واقعة لقاء ذلك الشخص أو عدم لقائه لا يمكن أن يكون لها أثر على حُسن حالنا وراحتنا. إنَّ سعادتكِ تتجذَّرُ فيكِ عند الكيلومتر صفر. تذكَّري ذلك، إنه السرُّ الأوحد».

كان شانتي بارعاً في إرجاعي إلى مسؤولياتي الذاتية. أدركتُ أنه لا يمكن لشيء أن يؤثِّرَ في حسن حالي إنْ أنا لم أسمح لأفكاري بأن تُلوِّنَه. كان يكفي أن أقرِّر وأن أعملَ وفق ذلك القرار. كنتُ أريدُ أن أعيش من دون هذا الخوف. لا يهمُّ إن عثرنا على شخص في آخر الطريق، أو إن كان ماتيو رجل حياتي. كنتُ أرغب في أن أكون سعيدةً، أن أستمتع بهذه اللحظات دون أن أفكِّرَ في النتيجة، أن أتلذَّذ بكلِّ ثانية في متعة اللحظة الراهنة، وفي اكتشاف من أنا، دون أن يتوقَّفَ ذلك على مباركة الآخرين ولا على الخشية من الفشل. أردتُ أن أذهب لأرى ما يحدث في تشونغ. كنتُ ذاهبةً إلى هناك لأنَّ قلبي كان يطلب مني ذلك وكنتُ أودُّ أن أعيش هذه التجربة، تجربة الطريق، تجربة الوثوق في الحياة.

أسرعتُ بالانصراف لأجمع آخر أمتعتي، ثم التحقتُ ببقية المجموعة الذين كانوا ينتظرونني أمام الباب الخارجي في الساحة الصغيرة. تمهَّلتُ في نظري إلى عيني ماتيو، ثم شكرتُ جيسون وغومار، اللذين ضممتهما بين ذراعيَّ طويلاً.

الحدس

«الحدسُ شعاع برق يُعيرنا إياه الرب».
آن باراتان

كان المنظر الذي نُشرفُ عليه ونحن ننزل طريقاً حجريّاً طويلاً في سفح الجبل رائعاً يقطع الأنفاس: كانت السحب المنخفضةُ تحجبُ بحياءٍ منحنيات الوادي وعنقه. وكان نظرُ شانتي يهيمُ في الأفق. أشار بأصبعه إلى سينوا، حيث سنتوقَّفُ.

تفحَّصتُ القريةَ الصغيرةَ التي بدا لي الوصولُ إليها متعذِّراً. رفع شانتي حقيبةَ ظهره المتدلية بضربة من وركه، واستنشق الهواءَ ملء رئتيه، كأنه يسعى إلى أن يُدخل الكونَ كلَّهُ في جوفه. وابتسم لعصفوَرين في عنقيهما صفرة وأزاحَ غصنَ شجرة يداعب أذنه. كانت طاقتُهُ تحملني، ورغبتُ في أن أجرِّبَ صيغةَ الرحلة الجديدة التي اقترحها عليَّ. ألقيتُ نظرةً على ماتيو، الذي كان حضورُهُ يريحني، كما تؤثر فيّ مظاهر اهتمامه بي. كان نيشال وتيم يسيران أمامنا، وكانت تصلني كلماتُهم طائرةً على جناح الهواء، توَقِّعُها ضحكاتُهم، ولم يكن يبدو للتعب أثر عليهما، واستفدتُ من تلك الطاقة الجميلة.

قرب جسر طويل معلَّق، غمزني شانتي وانطلق يعبرُهُ. تبعتُهُ فوق

الجسر دون تفكير، إذ كانت خشيتي الغريزية قد اختفت في ضوء وعيي. وعلى الرغم من تحركات الفريق الذي كان يعبر خلفنا ويدفع الجسرَ ذات اليمين وذات الشمال، فإنني استسلمتُ لإيقاع خطواتهم. فما كان مستحيلاً بالنسبة إليّ قبل أسبوع فحسب، بدا نشاطاً شبه روتيني اليوم.

ابتسم شانتي عند وصولي. وعندما التحق بنا الآخرون، استأنفنا سيرَنا في طريق أقلَّ انحرافاً. أحاطَ ماتيو كتفيَّ بذراعه. أراد أن يعرف كلَّ شيء عني، كل ما يمكنني أن أكشف له.

«الوقت ليس ملائماً، فأنا وسطَ الضباب! لقد نبَّهني شانتي إلى افتقاري إلى معالم الطريق، ويصعبُ عليَّ اليومَ أن أقول لكَ من أنا. الأمر ملتبسٌ.

- أهلاً وسهلاً بكِ في عالم التحوُّل!

- أجل... وما زلتُ في البداية! منذ أسبوع فحسب، كنتُ أشعر أنَّ لديَّ يقينيات، لكنها طارتْ تباعاً الواحدةَ تلو الأخرى. أن ينقلبَ كلُّ شيء رأساً على عقب في وقت وجيز كهذا أمرٌ أكادُ لا أصدِّقُهُ أنا نفسي. والمفارقة أني أشعرُ أنني هشَّةٌ، لكن أكثر صلابةً.

- غير متأكِّدة من أيِّ شيء، لكن مطمئِنَّة؟

- تماماً... تُفلتُ مني زمام الأمور، إلا أن لديَّ إحساساً أنَّ كلَّ شيء ينتظِمُ. أتعلمُ، في هذه اللحظة التي أكلِّمُكَ فيها، أتساءلُ عن هذه القوة التي تدفعني إلى عبور الهيمالايا في طريقٍ وعرٍ باتجاه هدفٍ لا يُصدَّق، لكنني أستمرُّ سائرة في هذا الاتجاه، المعاكس لجميع اليقينيات التي كوَّنتُها مدة أربعة وثلاثين عاماً. هذا جنون!».

كان ماتيو يُنصتُ إليَّ دون أن ينبس بكلمة، كأنه يُدركُ أنَّ ذلك

المنولوج المخلِّص كان يسمح لي أن أستوعب الأمور في هذا المنعطف الدقيق من حياتي، فتركني أواصلُ حديثي.

«يمكنني أن أطمئنك بأن أعدِّدَ لك عدد الشهادات التي حصلتُ عليها من أرقى المدارس العليا، وبأن أفتخر بنجاحي المهنيِّ، وبموقعي الاجتماعي، وبمستوى راتبي، لكنني بذلك لن أعرض عليك سوى الطبقات التي تحميني مِمَّنْ أنا في الحقيقة. مثلي مثل ملابسي ذات الماركات العالمية التي أرتديها قِناعاً، أو مثل... محرِّك سيارتي القويّ الذي يمكّنني من أن أهربُ بسرعة أكبر، أو مثل... حسابي البنكيِّ الذي يمنحني الانطباعَ بأني محترَمَة. في الحقيقة، لم أكن أفهم أنني كنتُ عاجزةً عن أن أوفِّرَ لنفسي الاحترام الذي أنتظره من الآخرين. وأدركتُ الآن أنَّني أُطمئِنُ نفسي من خلال كل هذه المظاهر الفخمة، خشية أن أكشفَ عمَّنْ أنا حقاً، وأشعرُ أني في مكان آخر، برغبات بعيدة كلّ البعد عن كلّ هذه السطحية. ليست لديَّ أدنى فكرة عمّا سيكون الحال بالنسبة إليَّ لاحقاً، لكنني أعلمُ ما لم أعد أريده.

- وكلُّ هذا في أسبوع واحد؟

- أجل، إنه أمرٌ لا يصدَّق! أدركُ الآن مدى عمايَ في السابق!

- أنتِ قاسية إزاء نفسك. كلُّ ما عشتِهِ من قبل ساعدَكِ على الوصول إلى ما تحققينه في هذه اللحظة. فأنتِ الشخص ذاته، قلبُكِ ينبض بالطريقة ذاتها، إنما تُوسِّعين مجالَ رؤيتكِ، وقد أهَّلَكِ مسارُكِ الاستثنائيُّ لما يحصلُ لكِ الآن. إني أستشعرُ التحوُّلَ الذي تتحدثين عنه وأنا جاهزٌ. أُفلتُ زمام الأمور وأضعُ ثقتي في الكون، فنحن موجودون حيث ينبغي لنا أن نوجد. يكفي أن ننصتَ دون أن نبحث

عن أيِّ شيء، ودون أن نفكِّر في المستقبل، لأنني أعتقد أنه لا يمكننا أن نتخيّل عظمةَ المشهد».

أخذ يدي في يدِهِ، وسرنا في صمتٍ ونحن نتنفَّسُ جمال منظر الطبيعة. تذوَّقتُ الحياةَ التي كانت تحاذيني، مستمتعةً، لأول مرة، بكلِّ مشهد، وبكلِّ صوتٍ، وبكلِّ رائحة، وبكلِّ شعور. كان قلبي السعيد يتغذى على الطاقة التي تصل إليه. لم أعد قلقةً بشأن أيِّ شيء. كانت يدُ ماتيو تمنحني الأمانَ، غير أني كنت أشعر، خلف كلِّ ذلك، بقوة تُرشدني في طريقي الجديد.

'الساعة الثانية عشرة وثلاثون دقيقة'، أعلنَ تيم وعيناهُ مثبّتتان على عصاه المغروس في الأرض. نشر شانتي خريطةً واقترح علينا أن نسير إلى قرية دوبان لتناول الغداء على بعد نصف ساعة من هناك، بشرط أن نحافظ على الوتيرة نفسها، ولم يستغرق الأمر في الأخير سوى عشرين دقيقة لبلوغ هدفنا.

توقَّفَ شانتي أمام مبنى متواضع، وسألنا إن كنّا نوافق على تناول وجبة نباتية من الدال باث[1]. كنّا جائعين، فقبلنا بحماس كبير. أخذ رجلٌ طلباتنا من المشروبات واقترح علينا أن نجلس في الحديقة، حيث كان تيم يلهو بجندب، مستلقياً فوق العشب. كان الفضاءُ المهيَّأُ في سفح الجبل يقدِّمُ لنا رؤيةً جميلةً تشرف على الزراعة على شكلِ مدرجات وحقول الدخن، كما ظهرت من جديد تدريجات اللون الأخضر وتنوع الألوان السائدة في المرتفعات المتوسطة، بعد غياب الخضرة في المرتفعات.

---

(1) تعني حرفيّاً «أرز بالعدس»، وهو طبق شعبي في النيبال وبنغلاديش والهند - المترجم.

وكانت توجد أرجوحةٌ وسط الحديقة أثارت طفليَ الداخليَّ. كانت خشبة مدوَّرة أفقية تسندها أخريان عموديتان على شكل حرف «Y»، ورُبِطَ بها حبلٌ بشكل متين على شكل «U». لا شيء غير ذلك. جلستُ عليها وشرعتُ أتأرجحُ قبالةَ الأفق. اختار نيشال مقعداً من البلاستيك الأخضر الداكن وجلسَ إلى جانب شانتي حول طاولة خشبية، قبالة الوادي. لفَّ سيجارةً وتحدث إلى صديقه. والتحقتُ بماتيو الممدَّد فوق العشب، واستسلمتُ للأرض، ورأسي متكئ على صدره. أحاطني بذراعه بحنان، فبدا كأن الوقت قد توقف، أو قد تكون أفكاري دخلت في حالة خمود. كنتُ هناك ولم يكن يظهر شيء سوى الصور التي تتوالى أمام عينيَّ، والبهجة التي تنبثق من قلبي، ورقة الشمس التي تُدفئنا، وقوة الجبال التي تملأنا.

غرغرت معدتي بصوتٍ عالٍ سمعه الجميعُ فراحوا يضحكون، فوضعتُ يديَّ على بطني وقد علا الاحمرارُ وجهي. وبدا كأنَّ الطباخة نفسها علمت بالأمر فأسرعتْ تحملُ إلينا الأطباقَ الساخنة. أشار نيشال إلى تيم بأن يتبعه، غير أني أوقفتُهما ودعوتُهما إلى الانضمام إلى مائدتنا. اعتذر العمُّ بأدب، لكنني أصررتُ. نظر نيشال إلى شانتي، منتظراً موافقته، فيما كان تيم أكثر جرأة وأجاب بتلقائية أنه يودُّ ذلك كثيراً، لكنه لم يسبق له أن تعلَّمَ الأكل بالشوكة.

«وأنا لا أعرفُ أن آكل بيديَّ. هل يمكنكَ أن تُعلِّمني؟»، سألتُهُ وقد تأثرتُ لصراحته.

نظر إليَّ تيم مندهشاً. «الأمر سهلٌ، سأعلِّمُكِ». مال شانتي نحو نيشال وأشار إليه أن يلتحق بنا، وأدركَ ماتيو أنَّ نيشال كذلك لم يكن يرتاح لاستخدام الشوكة والسكين، فاقترح أن يحاول هو كذلك الأكل بيديه. وبعد أن غسلنا أيدينا بعناية تحت الماء المثلجة في

حوض ماء مرتَجل، شرع تيم يقدِّمُ درسَهُ، وأخذ دور المعلِّم على محمل الجدِّ فراح يُصحِّحُ أخطاءنا باهتمام. كان يشكِّلُ كريّات من الأرز ببراعة ويغمسها في العدس الحارق، ثم يحملها إلى فمه بدقة. كان نيشال وشانتي يُتقنان تلك الطريقة أيضاً، أما أنا وماتيو فاجتهدنا ما وسعنا الاجتهادُ، إلَّا أن النتيجة كانت غير مقنعة، ما أثار ضحكَ مرشدي وصديقه، لكن كان معلِّمُنا مركِّزاً على حركاتنا، ويشجّعنا بإصرار، وهو يرمي الآخرَيْن بنظرة سوداء طالباً منهما الصمتَ بإشارة من يده.

بدا المشهد خارجاً عن الزمن، بيد أنَّ ذلك الفتى كان يملكُ حقيقةً منسيَّةً. كان نموذجاً للصبر والكَرَم. كان كلُّ اهتمامه منصبّاً علينا، وكان حريصاً كلَّ الحرص على أن يلبِّيَ رغبتي، لدرجة أنه نسِيَ أن يتناول وجبته. فاجتهدتُ في أن أتقن حركاتي حتى لا يشعر بالخيبة، وتناولتُ الأرز إلى آخر حبة على الرغم من ألمِ الحرق. وأنهى ماتيو طبقه كذلك، مقدِّماً بذلك آية اعتراف لتيم، الذي ابتسم لنا معرباً عن نجاحنا. شكرتُهُ على الهدية التي قدَّمها إلينا: علَّمنا كيف يهبُ المرءُ من ذاته. فما كان يبدو له أمراً طبيعيّاً إنما هو خصلةٌ نادرةٌ. كنتُ متأثِّرةً جداً.

وبما أنَّ ثيابي نالت حصتها من الأكل مثلي تماماً، قصدتُ حوض الماء من جديد لأغتسل، قبل أن يستصحبني ماتيو لقضاء قيلولة تحت الشمس. نمتُ بين ذراعيه، فأيقظني بعد ذلك بنصف ساعة واضعاً قبلة على جبيني، ثم همس في أذني أنَّ علينا أن ننطلق. تأكَّد نيشال وشانتي من الطريق مع رجل البيت، الذي حدّد لهما بعضَ المعلومات على الخريطة، مقترحاً علينا عنوانَ عمّةٍ عجوز على بعد ساعتين من السير، في مكان قريب من تشونغ.

كانت الحياةُ تستعيد حقوقَها في هذا الارتفاع. كانت حقولُ الدخن، التي تجتاحها الرياحُ، ترقصُ في أمواج متتالية. وكان تنفُّسنا أكثر انسيابية فيُيَسِّرُ لنا الجهدَ. وفي الأسفل، أثار فضولَنا صياحُ أطفال. كانت نعجةٌ تنتظر خروج التلاميذ من المدرسة ليداعبوها بأيديهم الصغيرة، ولم يكن الصغارُ يبخلون عليها بآيات اهتمامهم. وكان تلاميذ يرتدون بدلات داكنة الزرقة يحتفلون برفيقة لعبهم التي كانت تُعبِّر عن فرحتها بوثبات صغيرة. وكان شانتي يبتسمُ، مبهوراً بالمشهد، وتيم يعيشه وهو يقفزُ، صائحاً صيحات فرح مكتومة تشجيعاً للحيوان.

كيف أمكنني أن أنسى ما هو أساسيّ؟ كيف أمكنني أن أستسلم لهيمنة السطحية وأن أقبل تحمُّل طبقات ثقيلة من العبث؟ امتلأت عيناي بالدموع.

«لا تطلقي الأحكام على نفسكِ، قال لي شانتي وهو يمسك بذراعي.

- كيف أمكنني أن أضلَّ إلى هذه الدرجة؟

- أنتِ لم تضلِّي، بل كنتِ تنظرين إلى المكان الخطأ.

- ما الذي يحدث لكي نكون في حاجة إلى أن نغادر هذه الحالة وننصهر في المعهود؟

- نحن نعتقد أنَّ معنى أن نكبر هو أن نُعقلن كلَّ شيء. ومن ثمَّ نغفل أن نعيش. فالطفلُ يسكن التجربة، ولا يفكّر فيها. ما الذي كنتِ ستفعلينه إن أنتِ سمحتِ لطفلكِ الداخليِّ أن يُعبِّر عن نفسه فيكِ؟».

ودون أن ينتظر جوابي، تجاوزني ماتيو وجرَّني خلفه من يدي: «كنا سنجري ونلعب مع هذه النعجة الصغيرة، لأنَّ الأمر الوحيد الذي يُسعِدُنا هو أن نتشارك لحظةَ حبٍّ!».

جرَّني نحو التلاميذ وأمسكَ تيم بيده الأخرى، فترك هذا الأخيرُ أمتعتَهُ ليعدوَ معنا. واشتركنا في المعركة، فأذكى ذلك حماسَ الصِّغار. كنا نلعبُ مثلهم، وسطهم، ونحن نُمكِّنُ روحَ الطفل فينا من أن تُظهر تلقائيتها لاستعادة فرحة عارمة ومعهودة.

أفلتت النعجةُ الشقيةُ من ماتيو وقد أمسكَ بها للحظة قصيرة، فألفى نفسَهُ ملقى على الأرض يتقافز فوقه مجموعة من الأطفال. واستقبلت ذراعايَ حنانَ فتاتين صغيرتين، وتسرَّبتْ ضحكاتُنا مع الثواني المتبخِّرة. لم نعد نبتسم فحسب، بل نضحكُ ضحكاتٍ من الأعماق: عاطفةٌ خامٌّ حيث لا حاجة للحساب، وحيث يتنازل الفكرُ عن مكانه للفطرة، وحيث يختفي الخوفُ بفعل مشاعر الحبِّ المعلَنَة. ألماسٌ خالصٌ، لحظةٌ فريدةٌ.

نهضنا من عناقنا بصعوبة، وارتميتُ بين ذراعي ماتيو. «أنتَ مجنون، لكنني أحبُّ جنونَكَ»، قلتُ له وأنا أقبِّلُهُ. ضرب تيم بكفِّه على كفِّ إيطاليّي، ثم أمسكني من كتفيَّ. وهكذا التحقنا ببقية الفريق، وأنا محشورةٌ بين الرجلين اللذين كنتُ أمسكهما من الخصر، رفاقاً مغبرين وسعداء.

وبينما كنا نعبرُ غابة صنوبر إذا بقرد معلَّق يحيِّينا بإلقاء بقايا غدائه على رؤوسنا.

وبعد ساعة من النزول، انتصبَت أمامنا لافتةُ «تشونغ». تسارعتْ دقاتُ قلبي، فقد سبق لي رؤيةُ هذه الصورة بالتحديد في حلمي. علاني الشحوبُ، والتفتت الأنظار نحوي. «يمكننا أن نسير في هذا الاتجاه وأن نذهب إلى العنوان الذي دلَّنا عليه مُضيفُنا هذا الصباح»، اقترح شانتي وهو يشير إلى طريق متعرِّج.

قادنا الطريقُ الجانبيُّ إلى أسفل مأوى مهجور. كانت الرؤيةُ

المشرفةُ على الوادي بثلاثمائة وستين درجة رائعةً. وفي الأسفل، أكَّد لنا تجمُّعُ حوالي عشرة بيوت وجودَ القرية الصغيرة التي نبحث عنها. تقدَّمَنا شانتي وسألَ حمّالاً فأشار لنا إلى منزل في الأسفل. كانت القريةُ المطوَّقَةُ ظليلةً، على الرغم من أن الشمس كانت لا تزال مرتفعة.

عند وصولنا إلى وجهتنا، التقينا عجوزاً تُدعى غو-لانغ، حدَّقَتْ فيَّ طويلاً. كنتُ مسحورةً بعمق نظرتها المفعمة بالحكمة. أخبرني شانتي أنَّ اسمها يعني «حامية الأمهات والأطفال».

أولَتْ غو-لانغ اهتماماً خاصاً بكل واحد من النيباليين، ثم التفتت نحونا أنا وماتيو من جديد. أخذت يدينا ووضعتهما فوق يديها، وانحنتْ عليهما، وتَلَتْ دعاءً، ثم اعتدلتْ لتُهدينا ابتسامَتَها. بدت هذه المرأة كأنها تقرأ في قلوبنا! دفعت الباب الخشبيَّ الصغيرَ ودعتْنا إلى الدخول، ولم تمنعها مشيتُها العرجاء، وهي تستند إلى عصاها، من التقدُّم بخطوات واثقة.

كان داخلُ البيت معتماً، لا ينفذ إليه الضوء سوى من نافذتين ضيقتين. وكانت الأرضية الترابية تزيد من ظلمة الحجرة. وكانت الدعاماتُ المنخفضة تحاذي رؤوسَنا، والمطبخ في عمق الغرفة يتميز بترسانة من الأواني المتراكمة وموقد تشتعل تحته قطعةٌ من خشب الصنوبر تغذي نارَ الطهو. رافقتْنا غو-لانغ وهي تعرج إلى السلَّم على يسار المطبخ، المؤدِّي إلى الطابق العلويِّ، حيث اقترحتْ علينا أن نضع أمتعتَنا وأن نجلس. كانت تلك الحجرة المُشرَعَةُ، ذات المساحة المساوية لمساحة الحجرة السفلى، قد أُعِدَّتْ لاستقبال حوالي عشرة أشخاص، وكانت البُسُطُ المبثوثةُ على الأرض تقوم مقامَ الفراش.

شعر شانتي بالحرج من الوضع، فحكَّ رأسَهُ وهو يسألني إن كنتُ أفضِّلُ أن يبحث عن مكان آخر. لكن على الرغم من بساطة المكان، طمأنني الكَرَمُ الذي كان ينبثق منه. شعرتُ فيه بالارتياح. «لا تقلق، تُعجبني هذه التجربة!». وتذكّرتُ كيف أصابني اليأسُ بسبب فندق مايا عند وصولي إلى كاتماندو قبل أيام... لو أنني كنتُ أعلمُ ما ينتظرني وأنني سأستمتع به فوق ذلك!

وضعتُ حقيبتي على بساط تحت كوة صغيرة، وأشرتُ بإيماءة إلى ماتيو كي يتخذ مجلسه على البساط المجاور، فأسرع إليه. وضع شانتي أمتعته في الجهة الأخرى من فراشنا، وأعدَّ فراشَ فريقه إلى جانبه. وأعربَ تيم بحماس عن فرحته لكوننا سننامُ جميعاً في مكان واحد، فأشار إليه نيشال أن يهدأ بنظرة معبِّرة. كان سلوك الشاب يُشعرني بالعطف، وسذاجتُهُ تؤثر فيَّ.

وبعد استقرارنا السريع، اقترح ماتيو أن نخرج لنقوم بجولة في القرية، لكنني فضلتُ أن أستريح، فغادر الرجالُ البيتَ بعد أن اطمأنوا على راحتي، وغفوتُ فترة قصيرة.

قطعتْ تي باه، ابنةُ أخت غو-لانغ، قيلولتي مقترحةً عليَّ مشروباً ساخناً من أسفل السُّلَّم. نظرتُ إلى ساعتي: كنتُ قد نمتُ ساعةً كاملةً. قبلتُ بسرور وسألتُها عن أخبار رفاقي. لم يعودوا بعد، وقالت لي الفتاةُ وهي تضحكُ إنَّ الرجال يحبون أن يخلوا بعضهم إلى بعض في الحانة لإغواء السيّدات، فاخترقني شعورٌ بالغيرة. كان ماتيو قد أكَّد أنه سيعود بعد نصف ساعة... ضايقني الأمرُ.

كانت غو-لانغ جالسةً على خشبةٍ مدوَّرة، تُحدِّقُ فيَّ. اجتهدتُ في أن أبتسم لها، لكن وجهها ظلَّ مركِّزاً. كلَّمَتني بالتبتية، فالتفتُّ نحو ابنة أختها التي ترجمت كلامها:

«تقول خالتي إنه ينتظركِ.

- مَنْ؟ ماتيو؟

- لا، الرجل الذي جئتِ لتقابليه»، قالت رافعةً صوتها.

كانت الفتاة تترجم الجملَ مقلِّدةً النبرةَ نفسَها.

«كيف تعلمين ذلك؟

- لأنكِ تجلَّيتِ لي في الليل».

بدأت كلُّ هذه الأحلام تفزعني، ولم أعرف ماذا أقول.

واصلت كلامَها:

«يوجد ما هو غيرُ مرئيٍّ في عالمٍ يُفلتُ من البصر، لكنه يكون أكثر واقعية أحياناً. أنتِ حضرتِ إلى هنا بالحدس، لقد تبعتِ غريزتَكِ. قادتْكِ قوةٌ خاصة إلى ندائه.

- أشعرُ كأني أطاردُ شبحاً منذ يومين.

- ليس شبحاً، وإنما هو نظام تواصل مختلف. ليس لديَّ المعرفة الكافية لأشرح لكِ الأمرَ، وقد يكون من المستحيل ترجمة ذلك إلى كلمات، لكن يمكنني أن أعيشه، مثلكِ، ومثل الجميع».

لم يكن قلقي يقلُّ عن ارتيابي. كانت يدايَ القابضتان على الفنجان تنقلان الدفء إلى كامل جسدي.

واصلتْ بصوت خفيض:

«يجب عليكِ أن تذهبي لرؤيته، إنه في انتظاركِ، الأمر مهمٌّ.

- هل تعرفينَهُ؟ هل حدَّثَكِ عني؟

- كلَّا، لكنه أعطاني الاتجاه في أحلامي، ستُرشدُكِ ابنةُ أختي، إنه قريبٌ جداً من هنا.

- بماذا حلمتِ؟ ما الذي لديه ليقوله لي؟

- لستُ أدري ما الذي ينتظره منكِ، فما أنا إلا واسطة لكي أرشدكِ.

- كلُّ هذا سخيف!

- قد يكون كذلك. لكنكِ هنا الآن. ألا ترغبين في أن تعرفي رسالتَهُ؟».

أشارتْ إلى ابنة أختها أن ترافقني. تردَّدتُ. بدا لي من الأفضل، من باب الاحتياط، أن أنتظر عودة الرجال. أوه! ولماذا سأنتظرهم... إنهم يلهون دون أن يهتموا بي. فقررتُ، في فورة غضب، أن أتبع تي باه بعد أن تلقَّت إرشادات خالتها.

كنتُ أسيرُ قلقةً، أجترُّ غيرتي. كنتُ غاضبةً من ماتيو، ومن شانتي كذلك. كيف سوَّلتْ لهما نفساهما أن يُهمِلاني؟ يكفي أن تتحرَّكَ تنّورةٌ نسائيةٌ ليصابا بمرض النسيان! ما الذي دهاني لأترك كلَّ شيء؟ كنتُ جئتُ لأتسلَّمَ طريقةً فإذا بي أجد نفسي في قلب جبال الهيمالايا بلا شبكة اتصال، مقطوعة عن كل شيء. أدركتُ تهوُّري! كيف سيمكن لشركتي ولزملائي أن ينهضوا مما تسببتُ فيه بتهوُّري؟

في القرية، كانت روائح المطبخ تختلط بروائح الدخان وهي تطلع من المداخن. كنتُ أبحثُ عن ماتيو، ملقيةً نظراتٍ خاطفة في الأكواخ التي نمرُّ بها في طريقنا. لكن سدى. سلكنا طريقاً يعبر يميناً ليتوغَّلَ بنا داخل غطاء نباتيٍّ كثيف من الشجيرات المورقة. تجاوزنا الأغصان وجداولَ صغيرة. كان الليل ينزل، وكان اطمئناني يتقلّص كلّما زاد توغُّلنا في الجبل. كنتُ أشعر بوطأة ذلك النهار الطويل من المشي في ساقيَّ المتعبتين.

توقفتْ تي باه عند ملتقى طرق، وأدركتُ من تردّدها أنّها أضلّت الطريق. كانت الطرق الأربعة متشابهةً، فكان يتعذّرُ اختيار أحدها دون الأخرى، واضطرّنا غيابُ اللافتات إلى التعقُّل.

«لنعدْ إلى البيت، يكاد الليل يعمُّ، والبرد صار لا يُحتمَلُ. سنحاول الأمرَ صباح غد»، اقترحتُ، وبدأتُ أعودُ أدراجي، غير أنَّ تي باه أمسكت يدي وعرضتْ عليَّ أن نطلب المساعدةَ. رحتُ أضحكُ بانفعال. «طبعاً، جان بيير[1]!، قهقهتُ بالفرنسية. إني أتردَّد بين أن أتصل بصديق والـ 50-50!». أخرجتُ هاتفي المحمول وواصلتُ كلامي بالنبرة المتهكِّمة نفسها: «آه لا، لا وجود لشبكة اتصال هنا، لن نربح المليون!».

نظرت إليَّ مستفهمةً، وهي لا تفهم كلمةً واحدةً مما أقول، فاستأنفتُ كلامي بالإنجليزية: «ليس لدينا وسيلة اتصال ولم نلتق بأحد منذ خروجنا. فممّن تظنّينَ أننا سنطلب المساعدة؟ هيّا، لنكن عاقلتين، ولنعُدْ إلى البيت»، ألححتُ وأنا أجرُّها من كمّها. لكنها قاومتني.

«يمكننا أن ننجح في ذلك إنْ ركّزت انتباهَكِ، قالت وهي تثبّتُ نظرتَها في عينيَّ.

- أن أركّزَ انتباهي؟ على ماذا؟

- على ملتقى الطرق الذي أمامنا. سنُغمضُ أعيننا وننتظر بصمت دقيقةً ونحن نتساءل عن الطريق الذي سيقودنا إلى غايتنا».

كانت نبرةُ صوتها المباشرة والحازمة لا تتركُ مجالاً للرفض.

---

(1) جان بيير فوكو، مقدِّم برامج تيلفزيون فرنسي، اشتهر بتقديمه لبرنامج من **يريد أن يربح المليون؟** - المترجم.

صمتتْ تي باه، وأخذتْ نفساً عميقاً ورفعتْ رأسها نحو السماء متطاولةً. بدا كلُّ ذلك جنوناً. لقد أصابتهم العدوى جميعاً! بل أدهى من ذلك، كان مرضهم مُعدياً. بدا جزء مني مسحوراً، وشعرتُ بقوة خاصة. تأملتُها، ثم أغمضتُ عينيَّ بدوري. ركزتُ انتباهي على الطرق الثلاثة المتبقية، في حين كان من الأعقل أن أسلك الطريق الرابع للعودة. حاولتُ أن أستشعر أمراً يمكن أن يُرشدني. لا شيء.

قاطع تجربتَنا حفيفُ أجنحة، فرفعنا رأسينا نحوه مندهشتَين، فطلع من الأشجار نسرٌ وحلَّقَ فوق الطريق المتجه نحو اليسار. التزم في طيرانه بمنحنيات الطريق محلِّقاً على ارتفاع منخفض، ثم استقرَّ فوق حَجرة، والتفتَ نحونا وطار من جديد.

تركني نظري المبهور بالمشهد بلا صوت، فيما أعلنت تي باه بكل تلقائية: «الطريق من هناك إذاً!».

كنتُ أسيرُ إلى جانبها، أبحث عن الطير في الأفق، لكنه كان قد صار بعيداً. وكان الطريق يأخذُ في الصعود فجأةً، ثم يضيق. كنا نُخمِّنُ ذلك من النباتات العالية التي كانت تخدش ثيابَنا. بدا طريقاً لا يسلكه الناس إلا نادراً. لا بدَّ أننا أخطأنا الطريق.

بعد أن تجاوزنا منعطَفاً بتسعين درجة، أخذت تي باه تتشمَّمُ مثل حيوان، وهي ترفع أنفَها في الريح. «أتشمّين؟» استنشقتُ بعمق، رافعةً أنفي عالياً.

«كلا. ماذا تشمّين؟

- رائحة مدخنة، لسنا بعيدتين عن مسكن!».

استأنفتِ السيرَ بخطى حثيثة. انتصب بيتٌ معزولٌ على بعد

بضعة أمتار منا. وكان الهواء البارد يحملُ بخاراً قويّاً من الخشب المحروق. تسارعت دقاتُ قلبي. مدَّتْ تي باه يدها في اتجاه المطرقة الخشبية المعلَّقة على الباب. «ها نحن وصلنا!»، أكدتْ مبتهجة.

كنتُ متشكِّكةً.

كوكتيل

«كثيراً ما نُقلِّصُ رؤيتَنا إذا ما واجهنا أدنى عائق».

تينزن غياتسو

الدّالاي لاما الرابع عشر

وإذ كنتُ أستعدُّ لطرق الباب، وأنا أرتعش، فتحتْهُ عجوزٌ. لم تبدُ عليها الدهشةُ. كان وجهُها يشبه وجوهَ سكان آسيا الشرقية، من الصين أو اليابان على الأرجح، وأكَّد نمطُ ملابسها حدسي، إذ كانت ترتدي هاووري[1] أحمر اللون به ورود صفراء فوق كيمونو رماديٍّ من كتّان مربوط بأوبي برتقالي، وهو حزام واسع. أدخلتْنا إلى البيت.

كان ضيقُ المنزل يجعل الحرارة الصادرة عن الموقد المركزيِّ متجانسة. قدّمتُ نفسي، وقد تخدّرت شفتاي من البرد، وقدّمتُ مرافقتي، وشرحتُ لها سبب حضورنا. قاطعتني بإنجليزية ركيكة: «زوجي في انتظاركِ!»، ثم دلكتْ لي ظهري وفركتْ يديَّ واحدة تلو الأخرى، ودسَّتْ فيهما فنجان شاي أعشاب. التفتتْ نحو تي باه

(1) سترة يابانية تقليدية تنزل إلى غاية الركبتين، تُلبَسُ فوق الكيمونو - المترجم.

وفعلتْ معها الشيءَ نفسَهُ، ثم أجلستْها فوق كرسيٍّ إلى جانب الموقد قرب الجدار.

دعتْني المضيفةُ إلى أن أتبعها إلى الحجرة المجاورة، التي يكاد لا يزيدُ حجمُها عن حجم الحجرة الأولى. نهض رجلٌ مُسنٌّ من أريكة بصعوبة. «مساء الخير ماييل، وجدتِ الطريق إذاً، أليس كذلك؟». انتابني شعور قوي بالخوف. «كيف تعرف اسمي؟ من أنتَ؟ كيف تتواصل معي؟ ما الذي تنتظره مني؟ لماذا تفعل كلَّ هذا؟». تصاعدت نبرةُ صوتي وكانت أسئلتي المتتالية والفوضوية تشي بمخاوفي، وبالكاد حملتني ساقايَ المترنِّحتان.

أخذ الرجل بيدي ودعاني إلى الجلوس فوق كرسيٍّ منجَّد واسع بعد أن نفض عنه الغبار. رسم على وجهه ابتسامةَ تعاطف، واستقرَّ في أريكته، وأخرج من درج مكتبه علبة تبغ وشرعَ يحشو غليونه. تأملني لحظةً وأنا أستعيد رباط جأشي قبل أن يجيب على أسئلتي. «كيف أعرفُ اسمكِ؟ سمعتُكِ وأنتِ تُقدِّمين نفسك لزوجتي! مَن أنا؟ لا أريد أن أكون مختزلاً». فكَّر رافعاً عينيه نحو السقف: «أنا، هذا كل شيء، وهذا أمرٌ لا بأس به في حدِّ ذاته، أليس كذلك؟».

كادت عيناي تخرجان من محجريهما. أنصتُ إليه بقلق، دون أن أقاطعه. لاحظتُ سريعاً أن ذلك الرجل لديه عادة إتمام جمله بقوله «أليس كذلك؟»، يتبعه بغمزة عصبية من عينه.

«ما الذي أنتظره منكِ؟ أجئتِ إلى غاية هذا المكان لتحصلي على إجابة؟ إذاً، ما هو سؤالك؟

- ماذا تعني؟ لقد استقدمتني بحيلة لستُ أعلمُها، والآن وقد حضرتُ، تسألني ما الذي أنتظره منكَ؟ لم يسبق لي أنني رأيتكَ من قبل، ولا أعرف من أنتَ... هذه قصة مجانين!».

هببتُ واقفةً. «يكفي تضييعاً للوقت!». تحوَّل خوفي إلى غضب، وفكرتُ في الطريقة التي حصلتُ عليها من أجل رومان. قد يكون الأمرُ مجرَّد حيلة ليسرق مني حزمة الأوراق؟ أحكمتُ قبضتي على حقيبة ظهري بين ذراعيَّ. وفيما كنتُ أهمُّ بمغادرة الحجرة إذا به يستوقفني قائلاً بحدة: «اهدئي! اجلسي، سنحاول أن نفهم الأمرَ معاً، أليس كذلك؟». لان صوتُهُ من جديد، وانفتحت عيناهُ اللتان أغمضتا في فورة الغضب. مرَّرَ يدَهُ اليسرى على وجهه وداعبَ الشعيرات على طول لحية ذقنه.

«فلنبدأ من البداية. اسمي شيكارو. أعيش في اليابان، قرب جبل فوجي. كرَّستُ حياتي للبحث العلمي. اكتشفتُ، منذ ثلاثة أشهر، أنَّ والدَ جدي وُلِدَ هنا في النيبال، في قرية مجاورة، فقررتُ أن أستقرَّ فيها فترة من الزمن. ومنذ سبعة أيام، رأيتُ في الحلم أنَّ غريبيَّين سيأتيان ليطرقا بابي، ولذلك كنتُ أنتظرك. وها أنت ذي، أليس كذلك؟

- غريبّان؟

- أجل، رجل وامرأة.

- أنا رفقةَ صديق رأى الحلم نفسَهُ الذي رأيتُه.

- لدينا إذاً ما نقوله بعضُنا لبعض ثلاثتُنا. أين هو؟».

رفعتُ عينيَّ إلى السماء.

«إنه يفضِّلُ اللهوَ!

- حسناً... بما أننا هنا كلانا، اسمحي لي أن أكرِّر سؤالي. بماذا يمكنني أن أُفيدك اليوم؟».

بدا شيكارو صادقاً، فهدَّأَ سلوكُهُ من قلقي. «لستُ أدري. لم

أعد أفهم شيئاً منذ بضعة أيام». قصصتُ عليه ما عشتُهُ، والأولويات التي جعلني شانتي أفكِّرُ فيها، وتعلُّمي لمفاهيم جديدة، والانسجام مع الجسد، ولقائي بجيسون، ثم بماتيو، الذي كان يؤكِّدُ أفكاري الخلاّقةَ، ثم تحرُّري من الأوهام. وختمتُ، بيأس: «أنا تائهة».

كان شيكارو منشغلاً بإشعال غليونه بولَّاعةٍ مزاجيةٍ، فلم يُجبني فوراً، ثم قال:

«أنتِ في الطريق الصحيح إذاً. طريق السعادة. هذا ما ترغبين فيه، أليس كذلك؟

- ألا نبحث عنه جميعاً؟!

- كلَّا. الكثير من الناس يريدونه، لكن القليل منهم يجتهدون في العثور عليه. فلا يبلغُ هذا الطريق إلا من يُجرِّبُه.

- في ما مضى، كانت سعادتي تتلخص في عملٍ متقن يعينني على إرضاء رغباتي المادية. ثم اكتشفتُ في الأيام الأخيرة أنها مختلفة تماماً. شعرتُ بعواطف جديدة، يكفي أن نريدها لتتجلى. لكنني علقتُ في أوهامي، فالرجل الذي أعتقد أنني وقعتُ في حبّه لا يبادلني درجةَ الحبِّ نفسها، إذ فضَّلَ أن يقضيَ الأمسيةَ في تناول كأسٍ مع رفاقه أو مع فتاة أخرى ربما. لكن قد أكون تحمَّستُ أكثر من اللازم، فهو لم يعدني بشيء!».

فكَّر شيكارو لحظَةً، وهو ينفث الدخان.

«هل تعلمين لماذا تنتهي علاقاتٌ عاطفيةٌ قويةٌ في بدايتها إلى تمزُّقات بذيئة؟». هززتُ كتفيَّ.

«نحن ننتظر من الآخر أن يعوِّضَ نقائصَنا، أليس كذلك؟ ما دمنا لا نعمل على حاجاتنا التي لم تُلبَّى، فإننا نُسقِطُ انتظاراتنا على الشخص المحبوب، إلى حدِّ أننا نضفي عليه صورةً مثاليةً، فيتخذُ

لنفسه دورَ الاستجابة لاختلالاتنا وتغذيتها. فندخل في علاقةٍ تبعيّةٍ متبادلةٍ غالباً ما تنتهي بكارثة عندما يختفي السِّحر.

- الانجذابُ لا يُفسَّر، بل يولد من خفقة قلب تجاه شخص دون أن نتمكّن من التحكم فيه.

- ليس تماماً. إنَّ تربيتنا، وقصص حبِّنا الأولى، والناس الذين عاشرناهم، وحكايتنا الشخصية، كلُّها تؤثِّرُ في تصوّرنا للشخص المثالي. والحبُّ من أول نظرة إنما هو الوقوع في حبِّ شخصٍ غريبٍ يناسبُ مظهرُهُ الخارجيُّ تلك الصورةَ المثاليةَ. وعلى الرغم من الاعتقاد السائد بأنَّ الأمر يحدث على مستوى القلب، فإنَّ الدماغ هو مقرُّ مُتَعِنا. فالتيار الكهربائيُّ الذي نشعر به عندما نكون مغرومين إنما هو تسلسلُ استجاباتٍ كيميائية وبيولوجية نشعر بها على مستوى مختلف الحواس. ينقلبُ حال الدماغ فيبعث دفقات من النواقل العصبيّة ثم من الهرمونات، أليس كذلك؟».

لم أتمكن من أن أسايره في حديثه، بسبب عادته القهرية في تكرار الجمل ولكنته الآسيوية القوية وهو يتحدث عن موضوع لستُ متمكِّنة منه، فاجتهد شيكارو في أن يلفظَ كلَّ كلمة بوضوح ليحافظ على انتباهي. «ما الذي يحدث على مستوى حواسنا عندما نقع في الحبّ؟ ينقلُ العصبُ البصريُّ صورة لقائنا إلى اللحاء الدماغيِّ، مُطْلِقاً بذلك أعراضاً متنوِّعة مثل خفقان القلب، والاحمرار، ويتذبذب تعبيرُنا فنتلعثم، وتلجُ أنفَنا الفيروموناتُ[1] التي يطلقُها الشخصُ موضوعُ رغبتنا فتثيرُ الخلايا العصبيةَ الشمِّيةَ، إلى غاية دماغ

(1) جزيء كيميائي يفرزُهُ كائنٌ حيٌّ فيثير سلوكاً معيَّناً لدى كائن آخر ينتمي إلى النوع نفسه - المترجم.

العواطف. فالرائحة تترسّخ، أليس كذلك؟». وافقتُ برأسي، مستغرقةً في كلماته.

«تثير موجاتُ الصوت ذبذباتِ طبلة الأذن، فيصيرُ الصوتُ مُغرياً ومثيراً. وتنقلُ الاتصالاتُ الأولى إلى محطاتٍ عصبيةٍ تيّاراً كهربائيّاً يصعد على طول النخاع الشوكي إلى غاية اللحاء الدماغيِّ، فيُطلِقُ الإندورفين، وهو الناقلُ العصبيُّ للمتعة. وعندما نقع في الحبِّ، تنشَطُ اثنتا عشرة منطقة في المخ لتُطلِقَ هذه الجزيئاتِ الكيميائيةَ المثيرةَ للنشوة. إنه مزيجٌ سحريٌّ، قريب من بعض المخدِّرات من قبيل الهيروين أو الأفيون. لذلك نشعرُ كأننا 'تنبتُ لنا أجنحة'.

- مزيجٌ سحريٌّ؟

- أجل، إنه إنتاجٌ زائدٌ للهورمونات شبيه بالأمفيتامينات[1]، يثير نشاطَ الدماغ، ويقلِّلُ النومَ والجوعَ، أو الدوبامين[2] التي تتسبَّبُ في فرط النشاط والسُّكْر. والفينيلثيلامين[3] أيضاً، التي تحفِّز النشوةَ، وعامل نموِّ الأعصاب، وهو أحد البروتينات التي تزداد عند بداية عاللاقة وتدومُ سنةً في أحسن الأحوال، وكذلك اللوليبيرين، وهي هورمون الرغبة، أليس كذلك؟

- مهلاً! أنا لا أعرف كلَّ هذه المواد، لكنني أفهم الآن لماذا شعرتُ بفرحة عارمة!

- يتلقى الدماغُ إشارات إيجابية ومُضخَّمة لرؤيتنا لموضوع

---

(1) مادة كيميائية تستخدم باعتبارها مثيراً للجهاز العصبي المركزي - المترجم.

(2) ناقل عصبي يعمل مثيراً للجهاز العصبي المركزي يساعد على المزاج الإيجابي - المترجم.

(3) مادة كيميائية تؤثّر على تحسين المزاج وتعزيز القدرة على الانتباه - المترجم.

رغبتنا، فتتلاشى عيوبُهُ لتُخليَ المجال لمثال مشرق يجذبنا إليه. وبذلك يُصبحُ الشخصُ المحبوبُ مركزَ العالم.

- أجل، تماماً! هكذا تركتُ نفسي أُخدَع.

- ثم تعزِّز ممارسةُ الجنسِ واللذةُ إطلاقَ الهورمونات، فيكون الشعور بحسن الحال في أعلى مستوياته، متسبِّباً في تخدير مؤقَّت لجميع الأوجاع النفسية أو الجسدية، وفي الرغبة في القيام بالأمر من جديد، أليس كذلك؟».

هذا أمرٌ لم أكن أعرفه، لأنّ الفرصة لم تُتَح لي لتجربته مع ماتيو...

«غير أنَّ الدماغ يتعوَّدُ على تلك الدفقات المتكررة، وتفقدُ المستقبلاتُ الموجودةُ في خلايانا العصبية حساسيتَها لمختلف الهورمونات. وعندما يجفُّ الشرابُ السحريُّ، بعد ستة أشهر إلى ثلاث سنوات، يتجلى لنا الشخص المحبوب في كامل صورته، وبذلك ينقضي شغف الفترات الأولى، ويحينُ زمنُ الحبِّ العاقل والصادق.

- أو لحظةُ الانفصال بالنسبة إلى أولئك الذين يجدون صعوبة في العيش من دون ذلك الشعور المسكِّر.

- هذا صحيح، تظهر عندئذ الخيباتُ والإحباطُ، أليس كذلك؟

- كلامك يفتقر إلى الرومانسية! فأنا أفضِّلُ أن أومن بتوأم الروح.

- إنَّ الحبَّ يولدُ من عملٍ حقيقيٍّ على الذات، في تقبُّل لمن نحن، ولمن هو الآخر، وللتساند المتبادل. فما دمتِ تخافين، لن تتمكني من أن تُحبِّي. ستُغذِّين الغضبَ، وستكونين أسيرةَ الأنا الذي سيمنعكِ من أن تُحبِّي».

نهض شيكارو وفتح درجاً في دولابٍ من خشب صقيل، وأخرج منه علبة ثقاب وأوقدَ فتيلة شمعة، وضعها فوق منضدة صغيرة بجانب المكتب، فخلقت هالةُ الضوء فقاعةَ حميميةٍ في ظلام الحجرة.

«لكن ما العمل، هل محكومٌ عليَّ أن أعيش وحيدة؟ إني أشعر بالخوف والغضب، ولستُ قادرة على إبعاد أنايَ. فهل يعني هذا أنني لن أجد الحبَّ الحقيقيَّ أبداً؟

- لستِ في حاجة إلى البحث عنه، فهو حاضرٌ في كلِّ مكان. أنتِ لا ترينه، لكنه لا يغادركِ قطُّ. هو يُقوِّمُ النقصَ، فالحبُّ هو حالةُ الوجود الحقيقية الوحيدة، لا شيء يمكن أن يوجد من دونه، أليس كذلك؟

- لكن كيف لنا أن نرى ما هو غير مرئي؟

- ابدئي بالإحساس به. ولكي تشعري أنك محبوبة، لا بدّ لكِ أن تُقدِّري نفسَكِ. ولكي تعطي شيئاً، ينبغي أن تملكيه، ففاقد الشيء لا يعطيه. لا يمكنكِ أن تهبي ما أنت لست عليه، أليس كذلك؟ كما لا يمكنك أن تتلقَّيْ ما لا يتذبذب مثلكِ. فلكي تعيشي الحبَّ، من الضروري أن تتخلَّصي من الطبقات التي تمنعُهُ من التعبير عن نفسه، أي العواطف السلبية. ولكي تعيشي الحبَّ، لا بد لكِ أن تبدئي بإدراك ما هو حقاً. فبالنسبة إلى الكثيرين، إنه عبارة عن تجاذبٍ بين شخصين بحيث لا يفكِّر أحدهما إلا في الآخر.

- هكذا هو الأمر بالفعل. أنا لا أفكِّرُ إلا فيه.

- لستِ تعيشين سوى نسخة محدودة من الحب وأنتِ محكوم عليكِ بعدم الاستقرار. إنَّكِ تسعين إلى أن تسدِّي نقائصكِ ووحدتَكِ عن طريق تملُّكِ موضوع رغباتكِ. إلى أن يرتكب خطأً ما. وعندما لا يعود يُرضي تطلعاتِكِ، تتحوَّلُ مشاعرُكِ إلى كراهية، فأنت تمنحين

عاطفتَكِ وتسحبينها كأنها جائزة أو عقاب. إلا أن لا علاقة للحبِّ في ذلك. الحبُّ غير مشروط. وعندما تعالجسن جراحَكِ، سيمكنكِ أن تعطي وتشاركي ما أنتِ. فمن الوهم أن تعتقدي أن شيئاً خارجيّاً عنكِ سيُسعِدُكِ. ستكونين سعيدةً لأنَّ سعادتكِ ستكون ممتلئةً فيكِ.

- كيف السبيل إلى الامتلاء؟

- الحبُّ موجود في كل مكان، في كل شيء، في كلِّ كائن، في كلِّ واحد منّا، ويأتي خوفنا من كوننا نجهل ذلك. يبدو العالمُ غير موثوق ونشعر أننا عرضةً للهجوم. غير أنَّ الأرض ظلَّت، مدّةَ مليارات السنين، تسود في الكون دون أن تصطدم بكواكب أخرى. فكيف تفسرين أننا ما زلنا موجودين منذ كل ذلك الزمن؟ يحمينا ذكاءٌ منظَّمٌ. وأن نُدركَ أنَّ الأنواع الحيّة مستمرّةٌ في الوجود على الرغم من جميع الأخطار المحدقة بنا هو في حدِّ ذاته بداية الوعي. وأن نقبل بكوننا جزءاً ينتمي إلى كلٍّ، وأن لا شيء يمكن أن يصيبنا سوى أن نعيش الكمال، هو استيعاب أننا في أمانٍ تامٍّ وأننا محبوبون عن حق، أليس كذلك؟ ليس لدينا أيّ سبب لنقلق».

دعاني شيكارو بنظرة إلى أن أتأمَّل الشمعةَ.

«لنشعر بالشعلة الصغيرة المتوهِّجة داخلنا ولنُرَكِّزْ على شعلة الآخرين.

- علَّمني الماضي أن أكون حذرة، فهذا يُجنِّبني أن أكرِّر الأخطاء ذاتها.

- اسمحي لي أن أقدِّمَ لكِ ثلاثة مفاتيح مكَّنَتْني من تغيير رؤية علاقاتي مع الآخرين: الأول هو أنَّكِ لستِ أبداً ضحيّة العالم الذي ترينه. إنَّ بلوغ السلام الداخليِّ يقتضي أن ننظر إلى العالم بعطف وليس باعتباره تهديداً. لا تحتفظي من تجاربك الماضية إلا بالحُبِّ،

أما الباقي فهو عديم الفائدة ولا يفعل شيئاً سوى إثقال عقلك باعتقادات خاطئة. إن الماضي يُشوِّه الحقيقةَ من خلال مصفاة الخوف.

- سبق لي أن سمعتُ هذا بالفعل. لدينا الخيار بين أن ننظر إلى العالم بحبٍّ أو بخوفٍ.

- فعلاً، لكننا في الحالتين كليهما، نحن فاعلون ومسؤولون ولسنا مقهورين، أليس كذلك؟

- تعلَّمتُ أيضاً أنَّ الخوف غير موجود.

- هذا صحيح، لذلك كلما وضعتُ نفسي في موقع الضحية، ردّدتُ على نفسي أنَّ نظرتي وأفكاري المفعمة بالحبِّ وحدها حقيقية. أما الباقي فليس كذلك.

- هل تعتقد أنني أضع نفسي في موقع الضحية بالنسبة إلى ماتيو؟

- بالتأكيد. إنّ وضع نفسك في موقع الضحية يجعلك تعتقدين أن لديك سببٌ وجيهٌ لتغضبي منه.

- لكن عليك أن تعترف أنَّ سلوكَهُ مخيِّبٌ! فقد نسيني من أجل أول امرأة لقيها.

- أأنتِ متأكدة من ذلك؟

- أنا أفترض ذلك، أجبتُ وأنا أزفر يأسي كأنما الأمر بديهيٌّ.

- اسمحي لي بأن أنتقل مباشرة إلى المفتاح الثاني: كُفِّي عن كلِّ افتراض! عندما أدركتُ أنني أؤوِّلُ كلَّ ما يفعلُهُ أو يفكِّر فيه الآخرون، فهمتُ أنني أهدرُ قسماً كبيراً من طاقتي. كنتُ أومنُ بفرضياتي كأنها حقيقة، مختلِقاً مشاكل لا وجود لها، وكنتُ أغضبُ

من أبطال سيناريوهاتي، مفضّلاً أن أثرثر بدل أن أستجليَ الوضع. هل رأيتِ ماتيو رفقة امرأة أخرى هذا المساء؟

- كلّا، لكن يقال إنَّ النساء في تلك القرية من عادتهنَّ أن يُسلِّين الرجال.

- فالأمر ليس سوى افتراض إذاً، أليس كذلك؟ تمهَّلي إلى أن تحصلي على الحقيقة بدل أن تؤوِّلي. إنَّ العقل الإنسانيَّ عجيبٌ جدّاً: فمن الأسهل بالنسبة إلينا أن نُبرِّرَ سوءَ حالنا باتِّهام سلوكٍ خارجيٍّ على أن نَقبل بعدم اليقين!».

أطرقتُ بنظري.

«وكيف السبيل إلى الخروج من ذلك؟

- هذا موضوع المفتاح الثالث. لقد تحرَّرتُ من هذه الحاجة إلى التبرير عندما توقفتُ عن إطلاق الأحكام على كلِّ ما يحدثُ. كنتُ أقضي وقتي في تقييم كل ما يحصل: هذا جيِّد، وذاك سيِّئ، وفي إطلاق أحكامٍ على الآخرين، على خصالهم وعيوبهم، كما كنتُ أنتقدُ كلَّ ما كان يضايقني أو يتسبَّبُ لي في خيبة أمل، أليس كذلك؟ لكن لاسترجاع حالة الارتياح وحسن الحال، لا بد من أن ننظر إلى العالم نظرة تعاطف، متحرِّرين من إطلاق الأحكام. بهذه الطريقة نتخلَّصُ من الحاجة إلى أن نكون على صواب».

أخذتُ رأسي بين يديَّ ودلكتُ صدغيَّ. بدا لي من المستحيل ألا أطلق الأحكامَ على أي شيء.

«إنه تمرين يُجرى كلَّ لحظة. عندما تُفاجئين نفسَكِ وأنتِ تنتقدين، عوِّضي تلك الفكرة بفكرة أخرى متعاطفة. وعندما تشعرين بعدوانيةِ محاوركِ تجاهكِ، لاحظي إشارةَ المعاناة لديه وطمئنيه بأن

ترسلي إليه أفكارَ حبٍّ بدل أن تُهاجميه. إنَّ طبيعتنا العميقة هي أن نُحبَّ بعضُنا بعضاً، أليس كذلك؟».

أخذت الشعلةُ، التي كانت تعضُّ فتيلَ الشمعة، تترنَّحُ وترقُصُ على إيقاع الطقطقات.

«غريب، قال شيكارو مندهشاً، سنتلقَّى زيارةً». مال برأسه متسلِّياً، ومسحَ طرفَيْ شفتيه بإبهامه وسبّابته. نظرتُ إليه، مستغربةً، ثم أصَخْتُ سمعي نحو الحجرة المجاورة. لا شيء.

صمتَ لحظةً واستأنفَ كلامه: «قارنَ معلِّمُ زِنْ ياباني اسمُهُ شونريو سوزوكي[1] ذات يوم موقفَ شخصين أمام وردة جميلة. كان الأول ميّالاً إلى قطفها قصد أن يتملَّكَها في مزهريّة، في حين كان الآخرُ يسعى إلى أن يدخل في تنافذ معها، وإلى أن يصير هو نفسه وردةً».

أوقفَ طرقٌ ثقيلٌ على الباب سحرَ لحظةِ الشِّعر تلك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) كان أحد أساتذة الزِّنْ الأكثر تأثيراً وتقديراً في اليابان (1904-1971) وأثَّرَ في البوذية في الولايات المتحدة، حيث أنشأ سبعة مراكز للتأمل - المؤلِّفة.

المرآة

«مَنْ منّا أنا أو أنتَ، ستكون له الجرأة على
أن يرى في الآخر، عكسَ التهديد تماماً».

باتريك برويل

تعرفتُ على صوت ماتيو الذي كان يسألُ إن كنتُ موجودة هناك. أطلقَ تنهيدةَ ارتياح كبيرة وهو يلجُ الحجرةَ، وضمَّني بين ذراعيه. كان يلهث، وشعرتُ بقلبه ينبض بقوة.

«هل أنتِ بخير؟»، همس لي. لم أستطع أن أجيبه لاختناقي من شدة ضمِّه لي. بدا مذعوراً. تنحنح شيكارو ليذكِّرنا بحضوره، فأرخى ماتيو ذراعيه. «خفتُ عليكِ، قال وهو يستردُّ أنفاسه. أخبرتني غو-لانغ أنَّكما خرجتما وحيدتين في الليل، فعدوتُ إلى هنا».

كان قلقاً بشاني. قد يبدو الأمر سخيفاً، لكنني شعرتُ بالارتياح عندما راودتني هذه الفكرةُ. تلاشى غضبي المكبوح في كلماته. تفحصتُ عنقه، بحثاً عن آثار أحمر شفاه أو دلائل أخرى، وتشممتُ أبخرةَ عَدْوِهِ المجنون، لكن لم يكن يفوحُ منه أيُّ عطرٍ غريب. لم أُبْدِ له من علامات تضايقي سوى تباعد خفيف. «لقد تعرَّضَ نيشال

لعضّة كلب، فحملناهُ إلى القرية المجاورة أنا وشانتي وتيم بحثاً عن طبيب. الجرح سطحيٌّ، لكننا خفنا أن يُصاب بداء الكَلب».

شعرتُ بالخجل. التفتُّ نحو شيكارو، الذي كان يراقبنا. همس، متسلِّياً: «أنتِ لستِ ضحيَّةَ العالم الذي ترينه... كفِّي عن كلِّ تأويل... ولا تُطلقي الأحكام على ما يحدثُ... ستشعرين بالسلام الذي يسكنكِ خلف اضطراب هواجسك، أليس كذلك؟».

نهض وتوجَّهَ نحو ماتيو: «أنا سعيد بالتعرف إليك، كنتُ أنتظركَ. كيف يمكنني أن أساعدكَ؟».

نظر إليَّ ماتيو مندهشاً. أشار شيكارو إلى الكرسيِّ في عمق الحجرة، وعرض عليه أن يجلس بجانبنا، ثم شرح له الشيخُ الوضع. لم تكن مفاجأةُ ماتيو سوى مفاجأة عابرة، فحكى بكل ثقة نتائجَ العشر سنوات الأخيرة التي قضاها في الأبحاث مع جيسون: قدرة الدماغ على التحوُّل، إمكانية الوصول إلى مستويات ذبذبة عالية من أجل الإبداع والشفاء، الاستدلال على الوحدة بواسطة العلم... أنصت شيكارو باهتمام، وبدا أنه على معرفة بهذه الأمور، إذ كان ماتيو يصدِّقُها ويؤكِّدها علمياً فحسب، من منظور الرياضيات ومن منظور الفيزياء. استطعتُ أن أساير الحديثَ، ولو قليلاً، بفضل شروح جيسون، وبفضل التجارب التي عشتُها قبيل ذلك. كانت الوحدةُ في صلب النِّقاش، وكان الرجلان يستدلَّان عليها بجميع أشكالها.

سأل ماتيو عن الطريقة التي يمكن سلوكُها لتُصبح هذه الحقيقة مرئيّةً للجميع. كيف لنا أن نحوّل العلاقات الإنسانية نحو هذه الحقيقة؟

«الطريقة الوحيدة لدمجها في حياتنا اليومية هي أن نجرِّبَها.

- هل عثرتُم على الحلِّ؟

- إننا نعيشُ مفارقةً هائلة. يُثبتُ العلمُ أننا مترابطون، غير أنَّ نظامَ تفكيرنا الآلي يحثُّنا على أن نبحث عن أوجه الاختلاف، وهو الأمر الذي يؤدي إلى الوهم الذي نعيش فيه. لنكفَّ عن السعي إلى أن نقارن بعضنا ببعض. لِنَعِ، على العكس، أننا متساوون. تقودُنا الفردانيةُ إلى العثور على حِيَلٍ لنجد مكاناً على سُلَّمِ الاحترام الذي نُكِنُّهُ للآخر أو الذي يمكن أن يُكِنَّهُ الآخر لنا. حيلٌ مثل المال، والقامة، والوزن، ولون البشرة، والأصل، والعمر، والتعليم، والتربية، وطريقة اللباس، والتفكير، والاستدلال، والتحرُّك... فالقائمة لا نهاية لها، بما أننا نقضي وقتنا في تشذيبها! بيد أنه لا يمكننا أن نقيس شيئين متساويين كلَّ التساوي بما أنهما ليسا سوى شيء واحد، أليس كذلك؟ إن المقارنة تحبسُنا داخل اعتقاد النقص. إنها رؤية خاطئة! أما الوحدة، على العكس من ذلك، فهي تقدِّمُ لنا الوفرةَ، والكمالَ، والوعي بأن لدينا كل شيء، وأنه لا يمكن أن ينقصنا شيء، بما أننا غير محدودين وممتلئون».

كان شيكارو يتكلم ببطء كي لا يفقد انتباهنا؛ وكنّا مبهورين.

«منذ قرون ونحن نعيش مقسَّمين، أليس كذلك؟ يسمح لنا إدراكُ وجود طريقة أخرى في التفكير والاستجابة بأن نبلغ مكاناً مختلفاً عن نظامنا الشخصي. فضاءٌ داخلَنا، منسيٌّ. يقتضي الوصولُ إليه تحوُّلاً جذريّاً في الفهم وفي اللغة. ولندخل في اتصال مع هذا **العالم الجديد**، يتوجَّبُ علينا أن نتخلى عن ميولنا الآلية إلى الانفصال، لنندمج في ترابطنا بكلِّ شيء وبكلِّ شخص. إن مفتاح التغيُّر يكمنُ في فكرة بسيطة: ينبغي لنا أن نفكِّر من منظور التماثل. يجب أن نتدرَّبَ على الانتقال من البحث عن الاختلافات إلى البحث عن

التشابهات. فلنطرحْ على أنفسنا السؤال التالي: ما الذي هو متشابه في ما يبدو لنا مختلفاً؟ فبدلاً من السماح للأنا بانتقاد الآخر وإبراز اختلافاته لطمأنة نفسه، يتمثل هدفنا في أن نبحث عن نقاطنا المشتركة لندخل في تناغم بعضنا مع بعض، أليس كذلك؟

- مهلاً! أنا لستُ موافقةً، فنحن نختلف بعضُنا عن بعض في سلوكنا وردود أفعالنا، أليس كذلك؟ إن بعض استجاباتي لا تظهر لدى الآخرين والعكس صحيح، قلتُ مؤكِّدةً. فعلى سبيل المثال، ستجرحني ملاحظةٌ في حين أنها لن تؤثِّر فيك، لأنَّ ماضيكَ، وتجربتكَ، وحساسيتَكَ، وحتى بيئتكَ تختلف عن ماضيَّ، وتجربتي، وحساسيتي، وبيئتي.

- لنتعلَّمْ أنَّ ما يؤلمنا إنما هو منطقة ظلٍّ فينا لم تُعالج، أليس كذلك؟ لا يمكن أن يُؤثّر فيّ شيء من الخارج، إذا ما سوَّيتُ أنا مشاكلي. فوحده الأنا يمكن أن يُهان ويهاجِمَ ردّاً على ذلك.

- لا أميِّزُ دائماً تصرُّفات أنايَ، اعترفتُ له.

- من السهل التعرُّف على الأنا لأنه دائماً ما سيقول إنك على صواب. إنه يُطلق الأحكام ويُدين. لدينا جميعاً الديناميكية نفسها. عندما أعتدي على أحد، فإنني أتألَّمُ من هجومي على نفسي. فما تفرضُه من معانات على الآخر، تعاني منه أنتَ نفسكَ. نحن كيانٌ واحدٌ موحّد.

- يذكِّرني هذا بدروسي الدينية في الصِّغر: 'أحبَّ قريبَكَ مثلما تحبُّ نفسَكَ'، قلتُ متحيرة.

- لستِ بحاجة إلى الدين لتفهمي الفيزياء. عندما نفصل بين إلكترونَيْن مترابطَيْن بإبعادهما الواحد عن الآخر آلاف الكيلومترات، فإنَّ تأثيرنا في الواحد منهما يُنتِجُ الاستجابةَ نفسَها في الآخر،

فيفرضُ حلَّان نفسيهما. إما أنَّ المعلومةَ تسافرُ بسرعة لانهائية، وهو ما لا أعتبرهُ، وإما أنَّ الشيئين يظلان متّصلين على الرغم من التباعد. فقبل أن يحدث الانفجار العظيم (البينغ بانغ)، قبل أربعة عشر مليار سنة، كان كلُّ شيء واحداً، أليس كذلك؟ وفي نظري، لم تغيّر شيء، وكلُّ شيء متّصلٌ فيما بينه، وليس الفضاء الفاصل بيننا سوى وهمٍ من أوهامِ العقل. إن الأنا، بحكم التعريف، لا يستمر في الوجود إلا إن كان مفصولاً عن الباقي. نحن نعتقد أننا مشتتون، لكن هذا مجرد انطباع. فنحن لم نفارق الوحدةَ قطُّ. والفيزياء تُبيِّنُ لنا ذلك. لسنا سوى طاقة، كتلة مركَّزة من الذرات تصنع من الكُلِّ ذبذبةً ذكيّةً عظيمةً. لذلك فإن لكلِّ فعلٍ يصدر منا نتيجة تؤثر في ما يحيطُ بنا وفينا نحن أنفسنا».

طلبَ ماتيو من شيكارو أن يزيد من توضيح فكرته التي تقول إنَّ ما يؤلمنا هو منطقة ظلٍّ لم تُعالَج. دسَّ اليابانيُّ غليونَهُ بين أسنانه، وأجاب بصوتٍ لطيف وواثقٍ، مركِّزاً نظرَهُ على اللهب: «كلما شعرتُ بالخوف، وكلما أطلقتُ الأحكام، وكلما ثرثرتُ، فإنني أكون واقعاً تحت تأثير أنايَ، أليس كذلك؟ أديرُ ظهري للاتصال، وأريد أن أبقى فريداً».

نظر إلينا شيكارو الواحدَ تلو الآخر، وازدادت نبرةُ صوته شدةً. «لاستعادة التناغم بين الكائنات، يكفي أن أستقبلَ الآخر باعتباره هديةً، لأنه يفتحُ لي أبوابَ الفهم إذ يكون مرآتي».

داعبَ ماتيو لحيتَهُ عكس اتجاهها.

«أتقصدُ أن عندما يجرحنا أحدٌ ما، لا يكون ذلك سوى وهمٍ؟ وليس الآخر سوى انعكاس لما لم نعالجهُ؟

- تماماً! أنا لا أغضب للأسباب التي أعتقدها، فقد فطنتُ إلى

أنَّ الظروف الخارجية كانت تؤثر في إحساسي. كان العالَم سببَ تغيرات مزاجي. ولم يكن عيشي سوى ردِّ فعلٍ لما يحيط بي. فعلى سبيل المثال، عندما كان الجوُّ جميلاً، كنتُ أشعر أنني سعيد، وعندما كان ممطراً، كنتُ أشعر أنني حزين. وإذا ما ابتسم لي شخصٌ، كنتُ أشعر بأنني محبوبٌ، أما إذا كان متحفِّظاً فكنتُ أشعر أنني أتعرض لاعتداء. وإن مدحني زميلٌ غمرتني الفرحةُ وازداد تقديري له، أما إن انتقدني فإنني كنت أهاجمه بدوري».

هذا ما أعيشه أنا كذلك، قلتُ في نفسي.

«فتساءلتُ إن لم تكن فرضيتي مغلوطة. ما الذي سيحدث لو أنني غيّرتُها باعتبار أن الأحداث الخارجية ليست سوى انعكاس لمن أنا عليه؟ فعندما نكون مطمئنين وسعيدين، يبدو العالمُ طيِّباً، وننجح في جميع الأمور، ويكون الحظُّ حليفنا. وعلى العكس من ذلك، عندما نكون غارقين في مخاوفنا، يبدو لنا العالمُ كئيباً، والناسُ عدائيين. نشعر أنَّ كلَّ شيء يتكالبُ علينا، أليس كذلك؟ فأدركتُ أنَّ حياتي اليومية كانت انعكاساً لأفكاري ولحالتي الذهنية. وفي كلا الحالتين، من المهم أن نلاحظ أننا متصلون، باتجاه أو بآخر، بأمر أو بشخص. في الفرضية الأولى، نكون سلبيين، لا نقومُ سوى بردِّ الفعل، نُقيمُ نظامَ دفاعنا ونخضع لهُ باعتبار أنَّ الخارج يقودُ حياتَنا. أما في الفرضية الثانية، فنكون فاعلين ومسؤولين عمَّا يحدث لنا، ونصيرُ واعين أنَّ حسن حالنا مرتبطٌ بنا فحسب، وليس بأيِّ عنصر خارجي آخر، فلا يعود من مجال للبحث عن مُذنب خارج أنفسنا.

- عندما أكون مبتسماً، ومهتماً، وودوداً، وهادئاً مع الآخرين، فإنهم يشعرون بالاطمئنان في حضوري. لا يعودون يسعون إلى الهجوم دفاعاً عن أنفسهم، بل يبعثون إليَّ ابتسامةً، أو لفتة ودية.

وعندما أكون غير مكترث، أو قلقاً، أو غاضباً، أو حزيناً، أو غيوراً من أحد، فإنَّ انعدام الأمان لديهم يوجِّهُ إليَّ صورة قاسيةً. إنَّ سلوكي يعكسُ حالتي الداخلية مثل مرآة، أضافَ ماتيو مؤكِّداً.

- لكن، ألا تعتقدان أنَّ البعضَ يسعى إلى أن يسيء إلينا؟ سألتُهما.

- أجل، بالطبع، إن نظرنا إلى الأمر من نافذة الأنا!

- إن أنا قبلتُ بالدليل العلميِّ: إنَّ الآخر ليس سوى جزء منّا والعكس صحيح، فلا يعود من وجود للآخرين، لا وجود إلا للواحد، أليس كذلك؟»، قال ماتيو محلِّلاً.

أيَّدَ شيكارو كلامه بإماءة من رأسه.

«إن لم نخرج من موشور الأنا، فسيتعذَّرُ علينا الاقتراب من الحقيقة، لأنه يحبسُنا في وهم الانفصال. هذا ما نعيشُهُ، أليس كذلك؟ وإن أنا غيَّرتُ هذه الفرضيةَ باعتبار أننا لم نغادر قطُّ الوحدةَ الكاملةَ مثلما يُبيِّنُ لنا العلمُ اليومَ، فإنَّ جميع الآخرين يصيرون مرايا، وهدايا لوضعي في وجه عدم ارتياحي، وبذلك أستطيع أن أعمل على مخاوفي ونقائصي.

- ما يعني أننا نعيش في غمرة الجهل منذ آلاف السنين. ويبدو مفهومُ الوحدة مجنوناً وبعيداً جداً عمّا نُدرِكُهُ. إني أفهمُ الاستدلالَ العلميَّ، لكن هل يمكننا حقّاً تركَ عاداتٍ متجذِّرة فينا منذ كل هذا الزمن؟

- الأسئلة التي ينبغي لنا أن نجيبَ عليها هي: هل أنا مستعدٌّ لرؤية الأمور بطريقة مختلفة؟ هل أنا أرغبُ في أن أكفَّ عن أن أكون أنا باعتباري فرداً؟ أنا أنظرُ بمصفاة تميِّزي بدل مصفاة الحبِّ، فكيف سأتمكَّنُ من التخلُّص من هذا الإدراك؟ هل هذه رغبتي؟ أَنَوَدُّ أن

نعيش في الخوف مع كلِّ ردود الأفعال الصادرة عن ذلك أم نريد أن نستعيد السلامَ؟».

انتابني بعضُ القلق.

«أنحن مضطرون على أن نموتَ لنجرب هذا البعد الجديد؟

- عندما تستيقظين في الصباح، فأنتِ لا تموتين، أنتِ تدركين أنَّ حلمك جزء منك، لكنك لستِ حلمَك، أليس كذلك؟ ينطبق الأمر نفسُهُ في هذه الفرضية: عندما ستستيقظين، ستُدركين أنَّك في الوحدة. وما تعتقدين أنه الواقع في الانقسام ليس سوى كابوس في الحقيقة. لستِ في حاجة إلى أن تموتي لتخرجي من نومِكِ، يكفي أن تستعيدي الوعيَ، وأن تعيدي ضبط رؤيتكِ».

توجَّهَ ماتيو بخطابه إليَّ، رابطاً كلامه بأعمال جيسون:

«عندما ندفعُ بابَ الخوف، نكون كأننا نِمْنا في الوحدة المطلقة ونتحرَّكُ في عالم وهميٍّ. نكون نعيش حلماً، غير أننا نعتقدُ أنه الواقع».

نظرتُ إلى ماتيو ثم إلى شيكارو. كيف يكون هذا ممكناً؟

«عندما نحلم، هل من شيء أكثر واقعيةً؟ لا يمكننا أن نُدركَ الأمرَ إلا عند استيقاظنا، أليس كذلك؟ واقعٌ من جهة، ووهمٌ من جهة أخرى. نحن لا نُدركُ سوى مظاهر، لأنَّ الحجابَ المخيِّمَ على عيوننا يفرضُهُ الأنا. إنه يمنعنا من الوصول إلى ما نحن عليه، حفاظاً على بقائه هو. إنه يُبقينا بعيدين عن الواقع. لسنا سوى الوحدة المُشَتَّتَةِ، بالحمض النوويِّ نفسه. يمنحنا كلُّ استياء تعليماً عما يتوجَّبُ علينا أن نعمل عليه. يردُّ الأنا في البداية على جميع المشاكل عن طريق تحميل الخطأ لمُذنِبٍ ما. هو مخطئ في ذلك، لكننا نتبعُهُ. ولذلك يستمرُّ الألمُ، ويظهر كلَّما حدثَت ظاهرةٌ مماثلة. غير أنَّ طريق السعادة لا

يمكن أن يمرَّ عبر الآخر، لأنَّ تغيير الآخر يجيب على احتياجات الأنا الأساسية: التحكُّمُ والهيمنةُ. عندما لا يكون أمرٌ مثلما أودُّهُ 'أنا' أن يكون، أشعر 'أنا' بالخيبة، إذ يستنتجُ الأنا أنَّ المشكلة لا يمكن أن تأتيَ إلا من الخارج بما أنه هو يتصف بالكمال.

- لكن عندما يعتدي عليَّ أحدٌ أو يجرحني، فإنَّ المشكلة تأتي منه بالتأكيد.

- اعتبري أنَّ الآخر يمثِّلُ الكمالَ تماماً مثلما تُمثلينه أنتِ. إنْ كان أمرٌ يؤلمُكِ، فينبغي لكِ أن تَحُلِّي الصِّراعَ من الداخل، أليس كذلك؟ إنه الأمر نفسُهُ عندما يقع لنا عطب في الطريق السريع ونجتهد في العثور على أعذار خارجية عن السيارة. يمكنكِ أن تتَّهمي أحوالَ الطقس، أو حالة الطريق، أو طريقة زوجتك أو زوجك في السياقة، أو الرُّكّاب، أو بائع السيّارة، أو من تريدين، لكنك إن لم تُركِّزي على سيارتكِ، فإنها لن تنطلق من جديد. ما هو الهدف؟ هل نبحث عن التخلُّص من المشكلة بالادِّعاء أننا لسنا مسؤولين عن الوضع أم نريدُ أن نجعل السيارة تعمل من جديد؟ عندما أتألَّمُ من ملاحظة شخصٍ ما، يمكنني أن أخرج من ذلك العذاب بأن أتصوّر الألمَ بطريقة أخرى، بتركيزي على تشابهي مع مُحاوري وليس على الاختلاف. إنَّ الشعور بالتشابه مع الآخر يسمح لنا أن نقضيَ على آلية المهيمِنِ/المهيمَن عليه أو السائد/المَسود. العلِيّ/الدنيّ. فعندما ننظر إلى ما هو كائن، من دون إطلاق أي أحكام، فإننا نُدركُ عن طريق لعبة المرايا ما نودُّ أن ننمّيه فينا.

- من الصعب ألَّا نُطلق الأحكام. فعندما ألتقي أحداً، أشعرُ إن كان يوافقني أم لا، وأعلمُ أن الأمر مع البعض ليس سوى مضيعة للوقت.

- يمكنني أن أصوغَ الأمرَ بطريقة مختلفة، أليس كذلك؟ يوجّهني بعضُ الناس نحو مشاكلي التي لم تُعالَج بعد. يُخرجونني من منطقة راحتي في حين أنَّ آخرين، على العكس من ذلك، يدفعونني إلى التركيز. لدينا ثلاثة أنواع من المواقف عندما نلتقي بشخص جديد. نشعر إما بانجذاب عميق نحوه، وإما برفض فوريٍّ، وإما بلامبالاة. الحالتان الأوليان أكثر تواتراً. فالشخص الذي يثير فينا النفورَ يستدعي ما نجد صعوبةً في أن نعترف بوجوده فينا. لنتخيَّلْ أنني لا أطيقُ الأشخاصَ الذين ينظرون إليَّ بفوقية والذين يعرفون كلَّ شيء عن كلِّ شيء. ربما لم أُسَوِّ عقدةَ النقص لديَّ، ويصعبُ عليَّ أن أعترفَ أنني أودُّ أن أفرضَ نفسي أكثر في سياق محادثة كما يفعلون هم بسهولة. أو إنني لا أتحمَّلُ الأشخاصَ الذين يتصرّفون من دون خجل. لماذا لا أعترفُ لنفسي أنَّ جمودي يحبسني داخل سجني؟ أودُّ أن أسمح لنفسي بقدر أكبر من الحرية، لكن تربيتي تمنعني من ذلك. ويشتغل الانجذابُ الفوريُّ بالطريقة نفسها. إنَّ ما يجذبنا في الآخر هو جزء منّا لا يزال في مرحلة جنينيَّة، ما نودُّ أن نجعله ينمو، ولكننا لم نجد السبيلَ إلى ذلك بعدُ، أليس كذلك؟ إنَّ ما يخلق صدى بداخلي هو التعبير عمّا أودُّهُ في أعماقي، فالناس الذين نحترمهم هم في معظم الأحيان أولئك الذين يمثّلون نموذجاً نطمح إلى احتذائه في حياتنا. وعندما ندرك أنَّ ما يجذبنا فيهم هو جزء منّا نحن، فإننا نتصوّر الوجهةَ التي علينا أن نسلكَها للوصول إلى أهدافنا».

صمت شيكارو كأنه يتركُ لنا فسحةً من الوقت لنتدبَّرَ أقوالَهُ. واختصر ماتيو ما قيل بصوتٍ عالٍ:

«أستقبلُ الآخرَ كأنه أجمل الهدايا، لأنه يُقدِّمُ لي مرآتي. فهو

كاشفُ ضميري. إنَّ ما نخالُهُ اختلافاتٍ مع الآخر ليست سوى أوجه تشابهنا ومناطق ظلِّنا. أفعالي وأفكاري لديها تأثير مباشر في الآخر الذي يعكسني. يمكنني أن أرى نفسي تماماً مثلما أنا، دون أن أكذب على نفسي أبداً.

- هذا واقعٌ يستحيلُ على الأنا أن يَعترف به، أكَّدَ شيكارو، لكنه ضروريٌّ لفهم الحقيقة».

نظر الشيخُ إلى ساعته ونهضَ. «تأخَّر الوقتُ، ينبغي لكم أن تنصرفوا».

كان الليل قد نزل. قاد المصباحان اليدويان خطانا في الظلام، وأجبرنا البرد القارسُ على أن نُسرعَ وتيرة مشينا. كان يتسلّل من أفواهنا بخارٌ يتلاشى في الليل في لفائف رفيعةٍ تتلألأ على ضوء القمر.

أنار مأوانا الليلَ، فيما كان أهل البيت سادرين في نومهم، باستثناء شانتي الذي كان ينتظرنا. أظهر ارتياحَهُ لوصولنا وقدَّمَ لنا زبدية حساء. سرتْ رعشةٌ في جسدي، وسألتُ عن نيشال. كان نائماً. كانت العضَّةُ قد آلَمَتْهُ، لكن الجرح لم يكن عميقاً. كان نازلاً إلى القرية عندما مرَّ بجَرْوٍ، فاقترب منه ليداعبه، ولم ينتبه إلى وصول الأُمِّ التي التقمت رَبْلَتَهُ. ولحسن الحظِّ، عثروا على طبيب في دوّار مجاور لديه لقاح.

أخبرتُ شانتي، بدوري، برسالة غو-لانغ، والطريق رفقة ابنة أختها، ومصادفة الطائر، وظروف اللقاء. كان مرشدي توّاقاً لمعرفة ما قاله لي شيكارو. أطرقت رأسي. لم أكن فخورةً بنزواتي التي تشبه نزوات طفل متخلى عنه. «عندما رأيتُ أنكما لم تعودا، انطلقتُ غاضبةً منكما، ومنكَ أنتَ خصوصاً، يا ماتيو. ظننتُ أنَّكَ في رفقة

امرأة، إذ يبدو أنَّ القرية لها سمعة حافلة في هذا المجال». رميتُهُ بنظرة خاطفة. كان حاجباه المرفوعان يعبِّران عن دهشته. رسمَ ابتسامةً على محيّاهُ وأمسكَ بيدي. أخذتُ نفساً عميقاً. «قبل أن تصل، وضَّحَ لي شيكارو بعض الأمور فيما يخص العلاقات العاطفية. شرح لي أننا نخلطُ بين الحب ووهم الأنا الذي يستغلُّ الآخرَ لإرضاء احتياجاته. يستخدمُ الأنا العواطفَ باعتبارها مكافأةً أو عقاباً، ويُحصي ما ينقصُهُ ويؤمثله لدى الشخص المحبوب. ولكي نعيش الحبَّ، يجب أن نكون واعين بنقائصنا وأن نطرد مخاوفَنا».

كان الرجلان يُنصتان إليَّ. تمهَّلتُ قليلاً لأستجمع أفكاري ثم استظهرت درسي: «أعطاني ثلاثة مفاتيحَ فهم للخروج من المعاناة: الأول هو أننا لسنا أبداً ضحايا العالم الذي نراه. فعندما نحدّد مخاوفَنا، نُدركُ أنها تُشوِّهُ واقعَ إدراكنا بما أنها ليست سوى أوهام. ومن ثَمَّ فإننا ضحايا إدراكنا. المفتاح الثاني هو أن نكُفَّ عن كَلِّ افتراض في مواجهة موقف ما. ففي انتظار الحصول على تفسيرات ملموسة، ينبغي الابتعاد عن كل تأويل وسيط. والمفتاح الثالثُ هو ألَّا نُطلق الأحكام على ما يحدثُ. فعندما نتخلص من النقد ونقبل الآخر في مجمله، يصير الاتصالُ بين الكائنات راسخاً، وغير قابل للتخريب، أليس كذلك؟».

ابتسم ماتيو، وحرَّكَ شانتي رأسَهُ موافقاً. «ثم وصلتَ أنتَ». ومددتُ يدي في اتجاه ماتيو لأتركَ له الكلمة.

«حدَّثتُهُ عن أبحاثنا، ولم يفاجئه الأمرُ، فكان هو بدوره مؤمناً بالوحدة المطلقة. منطلقاً من المبدأ القائل ألَّا شيء منفصلٌ، لا الكائنات ولا الأشياء، وإننا لا نشكِّلُ سوى واحدٍ موحّد، لقد وضَعَنا أمامَ المفارقة التي نعيشها. لا يمكننا أن نكون سعداء في

وهم الانفصال، بما أنه لا وجود له. ولتوطيد التناغم بين الكائنات، يتوجب علينا أن نَقبل الواقعَ وأن نتصرف على أساسه. إذا كانت فرضيتُنا أننا جزء لا يتجزأ من الكون، يجب علينا أن نركِّزَ على البحث عن تشابهاتنا لا عن اختلافاتنا، بما أنَّ هذه الأخيرة وهمية، وهي مظهر يحتفظُ به الأنا لضمان بقائه. إننا، إذ نبحث عن التشابهات، نعثُرُ على جوهرنا. ولا تمثّل الآلامُ التي نشعر بها عند اتصالنا بأشخاص آخرين سوى مشاكلنا التي لم تُعالَج. الآخر هو انعكاسٌ لنا. إنه هدية من الحياة، فهو يمنحنا فهمَ مناطق الظلِّ فينا».

هزَّ شانتي رأسه. تأرجح فوق كرسيِّهِ، عاقداً يديه خلف رقبته. لم يكن يخرق صمت تأملاتنا سوى طقطقة الخشب في الموقد، إلى أن همس شانتي قائلاً: «تماماً، بالتأكيد... الآخر هو مرآتنا!».

نظرتُ إلى ماتيو، فرأيتُ انعكاسي في عينيه.

منطقة ظلٍّ

«إن لقيتَ شخصاً ذا قيمة، اجتهدْ في أن تُشبهَهُ. وإن لقيتَ شخصاً مبتذلاً، اجتهد في البحث عن عيوبه في ذاتك».

كونفوشيوس

استيقظتُ في الوضعية نفسها التي كنتُ عليها عند النوم: متكوِّمة بين ذراعي ماتيو، وقلبي يدقُّ بعنف على صدره.

كان نيشال قد أصدر شخيراً متقطِّعاً مدوِّياً أثارَ فينا نوبةً من الضحك عند لحظة نومنا. نامَ تيم إلى جانبه، وقد دفن رأسه تحت الوسادة. أما شانتي، فقد حرص على ألَّا يُزعجنا الرجلان، فكان يُحرِّكُ نيشال بين الفينة والأخرى ليُسكِتَهُ. بدا ماتيو قلقاً، فأخذتُ أتأمَّلُهُ.

«فيمَ تُفكِّرُ؟»، همستُ. فاجأتُهُ، فخرج من أفكاره وابتسم لي. «كنتُ أنتظر أن تستيقظي». قبَّلتُهُ في عنقه ثم اعتدلتُ، باحثةً عن رفاقنا في الطريق. لا أحد. أصختُ السمع إلى الطابق السفليِّ وتعرّفتُ على صوت مضيفينا وكذا صوتَي تيم ونيشال.

خلَّصَ ماتيو ذراعَهُ التي أصابها الخدرُ تحت ثقل رأسي، وأخذ يُحرِّكُ أصابعه ليُسهِّلَ الدورة الدموية.

«هل نمتِ جيّداً؟

- أظنُّ ذلك»، أجبتُ وأنا أفركُ ذراعَهُ.

ارتميتُ عليه لأقبِّلَهُ. استسلمَ لقبلتي، لكنني شعرتُ أنه في مكان آخر. أخبرتُهُ بذلك، فتهرَّبَ. «يجب علينا أن نتأهَّبَ، أمامنا نهارٌ طويلٌ من النزولُ».

حملَ أمتعتنا إلى المدخل. كانت الشمس بازغةً، وكان تيم ونيشال يُنهيان فطورَهما عندما قدَّمتْ لنا غو-لانغ فطورَنا. استفسرتُ عن حال ساقِ نيشال، فطمأنني. ساعدت الليلة على لأمها. أراني العضَّةَ، فلم تبد لي هيِّنةً!

طرق شانتي، الذي خرج باكراً، البابَ طرقتَيْن ودخل دون أن ينتظر الجواب. كان متألِّقاً دأبه كل صباح، يكاد يتجمَّد من البرد، فتوجَّه إلى النار. كان قد خرج ليتأكَّد من كون الطريق المختصر سالكاً. كان هذا سيساعدنا على الوصول إلى مودي كولا أسرع، وصولاً إلى غاندرونغ، وكان الأمر برمّته يتوقف على حالة نيشال.

أنهى ماتيو تضميد ساق جريحنا تحت عين تيم المتيقِّظة. «يمكن أن نتقاسم أمتعته. أشعر أنني قادرة على حمل حقيبتي»، قلتُ مؤكِّدةً، لكن شانتي رفض اقتراحي قائلاً:

«لقد خفَّفنا متاعَهُ. لن يجد تيم صعوبة في أن يتحمَّلَ ثقلاً أكبر.

- أنا أيضاً يمكنني أن أحمل بضعة كيلوغرامات»، قلتُ ملِحَّة.

ودون أن أترك له أي خيار، أخذتُ معي تيم إلى الخارج لإعادة تنظيم حمل الأمتعة، وسحبتُ حقيبتي من أمتعة نيشال. تبعَنا شانتي، وحاول أن يُقنعني بالعدول عن قراري، غير أنَّ إصراري أيأسَهُ.

ساعدني تيم على وضع الحقيبة فوق ظهري بعد أن رتَّبَ الأمتعةَ الباقية بعناية. كنا جاهزين. خرج نيشال وهو يعرج، وبحثَ عن أمتعته ورآها فوق ظهر شانتي، فأسرع إلى استعادتها، غير أنَّ شانتي أوقفهُ بحركة حازمة. «إذا أخذتَ حقيبتي، فسيكون عليكَ أن تحمل حقائب الآخرين، لأنها تحتوي كلُّها على جزء من أمتعتكَ».

نظر إلينا نيشال واحداً تلو الآخر، وتوسَّلَ إليَّ أن أتركَ له حقيبتي. رفضتُ بحزم، ومددتُ له عصوَيّ المشي خاصتي، طالبة منه أن يحملهما عني. سالتْ دمعةٌ على طول خدِّهِ. ضممتُ غو-لانغ وابنة أختها بين ذراعيّ بقوة، فسلَّمتا على الرجال وهما ترجوان لنا طريق السلامة.

نزلنا الصباحَ كلَّهُ سلسلةً من السلالم عبر زراعات في مدرَّجات. ساعدتني استراحات قصيرة على التعوُّد على حِمل ظهري، وحاولَ ماتيو عدة مرات أن يأخذ حقيبتي ليُخفِّفَ عني، لكنني لم أسمح بذلك. وكان نيشال، الشجاعُ، يتألم في صمت، إذ لمحتُ علامات الألم على وجهه، رغم المسكنات التي كان يعطيه إياها ماتيو كلَّ ساعتين.

تناولنا الغداء في شبه مطعم مصنوع من أربعة ألواح خشبية، راسية على ضفة النهر، حيث اقترح علينا فلاحان مقابل بضع روبيات حساءً من خضروات البستان مصحوباً بالأرز والعدس، وبحث كلٌّ واحد منّا عن صخرة يقتعدها أمام النهر ليتذوَّق وجبتَهُ.

كان استئناف المسير صعباً على الجميع. وبعد أن عبرنا مودي كولا على طول جسر خشبيٍّ، صعدنا نحو غاندرونغ، وهي إحدى أعتق قرى المنطقة، ذات هندسة معمارية أصيلة، حيث كانت بيوت مشيَّدة من حجارة يابسة تؤوي إثنية الغورونغ.

كان نيشال يتصبّب عرقاً، فاقترح شانتي أن نقضي الليلة في نُزُل عند مدخل القرية الصغيرة. طلبتُ مشروبات باردة للفريق، ومدَّ ماتيو ساقَ نيشال فوق كرسيٍّ وأزالَ ضمّادته. كان الجرحُ المحمرُّ قد التهب بفعل الاحتكاك، فنظّفهُ ماتيو بعناية، ثم أعطاهُ مضادات الالتهاب.

خاطبَ ماتيو شانتي وهو يجمع حقيبة الدواء: «من الأفضل أن نتوقف عن المسير اليومَ، فأنا لا أريد أن ينتشر الالتهاب». هزَّ شانتي رأسه. «سننطلق غداً عند الفجر لنصل إلى بوخارا عند نهاية العصر. سيكون النهار طويلاً، لكننا سنصل إلى هناك».

اصطحب تيم وشانتي نيشال إلى غرفةٍ ليستريح. كانت الساعة الرابعة بعد الزوال. بعد استحمام منعش، قررنا أن نزور القرية أنا وماتيو وشانتي، فيما ظلَّ تيم إلى جانب عمِّهِ، إذ كان قلقاً على الرغم من تأكيدات ماتيو المطَمئنة.

قادنا طريقٌ حجريٌّ إلى وسط القرية. شرح لنا شانتي أن الغورونغ يمثلون أحد أهمِّ شعوب الجبال في أعالي تلال النيبال الأوسط، فقد اشتهروا باعتبارهم جنود الصفوة والمجنَّدين الرئيسيين لدى الغورخا[1]، فهم يخدمون اليومَ في الجيش البريطاني، والجيش الهندي، وقوات الشرطة في سنغافورة، ويشاركون في بعثات الأمم المتحدة في جميع مسارح العمليات.

دنا مني ماتيو، وجعلني ذلك القربُ أرتعش. كانت دقاتُ قلبي تتسارع كلما لامسَ يدي، فكنتُ أراه رائعاً، وحسّاساً، وذكيّاً... كنتُ، بطبيعة الحال، مغرمةً!

تناولنا العشاء في وقت مبكِّر. ذهب ماتيو عند نيشال في غرفته

(1) وحدات الجيوش البريطانية والهندية المجنَّدة في النيبال - المؤلِّفة.

وقدَّم له آخر علاج لليوم، ثم التحق بنا في الحديقة. كنتُ أحسو رفقة شانتي كأسَ كحول مصنوع من الدخن، مستمتعة بالسماء المرصَّعة بالنجوم. بدت لنا الدرجات القليلة التي تتجاوز الصفر صيفية، بعد أن تحملنا ببسالة الدرجات الثلاثين تحت الصفر في الأعالي.

كانت هذه الليلةَ ما قبل الأخيرة التي نقضيها معاً، بحيث ستكون الأخيرةُ في بوخارا قبل رحيل ماتيو إلى كاتماندو في الصباح التالي. سيرافقني شانتي بالطائرة إلى فندق مايا في اليوم نفسه، ولكن أربع ساعات بعد إيطاليِّي، وسيعود ماتيو إلى أوروبا في مساء يوم وصوله إلى كاتماندو. كنتُ أعرف أنَّ الفراقَ سيكون قاسياً، فلم أسمح لنفسي بالتفكير في الأمر، عاملةً بتعاليم شانتي. لم أكن أريد أن أُفسد ساعاتي الأخيرة مع ماتيو ومع جماعة قبيلتي الصغيرة.

عدتُ إلى اللحظة الراهنة. تمنى لنا مرشدي أمسيةً طيبةً. ونظر إليَّ ماتيو بإلحاح. «أين أنتَ؟»، همستُ له وقد انقبضت حنجرتي. شربَ كأسَ شراب الدخن دفعةً واحدةً، وأمسكَ بيدي وأخذني إلى غرفته دون أن ينبس بكلمة. تبعتُهُ مثل مراهقة تقع في الحب لأول مرة، مشلولةً، لكن مشتعلة.

أغلق البابَ خلفي وقبَّلني. نشر غطاءَهُ الصوفيَّ على الفراش وألقاني فوقه وهو يمسكُ بي برقّةٍ. خلعَ ثيابي، فاشتعلتْ خلاياي، على الرغم من البرد، وكان قلبي يدقُّ بقوة داخل صدري. نزعتُ ثيابَهُ دون احتراس، نافذةَ الصبر. كان جسدي المشتعلُ يتفصَّدُ حبّاً، وغمرتني طاقةٌ جديدةٌ، فأخذَنا انصهارُ جسدينا إلى متعةٍ متزامنةٍ. لم يعد جسدانا، وخلايانا، وقلبانا، سوى واحد. لم أعد أتحكَّمُ في أيِّ شيء واستسلمتُ لغرقي في ذلك الجنون الرومانسي.

*

استيقظنا متعانقين، ممتلئين بالطاقة على الرغم من قصر الليلة. كنتُ أشعر أني مختلفة، إذ كان ذلك الاستسلام السريع قد أصابني بالحمى. ربما كانت تعاليم شانتي تُدخلني في أبعاد مجهولة؟ لم أكن أعلم، لكن كان كلُّ شيء يتحوَّلُ.

أفرجَ ماتيو عن ذراعه، وابتسمَ لي. أزاحَ الستار بأنامله، لم تكن الشمسُ قد بزغت بعد، لكنها لن تتأخّر. اعتدلتُ جالسةً، محتضنةً جسدَهُ.

وانتظرتُ، ناظرةً إلى البعيد، أن يولد هذا النهارُ كأنه انطلاقُ حياة جديدة. اخترقت الأشعةُ جبال الأنابورنا. ضممتُ ذراعيه حولي، وكانت أصابعُنا المتشابكة تُمَتِّنُ أواصرَ توحُّدنا. توقف الزمنُ في صمتنا.

أخرجنا شانتي من حميميتنا عندما أعلن عن الانطلاق الذي سيكون بعد نصف ساعة. غامرتُ بالاستحمام الذي لم يدم سوى دقيقة واحدة حين أدركتُ أنَّ الخيار يقتصر على الماء المثلَّج، وفعل ماتيو الأمر نفسه. تدفَّأَ كلٌّ منا بين ذراعَي الآخر، بعد أن ارتدينا ثياباً ثقيلة. كانت بقية المجموعة في انتظارنا، وسرعان ما خلَّصَتني ابتساماتُ رفاق الطريق من شعوري بالحرج.

كان نيشال أفضل حالاً. وصفَ له ماتيو علاجاً قويّاً ليواجه نهار السير الطويل الذي ينتظرنا، وأعاد تضميد الجرح بعد الفطور ثم انطلقنا في مسيرنا.

نزلنا الطريق إلى غاية بيرثانتي. كان نيشال قد أصرّ على استرداد حقيبة ظهري، وكان يسير أمام ابن أخيه الذي استعاد مرحَهُ، بعد ساعات طويلة من القلق على عمِّهِ، أسرته الوحيدة. كنتُ أتبعُ ماتيو، ويسير شانتي في المؤخِّرة.

سرَّعنا الوتيرةَ بعد أن نزلنا تحت الألف متر. كان المنحدرُ سهلاً، ودرجاتُ الحرارة لطيفةً، فسرنا دون إجهاد حتى بداية الظهيرة، وتوقَّفنا في نُزُل لنتناول الغداء.

وفي اللحظة التي كنا نهمُّ فيها بالانطلاق من جديد، تهاوى خزّانُ الماء من السطح. هوى التجهيزُ الهشُّ مقتلعاً جزءاً من القرميد، لكن لم يتضرّر أحد، لحسن الحظ. أسرع شانتي، وماتيو، وتيم، ونيشال إلى مساعدة صاحب النُّزل ونجله لرفع الصهريج، وفي الوقت نفسه، خرجت امرأةٌ غربيةٌ في حوالي الخمسين من عمرها من إحدى غرف الدور السفليِّ، تجأرُ بالإنجليزية ويتبعها زوجُها الذي كان يحاول تهدِئتها. جرَّها نحوي طالباً العون، وتركها تتعلَّقُ بي كأني عوامة إنقاذ، ثم انطلق رافعاً عينيه إلى السماء، ليمدَّ يدَ العون للرجال الآخرين.

«هل تشعرين بألمٍ في جسدك؟ سألتُها في ارتباك.

- كلَّا، لكنني لا أجرؤ أن أتخيّل ما كان يمكن أن يحدث، قالت ناحبةً.

- لا تضعي نفسكِ في هذه الحالة، إنه أمر ماديٌّ فحسب!

- أنت لا تفهمين، دائماً ما تحدث لي مثلُ هذه الأشياء!».

كانت نبرة صوتها أكثر حدة. جففت دموعَها بأناملها، حريصة على ألاَّ تُفسد المسكرة، وأخرجت منديلاً وأصلحتْ زينتَها، ثم راحت تبكي من جديد.

«بعد بضع دقائق، لن يكون الأمر برمته سوى ذكرى سيئة، حاولتُ أن أهدِّئها دون اقتناع.

- ما كان عليَّ أن أقبل بالمجيء إلى هنا. ألحَّ عليَّ زوجي

إلحاحاً شديداً إلى أن استسلمتُ، دأبي دائماً! لكننا نعيش الجحيمَ منذ وصولنا. ولسنا سوى في اليوم الثاني من رحلتنا. سأهلكُ هنا، لا محالة! لطالما فعلتُ ما يريد. إني أتحمَّلُهُ منذ ثلاثين عاماً، فهو لم يُنصت قطُّ إلى ما يمكن أن يُسعدني. لم أكن محظوظةً في حياتي، فعندما كنتُ طفلةً، كان أبي...».

سرَّعتْ من صبيب كلامها، وكنتُ أتشبَّثُ بكلمةٍ ثم بأخرى لأتمكن من الربط بين أقوالها، إلا أن دموعها كانت تُذيبُ كلماتها التي تكاد لا تُسمعُ. تهت في كلامِها وسط جملة طويلة، فتفحَّصْتُها مندهشةً وهي تستعرضُ بؤسَها، ثم ختمت حديثَها بـ «أنتِ تفهمينني، أنا واثقة من ذلك، أنتِ مثلي!».

لكنني لم أكن أفهم شيئاً من كلامها، بل أكثر من ذلك، ضايقني سلوكها. كنتُ أريد أن أعبّر عن سخافة الموقف، لكني حاولتُ أن أظلَّ هادئةً متذكِّرةً كلمات شانتي: «أتريدين أن تظلّي مرتبطةً بالآخر أم أن تكوني على صواب؟»، فتوقفتُ عن محاولة إقناعها بعبثة الحادث. كانت في حاجة إلى أن تبثَّ شكواها، وكانت تجد فيَّ روحاً طيّبةً لتُنصِتَ إليها.

توجَّه اهتمامي إلى الرجال المنشغلين بإصلاح الخسائر، فاسترجعتُ هدوئي، ونسيتُ المرأةَ الباكيةَ، التي سرعان ما ردَّتني إلى واقعها الحزين: «كم كنتُ حمقاء لآتي وأدفن نفسي هنا. ما الذي دهاني لأتبعه؟ على أية حال، هنا أو في مكان آخر، أنا لا أصلحُ لشيء!». نهضتْ، وحيَّتْني، وعادتْ إلى غرفتها. استطاعتْ تلك المرأةُ، في خمس دقائق، أن تحبسني في شعور بالضيق عميقٍ. لقد تركتُها تتحدث دون أن أقاطعها، لكنني لم أكن أطيق نزعتَها السلبيّةَ وشعورها بأنها ضحية.

اقترب مني شانتي، وشرحتُ له الحديث والحالة التي كنتُ عليها.

«إنَّ كونَكِ لم تحاولي أن تكوني على صواب ساعدكِ على أن تحتفظي بطاقتكِ. يمكنكِ أن تُهنِّئي نفسَكِ على أن وعيتِ بذلك.

- أشعر بالضيق، مع أنني كنتُ في أحسن حال قبل هذا الحديث معها.

- أنتِ تشعرين بالضيق لأنَّ سلوكها لمسَ شيئاً داخلَكِ. لقد فكرتُ في لقائكِ مع شيكارو. إنه محق، ونظريَّتُهُ متينة. إنَّ الآخر هو انعكاسٌ لنا. يجب أن نبحث عن التشابهات بدلاً من الاختلافات.

- لستُ موافقةً. لقد انتحبت تلك المرأة من دون أيِّ حياء. لا أعتقد أنني مثلها. هل سبق أن سمعتني أستجدي شفقةً؟ أنا أحرص على ألا أفعل ذلك أبداً مهما يكن الأمر.

- لماذا لا تشتكين قطُّ؟

- لأنَّ هذا لا يفيد في شيء!

- بالنسبة إلى البعض، الشكوى هي طريقة لجذب الطاقة، لكن المهمَّ هو أن تفهمي لماذا تتأثّرين بهذا النوع من السلوك.

- لستُ أدري، أنا أكره المتذمّرين.

- قد يكون هذا جزءاً تُنكرينه فيك. 'الآخرُ هو انعكاسٌ لنا' لا يعني أننا نُشبهه في جميع النقاط، بل أن ما يضايقنا في سلوكاته هو منطقةُ ظلٍّ نتوجّسُ من الاقتراب منها، في داخلنا. ولأنها تؤلمنا، نُفضِّلُ أن نتجاهلها، إذ يمكن للألم أن يظهر من جديد إذا ما وجدتِ نفسَكِ أمامه. هل تعرّضتِ لهذا النوع من السلوك في صغركِ؟

- لا أرى ذلك.

- ربما كانت الشكوى محرَّمَةً عليكِ من والديك؟ أو ربما كان قريبٌ من أقربائكِ يستعمل هذه الآلية لتحمل شوء حاله وتبريره؟».

فكرتُ لحظةً.

«دخلت أمي في حالة اكتئاب مدةَ عشر سنوات بعد رحيل أبي، لكن كان لديها سبب وجيه لذلك، فقد هجرَها فجأةً من أجل فتاة تصغرها بعشرين سنة.

- هل كانت تميل إلى الشكوى إليك؟

- أجل، كانت حزينة، وهذا أمر طبيعيٌّ بعد صدمة كهذه!

- أنا لا أطلق عليها الأحكام، يا ماييل، لكن ينبغي لكِ أن تفكِّري في تلك الفترة، فربما كنتِ تشعرين أنكِ ملزَمَةٌ بالإنصات إليها والتخفيف عنها. وعندما تصادفين موقفاً مشابهاً، يظهرُ هذا الواجب من جديد ويضعكِ في منطقة من عدم الراحة. الآخر هو مرآةُ وظائفنا واختلالاتنا، فهو يسمح لنا أن نكشفَ ما حاولنا أن ندفنه أو نُنكرَهُ.

- هذا مخيف!

- بل بالعكس، كلما ازداد وعيُكِ بجراحكِ، تمكَّنْت أكثر من التعبير عن قدراتِكِ. شيكارو على حق: الآخر هديَّةٌ رائعة، فهو يسمح لنا أن نصل إلى ما كنا نرفضُ رؤيته».

وجدتُ بعض الصعوبة في قبول ما يقوله لي شانتي، لكنني شعرتُ أنَّ كلماته كانت محقَّةً. كان كبريائي يحاولُ أن يقاوم، لكنْ سُدى. كانت تلك المرأة قد ألقتْ بي في حالة شبابي، وهي فترة مؤلمة لم أكن أحبُّ أن أستعيدَها. سألتُهُ إنْ كان لدينا السلوك نفسُهُ مع الجميع.

«لقد قضينا طفولتَنا، ومراهقَتَنا، وشبابَنا، وكِبرنا نبني لأنفسنا

صورةً مثاليةً بكبت الجوانب السوداء من شخصيتنا. وحين لا تعجبنا صفة من صفاتنا، نخفيها. ويدفعنا إيمانُنا العميق بأنَّنا لم نُمنَحَ الحُبَّ إلا مقابل سلوك يتصف بالكمال، إلى أن ننبذ أجزاءً من ذاتنا الحقيقية. وحين يكشفُ أحدٌ أحدَ عيوبنا، يكون من الأسهل بالنسبة إلينا أن نتهمَهُ لكيلا ينكشفَ أمرُنا. ونتوقَّعُ من محاورِنا الأمرَ نفسَهُ: سلوكٌ لا غبار عليه. وإن لم يكن الأمرُ كذلك، فإننا نجتهد في أن نجعله يتنبَّهُ إلى ذلك من خلال إطلاق الأحكام، والانتقاد، أو النبذ. فنحن نُخصِّصُ قسماً كبيراً من طاقتنا لإخفاء مواطن ضعفنا. ويحرمنا الضغطُ الذي نفرضُهُ على أنفسنا لضمان صورتنا الفضلى من الوصول إلى السعادة. نحن في بحث دائم عن اعترافِ الآخرين بنا، وهو مصدر الأوكسجين الوحيد الذي عثرنا عليه. نُطوِّرُ تعصُّبَنا، وميلَنا إلى النقد، وحاجتَنا إلى أن نكون مختلفين. نشحذ حساسيتَنا ونشعرُ بالإهانة إذا ما تعرَّضنا لملاحظاتٍ أو لغياب الامتنان. وعندما يتصرف الآخرُ بتجانس مع ما نحاول كبتَهُ، فإنه يضعنا في منطقة من عدم الراحة، ونفضِّلُ أن ننظر إليه باعتباره عدوّاً على أن نرى فيه تشابهاً مع ما لم نعالجه.

- أنا أفهمُك، لكنني غير واعية بما قمتُ بدفنه.

- هل لديكِ إرادةٌ عميقةٌ لإصلاح الأمور؟

- أجل، بالتأكيد.

- كما قال لكِ ماتيو، إنَّ الرغبة في التغيُّر هي نقطة انطلاق التحوُّل.

- وأنتَ؟ ماذا تفعل لمعالجة مناطقكَ المؤلمة؟

- أحاولُ أن أحدّد الضيق الذي أشعر به في وجه محاوري. أستجلي يوماً تلو آخر ما يضايقني، وما الذي أزعجني في سلوكه.

أية ملاحظات أو مواقف جرحَتْني؟ ما الذي لا يمكنني التعبير له عنه؟ وأكتبُ ما يصعبُ عليَّ الاعترافُ به لنفسي».

أخرجَ شانتي دفتراً أسود صغيراً من جيبه. فتحهُ وأراني عموداً. «أسجِّلُ نجاحاتي هنا». وقلب صفحةً. «وأسجِّلُ ما لا يزالُ يستعصي عليَّ هنا». وانتقل إلى آخر الدفتر.

«والمستحيل هنا. وكلما تجلَّتْ مشاكلي، أستطيعُ أن أعمل عليها بعناية خاصة.

- يا له من عمل!

- ليس الأمرُ أكثر تعقيداً من البحث عن الاختلافات التي تُفرِّقنا، وهو أقلُّ ضرراً من النميمة. ما هو أكثر تعقيداً هو الخروج عن عاداتنا الآلية للولوج إلى التفكير في تشابهاتنا. يكفي أن نطرح على أنفسنا الأسئلةَ المناسبة عند كلِّ لقاء، من قبيل: ما الذي أحبُّهُ فيها، ما الذي يؤثر فيَّ؟ ما الذي يمكنها أن تكشف لي؟ أليس لديها إجابة من أجلي؟ هل لديَّ شعورٌ بأننا نتذبذب على التردّد نفسه؟ ما الذي يصعبُ عليَّ قبوله لديها؟ هل سبق لي أن تصرفتُ على هذا النحو مع شخص آخر؟

- أنتَ على حق، سأحاول!

- كلا، إن كنت تودِّين ذلك، احرصي على التعبير عن رغبتكِ بوضوح!

- ابتداءً من الآن، سأكون منتبهةً إلى منطقة عدم الراحة التي يعكسها لي الآخرُ وسأبحثُ بداخلي عمّا لم أكن أريدُ رؤيتَهُ إلى حد الآن. سأقبلُ نفسي بمجملي كما أنا!

- هنيئاً لك، يا مايل. ليس لديَّ ما أضيفُهُ!».

شعرتُ أني تحررتُ من ثقل ذلك الضيق. كان شيكارو على

حق، هذه المرأة كانت هديةً، فهي أنارتْ لي ألماً من الطفولة. ثم إنَّ ذلك اللقاء مكَّنني من أن أنتقل بنظرية شيكارو إلى مجال الممارسة. ابتسمتُ لهذه المصادفة!

بعد الانتهاء من إصلاح الصهريج، استأنفنا سيرنا نحو بوخارا. استمتعتُ بدقائقي الأخيرة في أعالي الجبال، وولجنا، أنا وماتيو، أعلى القرية المطلَّة على المطار، يداً في يد. شعرتُ بقلبي ينقبض، فكنتُ أعلمُ أنَّ طائرة ستفصلني عنه غداً. تشبّثتُ بذراعه المحيط بكتفيَّ.

قادنا شانتي إلى النُّزل الأخير في رحلتنا، ولم يكن مريحاً أكثر من سابقيه. كنتُ سعيدةً بأن أستمتع بتلك الليلة الأخيرة في الهيمالايا رفقة الرجل الذي كان يجعل قلبي يدقُّ بكل هذه القوة وبكل هذه السرعة.

قضى نيشال، وتيم، وشانتي المساء عند بعض الأصدقاء. دعونا إلى مرافقتهم لكننا فضلنا حميميتنا. وبعد أن شربنا الشاي، شكرَ ماتيو شانتي، الذي كان عليه أن يذهب عند الفجر لزيارة ابن عمٍّ له في قرية مجاورة. كانت طائرة ماتيو ستُقلع في الصباح، وكان يعلم أنه لن يراه مجدّداً في وقت قريب. تبادلا عناقاً طويلاً ثم نظرا في عينيْ أحدهما الآخر بإمعان، وضمَّهُ شانتي بين ذراعيه من جديد راجياً له سعادةً كبيرة.

وتسلَّلنا أنا وماتيو إلى غرفتنا.

خيانة

«ليست التجربة ما يحدث لنا،
إنما هي ما نفعلهُ بما يحدثُ لنا».
ألدوس هكسلي

استيقظتُ ووجهي على صدر ماتيو، ناظرةً إلى وجهه النائم، ومنصتةً إلى نبضات قلبه الرقيقة على خدِّي. صهرتُ تنفُّسي في تنفُّسه، وجذعُهُ يرفعني على إيقاع رئتيه.

كان لا يزال أمامنا ساعتان نتشاركها قبل انتقاله إلى كاتماندو. وكنتُ أعلم أنَّ الفراقَ، ولو قصير، سيكون طويلاً. هنالك ثوانٍ لا تنتهي! كنّا قد اتفقنا على لقائنا القادم في أوروبا، وتشبَّثْتُ بالمستقبل الذي كان يفتح لي ذراعيه.

اغتنمتُ هذه اللحظة المسروقةَ، المشبعة بكل وعودنا، ثملةً برغبتنا المندمجة بتلك الساعات الليلية، إلى أن رسم ابتسامةً على محيّاهُ عند التقاء نظرينا.

قبَّلني، والتحمَ جسدانا. اكتشفتُ، وأنا أستسلم له، أحاسيس جديدةً. هل كانت هذه عوالم أخرى؟ أنصتُّ إلى حياته ترقصُ، وانصهر قلبانا في نبض واحد. حملتْني دوّامةٌ من العواطف،

وغمرتني موجةٌ من السعادة. داعبَ ماتيو شعري، وقبَّلني من جديد وحاول أن يتخلَّص من عناقي ليستعدَّ للرحيل. أمسكتُ به، ثم نظرتُ إليه وهو ينتزع نفسَهُ من عشِّنا، ويعود ليضع قبلةً على جبيني. انكمشتُ في الفراش الساخن بجمراتنا. ارتدى سروالاً وقميصاً وخرج من الغرفة في اتجاه الحمام. كنتُ أحلِّقُ، متعلِّقةً بأفكاري.

رجّ هاتفُ ماتيو. مددتُ يدي على نحوٍ آليٍّ وقرأتُ رسالةً نصَّيةً بالإيطالية: «**اشتقتُ إليكَ كثيراً، أنتظرُ لقاءكَ غداً بفارغ الصبر. عُدْ بسرعة. أحبُّكَ. لورا**»، يليها صفٌّ من أيقونات القلوب الحمراء. راح قلبي يدقُّ بعنف. من تكون لورا هذه؟ نظرتُ، مرتعشةً، إلى الهاتف ووجدتني في مواجهة ما لا يمكن تخيّله. ورأيتُ اسمَ رومان، صديقتي، يظهرُ تحت اسم تلك المرأة. فتحتُ المحادثة وقرأتُ، مندهشةً، رسائلَها المتبادلة مع ماتيو منذ عدة أيام.

13 نوفمبر

ماتيو: «الاقتراب الأول لم يكن مُقنعاً».

رومان: «خُذْ حذركَ، إنها فطِنةٌ، احتفظْ ببعض المسافة».

ماتيو: «سأغادر غداً صباحاً وسألتحق بها من جديد في الأعلى».

رومان: «هي لا تشكُّ في الأمر؟».

ماتيو: «كلا، لا أظنُّ ذلك».

رومان: «كيف حالها؟ هل هي صامدة؟».

ماتيو: «أجل، إنها قوية، ستكون بخير».

رومان: «تأكَّدْ من أنها حصلتْ على رزمة الأوراق، فالمطلوب من جيسون أن يُسلِّمها لها يداً بيد».

ماتيو: «لا تقلقي، سأكون هناك، سأخبركِ بكل شيء!».

16 نوفمبر

ماتيو: «سلَّمَها جيسون الرزمةَ، Tutto va bene![1]».

رومان: «رائع. سأسافرُ لبضعة أيام، الشبكة ضعيفة لديَّ».

ماتيو: «لا تقلقي، سأهتمُّ بكل شيء».

قفزتُ من السرير دون أن أقرأ المحادثة مع لورا. ارتديتُ ملابسي، غاضبةً، وتوجهتُ إلى الحمام حاملة الهاتف في يدي ورميتُهُ على باب الحمام بعنف وأنا أصيح ألمي. «كيف استطعتُما أن تفعلا ذلك بي؟». حملقَ ماتيو، من تحت طبقة من الصابون، في عينيَّ الدامعتين، ثم في الهاتف المتناثر أجزاءً عند قدميه. «كيف استطعتَ أن...؟»، كررتُ وأنا أكزّ على أسناني. أمسكَ ذراعي.

«سأشرح لكِ.

- ليس في الأمر ما يُشرح، لقد فهمتُ!

- لا، يا مايل، الأمر ليس كما تظنّين».

« **الأمر ليس كما تظنّين**». كانت هذه الجملة نفسها التي تلقَّيتُها عندما فاجأتُ زوجي السابق في فراشنا رفقة إحدى زميلاته في العمل، وأنصتُ مثل بلهاء لحججه، ليستغفلني مرة أخرى بعد ثلاثة أشهر، على نحوٍ أكثر شناعة!

لا مجال لأن يتكرر ذلك اليوم! قاومتُ قبضتَهُ وهربتُ، غير قادرة على تحمُّل كذبة أخرى. أطلقتُ صرخةَ حنَقٍ وهرولتُ بسرعة الألم حدَّ الإنهاك وجلستُ، مرهقةً، بعد ساعة من العناد في تسلُّق

---

(1) بالإيطالية في النص الأصلي، ومعناه: كل شيء على ما يرام - المترجم.

طريق حجريٌّ عموديّاً. وخزني الخنجرُ المغروسُ في صدري وخزاً عنيفاً. كيف أمكنني أن أكون بهذه الدرجة من السذاجة؟

*

كانت الشمس تتقدم في السماء، والسيناريوهات تتكاثر في رأسي. مزَّقتْ طائرةُ ماتيو الصمتَ، وهدَّني عنفُ الموقف. نظرتُ إلى الطائرة وهي ترتفعُ، حاملةً معها كلَّ أحلامي. انفجر قلبي في حمّامٍ من البكاء، وانغلقتُ على نفسي في استسلام مريع. كنت مثل طفلةٍ ضعيفة، وحيدة. بقيتُ أئنُّ مدة طويلة، مشلولَةً، ثم حاولتُ أن أفهم.

ما الذي يوجد في تلك الرزمة؟ كيف سمحتُ لنفسي بأن أُخدَعَ؟ فكرت في مواد ممنوعة، لكنني لم أتصور أنَّ رومان قد تستغلَّني لهذا الغرض. إلا إن كانت قد كلَّفَتْ ماتيو بالحصول عليها؟ كلَّا، هذا غير معقول، فأنا التي كنتُ سأحملها إليها.

كنتُ قد تركتُ كلَّ شيء في الغرفة. يا لي من بلهاء! استولى عليَّ القلقُ، وأسرعتُ في اتجاه النُّزل. كانت الأسئلةُ تتزاحمُ بنفس السرعة التي أعدو بها، وبالكاد رأيتُ تيم، الذي كان ينتظرني فوق الجسر. «أنصتي إليَّ يا ماييل، لقد طلب مني ماتيو أن أسلِّمَكِ هذه الرسالة، إنّ الأمر في غاية الأهمية!». أبطأتُ الخطى، وانتزعتُ الرسالة من يده وتوقفتُ لحظة. لا، لا مجال لأن أُستغفَلَ من جديد، لقد أعطيتُ ما لديّ! مزقتُ الورقة من شدة حنقي، فتطايرت الكلمات إلى غاية النهر. «ما هو إلا كذّاب، لا أريد شيئاً منه بعد الآن، أتسمعني؟!».

تغيَّر وجهُ تيم الطيّب، ونظر فاغر الفم إلى قصاصات الورق

يحملها التيّار. جريتُ إلى غرفتي، وأفرغتُ محتوى حقيبة ظهري فوق السرير. كان كلُّ شيء لا يزال موجوداً، وخصوصاً الرزمة! نزعتُ الخيطَ بأسناني ثم الورقَ الذي يغلِّف دفتراً أصفر برتقاليّاً، جديداً. جلستُ على حافة السرير وأخذتُ أتصفَّحُهُ: صفحات فارغة. لم أكن أفهم شيئاً. تمدَّدتُ، في يأس. كانت ألف فرضية تدور في رأسي، لكنني لم أطمئنَّ لأيٍّ منها. تشبَّثَ غضبي، واختنقتُ، فخرجتُ.

كان شانتي عائداً من زيارته العائلية. اقترب مني. «أريد أن أكون لوحدي»، قلتُ له بجفاء. لم يلتفت إلى طلبي، وجلس إلى جانبي. فواصلتُ بصوتٍ عالٍ:

«أنا أحتاج إلى أن تتركني وشأني، تستطيع أن تفهم هذا، أليس كذلك؟

- ما الذي يجري؟ هل هو رحيل ماتيو الذي يجعلك في هذه الحالة؟

- لا رغبة لي في الحديث عن الأمر.

- طيّب. لا أعتقد أنكِ تبحثين عن الوحدة، بل أعتقد أنك لا تستطيعين إلا أن تتصرفي على هذا النحو، وهذا أمرٌ مختلف.

- شانتي، أرجوك، لا أريد وعظاً. دعني وشأني!

- إنَّ غضبكِ يُعبِّرُ عن انغلاقكِ».

زأرتُ قائلةً:

«لستُ غاضبةً!

- حقّاً؟

- لا أطيقُ أن أُجبَرَ على فعل أمر ما. أرغبُ في أن أكون لوحدي، وأنت تتظاهر بأنكَ لا تفهم ذلك.

- أنا المخطئ إذاً؟».

كنت قد ضُبِطْتُ في حالة تلبس مع أنايَ، فأخذتُ أبتسمُ معه. فعلى الرغم من كل ما علَّمني إيّاه، ها هي ردود أفعالي الآلية تعود بسرعة! «مايبل، أعرفُ أنَّ الطفل بداخلك يحتاج إلى أن يطمئنَّ. إنه يجد أعذاراً ليحافظَ على موقع الضحيّة. لكن، هل يمكنني أن أتحدَّثَ إلى الشخص البالغ فيك؟». أطرقتُ بنظري. «أجل، أنا غاضبة، لكن لديَّ دوافعي، فقد عشتُ الجحيمَ في الآونة الأخيرة! لقد خدعتْني صديقتي. لا أفهمُ لماذا حاولتْ أن تغشني». وحكيتُ له مشهدَ الصباح، وهاتف ماتيو، ورسالة لورا، ورسائله التي تبادلها مع رومان. أنصتَ إليَّ صامتاً. توقفتُ فجأةً عن التفسير وحدجته بنظرة مرتاعة.

«وأنتَ؟ كنتَ على علم بذلك طبعاً!

- كلا، أؤكِّد لكِ!».

بدا شانتي صادقاً. ذهب ليتبادل بعض الكلمات مع تيم ونيشال قبل أن يعود نحوي. لم يحصل على شيء إضافيٍّ، فقد اكتفى ماتيو بتسليم الرسالة لتيم طالباً منه أن يسلّمني إياها.

«مهما تكن الدواعي، فإنَّ لديكِ الخيار بين أن تخرجي من هذه الحالة أو أن تبقي فيها. أنتِ وحدكِ تقرِّرين المدةَ التي ستقضينها في هذا الضيق.

- لا يمكنني ذلك، لقد خُدِعْتُ. جسدي يؤلمني، ومعدتي مثقلَةٌ بحملٍ لا أستطيعُ إزالته. إني أتعذَّبُ حدّ الصراخ!

- جميعُ الآلام التي تصفينها تتغذّى على غضبكِ ومعتقداتك. وإذا خرجتِ من هذه الطاقة السيِّئة، فستستعيدين هدوءك. إلا إن كنتِ تفضِّلين البقاء فيها لفترة.

- طبعاً لا! لكنني أشعر أنني سجينةٌ. أحبسُ نفسي كيلا أسبّهما. إنها الكلمات الوحيدة التي تخطر لي، فأنا غير قادرة على التحكم في أفكاري، ولا في عواطفي.

- تنفّسي واتخذي لنفسكِ مسافةً من الأمر. ليس لديك أيُّ يقين فيما تدّعينه. انتظري تفسيرات صديقتكِ وتفسيرات ماتيو، وستتخذين قراركِ بعد أن تتوافر لديكِ جميعُ المعلومات. بالنسبة إلى ماتيو، سيكون عليك أن تنتظري، بما أنه لم يعد لديه هاتف محمول، وأنتِ مزقتِ الرسالةَ التي تركها لكِ».

رسمتُ على وجهي علامةَ موافقة. سألني شانتي إن كنتُ قد حاولتُ الاتصال برومان، فأسرعتُ إلى الغرفة لإحضار هاتفي. كانت البطارية ضعيفة، لكن شبكة الاتصال متوفرة هذه المرة! وقعتُ مباشرة في علبتها الصوتية، فأغلقتُ الهاتف دون أن أتفوّه بكلمة واحدة، لكن ألحَّ شانتي عليَّ أن أطلب تفسيراً. لم أكن أطيقُ صوتَ مجيبها الآلي. تنهَّدتُ، ثم صرختُ بعد الإشارة الصوتية: «لقد خدعتيني! أنا على علم بمؤامراتك مع ماتيو. توقفي عن الاختباء خلف علبتك الصوتية. تحلَّيْ، على الأقل، بشجاعة تحمّل مسؤولية أفعالك. اتصلي بي!». أغلقتُ الهاتف، وقد ازداد غضبي.

«طيّب، نبرةُ صوتك لم تكن مناسبة، لكنك فعلتِ ما يجب فعلُهُ. والآن، يمكنكِ أن تظلّي في غضبكِ أو أن تخرجي منه. فماذا تقررين؟

- لا أظنُّ أن لديَّ الخيار في مثل هذه الظروف، لكن إن كان لديك الحلُّ لتخليصي، فأنا كلِّي آذان صاغية.

- الطريقة الوحيدة هي أن تتحرري من أفكارك العدوانية.

- اعترفْ بأنها مبرَّرَةٌ!

- الأمر يتعلَّق بهدفكِ: أتودِّين أن تكوني على صواب أم أن تستعيدي سكينتك؟

- لم أعد أدري. . .

- هل تعتقدين أنَّ صور هجومكِ على ماتيو أو على رومان تخفِّفُ عنكِ؟ يصعبُ على المرء أن يرى الأمورَ بجلاء عندما يشعرُ بالإهانة. أنتِ حبيسة استيائكِ. الخوف، والعدوانية، والغضب هي مشاعر دفاعٍ، كما تعلمين. وعندما تدركين أنَّك باعتدائك على الآخر فإنكِ تسيئين إلى نفسكِ، فإنك ستخرجين من هذا الحبس. استبدلي هذه الجمل بكلماتٍ ودودةٍ.

- لكن هذا مستحيل بعد ما فعلاهُ بي. . . شانتي، حاولْ أن تفهمني!

- ماذا فعلا بكِ؟ ألستِ الآن تؤوِّلين؟ تذكَّري، عندما ذهبتِ للقاء شيكارو رفقة تي باه، كنتِ تتخيَّلين ماتيو يتسلَّى مع فتيات أخريات.

- أجل، لكنَّ الأمر مختلفٌ هنا، أنتَ ترى ذلك جيّداً!

- كلا، ليس لديَّ يقينٌ وأفضِّلُ ألَّا أضع فرضياتٍ ما دامت التفسيراتُ غير واضحة!

- الأمرُ بيِّنٌ! وثقتُ من جديد ووقعتُ ضحية خديعة.

- أنتِ تلومين نفسكِ إذاً؟

- أجل، أنتَ على حق، ما أنا إلا بلهاء!

- فلماذا تُلقين بالخطأ عليهما إذاً؟ إنهما لم يُجبراكِ على شيء.

- ما الذي تقصده؟ أي مسؤولية تريد أن تُلقيها على عاتقي؟ ألا تعتقد أنني أعاني بما فيه الكفاية؟

- يمكنكِ أن تُلقي المسؤوليةَ على الجميع، لكن الغضب الذي

تشعرين به إنما هو غضب من نفسك، لكونك منحتِ ثقتكِ مجدداً، كما قلتِ لي لتوّك.

- أجل، لقد صدّقته، فقد بدا كل شيء ساحراً. رغبتُ في أن أحبَّ من جديد.

- ليس لديك ما تندمين عليه. لقد عشتِ لحظاتٍ عاطفيّةً. إذا كان لك أن تعيشي ذلك من جديد، ألن تفعلي؟

- آه، كلا! أنا أتألَّمُ كثيراً والثمن الذي أدفعهُ غالٍ جدّاً.

- أتعرفين ما الذي يؤلمُكِ كلَّ هذا الألم؟

- أجل، الخيانة.

- وإذاً، ليس الأمر سوى مشكلة 'أنا' تعرَّضَ إلى هجوم! ستشفين سريعاً، عندما تدركين أنَّ ماتيو لا يمثّل ما ترغبين فيه».

فكّر شانتي ثم واصل: «في الواقع، أنتِ تبكين على أوهامكِ، على مستقبلكِ الذي طار معه».

صمتُّ لحظةً، وأنا أستعيد الساعات الأخيرة بين ذراعيْ جلّادي. «هذا صحيح. لقد قضينا الليل نتحدث عن مشاريعنا. وعندما أفكر أنه كان يكذب عليّ... هذا لا يُحتمل». وانفجرتُ بالبكاء.

«المستقبل سمٌّ مثله مثل الماضي. إنَّ التعلُّق بوهم لا وجود له في الأصل يؤدي إلى العذاب. أنتِ تستسلمين للذعر لأنَّ المستقبل الذي كنتِ تتخيلينه لم يعد ممكناً. العيش في زمن غير الحاضر هو حيلة من الأنا. أنتِ تبكين على سرابكِ. إنها صورة غير واقعية عن الحب. مثلك مثل أولئك الأشخاص الذين، إذا ما تزوَّجوا، شعروا أنهم في أمان.

- الزواج هو فعل التزامٍ، وأنا أول من أؤيِّدُهُ.

- أجل، إن عاشه المرءُ بقوة الحاضر، وليس باعتباره يقيناً لمستقبل مضمون. وللأسف، نحن نحتاج إلى قطيعة جذرية مثل فقدان العمل، أو نكسة عاطفية، أو مرض خطير، لتُعيدَنا إلى الواقع. إنَّ الألم المصاحب مرتبطٌ بالذُّعر من ألَّا يعود المرءُ قادراً على تصوّر مستقبلٍ له. إنَّ الحياة من دون الارتهان للمستقبل تبدو لنا مستحيلة، بيد أنها اللحظة الحقيقية الوحيدة».

كنتُ أرغب في طرد مرشدي وجُمَلهُ المبتذلة، لكن كان عليَّ أن أعترف أنه دائماً ما كان يجد الكلمات المناسبة. مسحتُ دموعي بظهر يدي.

«تقصد أنَّ ألمي مرتبطٌ بإسقاطاتي وبآمالي التي تبدَّدتْ؟

- أجل، فعندما نستغرقُ في مستقبلنا، فإننا نفوّتُ السعادة التي تحيط بنا. نفضِّلُ تغذية قلقنا المرتبط بالأفكار الافتراضية: ماذا لو بقيتُ وحيدةً طوال حياتي؛ وماذا لو لم أكن مخلوقة من أجل الحب؛ وماذا لو لم أعثر على عمل؛ وماذا لو أُصبتُ بمرض؛ وماذا لو، ولو، ولو...

- ولكن عندما يكون الوضعُ لا يُحتَمَلُ؟ مثل هنا...

- ليس الحاضر الذي يؤلمك، إنما فقدانك لأوهامك. فعندما يحدث تغيُّرٌ ما، يمكننا أن نجد الموارِدَ اللازمة لاغتنام فرصة اللحظة والعثور على الطريق الذي يرضينا. فنحن نعلمُ أن من المستحيل أن نبنيَ على المظاهر، لكننا نستمرُّ في التعلُّق بها كأنها يقين. وتتكفل الحياةُ بتذكيرنا بذلك، هذا كل شيء. ليس لتجعلنا ندفع ثمن أيّ شيء، ولكن لأننا لا نستطيع الاستمرار في الكذب على أنفسنا. فهناك قسمٌ منّا يستيقظ ويعيدنا إلى الواقع.

- هنا ينبغي أن أعترف أنَّ الحياة لم ترأف بي! أردتُ أن أمنح

ثقتي، وفتحتُ بابَ قلبي ووهبتُ حبِّي. والنتيجة: أتعرض للخيانة من دون أيِّ تفسير، وتكون صديقتي، فوق ذلك، هي التي أمرتْ بذلك. إني أمقتُهُما كليهما!

- هل تعتقدين أنَّ الحبَّ يمكن أن يتحوَّل إلى كراهية؟

- أجل! وفي هذه الحالة على وجه الخصوص!

- ما دمتِ تُصرِّفينه في الماضي أو في المستقبل، فلن تستطيعي أن تُجرِّبيه، لأن الحبّ يولدُ في اللحظة الراهنة.

- لكن ما العمل؟ إذا لم يكن لدينا أمل في حياة أفضل، فلا وجود لسبب للحياة.

- بل بالعكس، فأنتِ حين تغتنمين الحاضر، تستقبلين ما هو كائن. وحين تنقلين أفكاركِ ورؤيتَكِ ورغباتِكِ إلى الواقع، فإنك تصبحين حيّةً وعلى صلة بقدراتك اللامحدودة. أنا على وعي أنَّ حذف المستقبل أمرٌ صعبٌ، لأنكِ ينبغي لكِ أن تَقبلي بالعدمِ حيث كانت طاقتُكِ مركَّزة على تخيُّل عالمٍ افتراضيٍّ. لكنك إن أنتِ توصلتِ إلى هذه الحقيقة وحدها، فإنك ستطردين الأوهام من حياتِكِ».

تنهدتُ. كنت قد مللتُ من الإنصات إلى جمله الكبيرة عن «الحاضر»، و«المستقبل»، و«الأوهام»، و«المخاوف»، و«الأنا». لم يكن الأمر يحتمل التردُّدَ، فكان ماتيو وغداً بكلِّ معنى الكلمة وصديقتي المقرَّبةُ مقزِّزَةً. لم تكن الفلسفة قادرةً على تقديم أي مساعدة!

وضعتُ رأسي بين يديَّ، مستعدَّةً للصراخ لإسكات مرشدي. لكن وأنا أنظر إليه، فإذا بي أدركُ أنه كان صامتاً، ولم يكن الضجيج صادراً إلا عن أفكاري الثائرة. لا بد أنَّ شانتي أدركَ أنَّ خطاباته لن

تكفي في ظروف كهذه. نظر إلى ساعته: «ستقلع الطائرةُ بعد ساعة. يجب علينا أن نستعد... من الصعب أن نرى الأمور بوضوح عندما يختلط الحبُّ مع الغضب والمعاناة، لكن لا تنسيْ أنَّ الأبيضَ، رمزَ النقاء، يتشكل من خليط من الألوان الأولية».

جمعتُ أمتعتي، ثم جلستُ على حافة السرير. كنتُ أشعر أني فارغة، وكانت أفكاري تدور حول صورة ماتيو وقلبي يبكي غيابَهُ. تبخَّرتْ طاقتي كلُّها، ولم تعد من أفكار تُحرِّكني سوى الأفكار التي تعيدني إليه. تذكرتُ وجهَهُ، ويديه الرقيقتين، وتعابيرَ محيّاهُ، وصمتَهُ، وتنهُّداته، وبسماته، وتواطؤنا. كنتُ مشتاقة إليه بجميع خلايا جسدي. ونظرتُ عبر النافذة، وعيناي تُحدِّقان في الفراغ. طرق شانتي بابيَ الموارب. «هل أنت جاهزة؟»، سألني بصوت رقيق، فأجبتُهُ بإيماءة من رأسي.

«إني أتألَّم يا شانتي، لا أستطيعُ أن أتحرر من هذا الألم.

- اخرجي من سجنكِ! ما دمتِ مقتنعةً بأنَّكِ الضحيّة، لا أستطيع أن أساعدكِ. أَسكِتي ذهنَكِ وسنستطيع حينئذٍ أن نتناقش».

كنتُ أعلمُ في قرارة نفسي أنَّ شانتي على حق، كنتُ أجترُّ حكايتي، حبيسةَ أفكاري. تذكرتُ كلماته، وأخذتُ ثلاثة أنفاسٍ عميقة، ثم التفتُّ نحوه. «أنا جاهزة، وكلّي آذان صاغية». جلس شانتي إلى جانبي، عاقداً يديه على ساقيه.

«إن لوم ماتيو أو رومان على معاناتكِ يُبعدُكِ عن الحلِّ، لأنك تعلمين أنَّ المشكلة موجودة فيكِ أنتِ، والمفتاح كذلك.

- أُدركُ الآن أنَّني لا أستحقُّ الحبَّ.

- ذلك لأنَّكِ لا تُحبِّين نفسَكِ.

- بلى، بالتأكيد! في الحقيقة... لستُ أدري!

- أنت تُطلقين الأحكام على نفسكِ مثلما تفعلين مع الآخرين. ما دمتِ تشعرين بالنقص، لن تتمكني من أن تحبّي. ستعرفين ما هو جيّدٌ بالنسبة إليكِ انطلاقاً من اللحظة التي ستثقين فيها في نفسك. هكذا يمكنكِ أن تعيشي في انسجام مع رغباتكِ العميقة، دون خشية التعرُّض للرفض والإبعاد. عندما ستعقدين علاقة صداقة مع نفسكِ، لن تخافي أبداً من أن تكوني وحيدةً.

- هذا صحيح، أشعر أني وحيدة.

- هل تعلمين أن هنالك شخصاً في هذا العالم لن يتخلى عنكِ أبداً؟ الشخص الوحيد الذي سيكون إلى جانبك دائماً، هو أنتِ! اهتمي بنفسكِ، انظري إلى نفسكِ بعطف، واعملي على فهم نقاط ضعفكِ وقوتك، دون أن تحكمي على نفسك. ابدئي بأن تحبي نفسكِ من أعماق كيانكِ وستتمكّنين من أن تحبي شخصاً بلا خوف. أنتِ تشعرين بالوحدة، لأنكِ تُهملين نفسكِ. ثقي في الحياة. لقد عبَّرتِ عن أمنياتكِ، فكوني واثقةً من أنَّ المصفوفة الكونيَّة يعمل من أجلكِ. أنتِ تعيشين ما ينبغي لكِ أن تعيشي، وتلتقين بالأشخاص المناسبين في الوقت المناسب من أجل تحقيق أهدافكِ. أنتِ محبوبةٌ حبّاً أعظم مما تتخيّلين. إنكِ في طريقك».

ساد بيننا صمتٌ طويلٌ قبل أن يستأنف شانتي كلامه.

«عندما أشعر بالوحدة، أتذكَّرُ الحكاية التي كان يرويها لي جدِّي إذا ما كنتُ يائساً:

كان الشيخ يمشي، منذ ما يقارب المائة عام. كان قد عبر الطفولةَ، والشبابَ، وألف فرحة وألم، وألف أملٍ ومشقة. كانت ذاكرته لا تزال تقطنها نساءٌ، وأطفالٌ، وبلدانٌ، وشموسٌ. كان قد أحبَّهم جميعاً».

وكانوا خلفهُ الآن، بعيدين، يكادون يمَّحون. لم يتبعه أحدٌ إلى هذا الطرف القصيِّ من العالم حيث وصل. كان وحيداً في مواجهة المحيط الواسع.

توقف عند طرف الأمواج، والتفتَ فرأى آثارَ خطواته على الرمل الذي يضيع في الضباب اللامتناهي. كانت كلُّ خطوةٍ يوماً من حياته الطويلة. تعرَّفَ إليها جميعاً، التعثُّرات، واللحظات العسيرة، والمنعطفات، والدرجات السعيدة، والخطى الثقيلة حيث كانت الأحزان تُثقل كاهله. عدَّها. لا تنقص منها واحدة. تذكَّرَ فابتسمَ لطريق حياته.

وفي اللحظة التي كان يستدير فيها ليتوغَّلَ في الماء المُظلم الذي يُبلِّلُ نعلَيه، تردَّدَ فجأةً. بدا له أنه رأى شيئاً غريباً بالقرب من خطواته. نظر من جديد. في الحقيقة، لم يكن يمشي وحيداً. كانت آثارٌ أخرى تمشي إلى جانب آثاره، على طول طريقه. اندهشَ. لم يكن يتذكر أيَّ حضور وفيّ قريب منه كلَّ هذا القرب. تساءل من كان يرافقه. أجابهُ صوتٌ مألوفٌ ولكنه من دون وجه: 'هذا أنا'.

تعرَّفَ على جدِّه الأعلى، الأب الأول لتلك السلسلة من الرجال الذين منحوه الحياة، ذاك الذي كانوا يدعونه بالرَّب. تذكَّر أنه في لحظة ولادته، وعدَهُ ذلك الأب الذي هو أبُ جميع الآباء بألَّا يتخلّى عنه أبداً، فشعر في قلبه ببهجة قديمة ولكنها جديدة، لم يجرِّب مثلها قطُّ منذ الطفولة. نظر من جديد. وعندئذٍ، ميَّزَ شريطَ آثار متوازية طويلاً، أكثر ضيقاً وأكثر دقةً. كان الأثر، في أيام معيَّنةٍ من حياته، فريداً. تذكَّر تلك الأيام. وكيف كان له أن ينسَاها؟ كانت الأيام الأشد فظاعةً، والأشد يأساً. وهو يتذكر تلك الساعات البئيسة أكثر من غيرها حيث اعتقد أنَّ الرحمة غير موجودة

في السماء ولا في الأرض، شعر بالمرارة والأسى فجأةً.

'انظر إلى تلك الأيام الشاقة، قال، لقد مشيتُ وحيداً. أين كنتَ يا ربّ عندما كنتُ أبكي على غيابكَ؟

- بُنَيَّ، حبيبي، أجابه الصوتُ، تلك الآثار الوحيدة هي آثار خطايَ. في تلك الأيام حيث كنتَ تظنُّ أنك تسيرُ على غير هدى كالأعمى، وقد تخلَّى عنكَ الجميعُ، كنتُ هناكَ، على طريقكَ. وفي تلك الأيام حيث كنتَ تبكي على غيابي، كنتُ أحملكَ'».[1]

أراحتني هذه الكلمات، وشعرتُ بتحرُّر، وبقوة بداخلي آتية من الخارج. نهضتُ، وأنا مصمِّمَةٌ على الخروج من ركودي.

*

كان نيشال وتيم ينتظراني ليُسلِّما عليَّ. أحاطا عنقي بخاطا[2]. كان ذلك الوشاح الأبيض، المزيَّن بعلامات اليُمن وبالتعويذات، رمزاً للبركة والسعادة. عانقتُهما شاكرةً إياهما على هذا الاهتمام وعلى كلِّ ما أحاطوني به من عطف في أثناء رحلتنا. لم أكن أرغبُ في أن أفارقهما. كنتُ أعرفُ أنني سأشتاق إليهما. وقبَّلتُهما مرةً أخيرة. شدَّ شانتي على يديهما بحنان، وانطلقنا نحو المطار.

جرى تيم نحوي. «انتظري، يا مايل!». التفتُّ نحوه، ففكَّ عن عنقه خيطاً من الجلد مربوطاً به حجر الكيانيت، ووضعه حول عنقي.

«لقد كنت شجاعة. أعلمُ أنك لم تعودي تخافين عبور الجسور،

---

(1) Gougaud, H., *L'Arbre d'amour et de sagesse*, Seuil, 1992.

(2) كلمة تبتية تدلُّ على وشاح عبادة تقليدي، من الحرير الأبيض أو من القطن - المترجم.

وأنَّك تستطيعين أن تأكلي بالأصابع مثل نيبالية. أهديكِ قلادتي، لأنها جلبتْ لي الحظَّ وساعدتني على ألاَّ ينقصني شيء. عندما كنتُ أتألَّمُ، كانت تواسيني. سيكون نفعُها لكِ أكبر.

- لا يمكنني أن أقبلها، يا تيم. إنها أعزُّ ما تملك!».

كان شانتي قد أخبرني بأنَّ ذلك العقد هو الشيء الوحيد الذي بقيَ له من أمِّه. «كلَّا، إن أعزَّ ما أملكُ هو قلبي، لكنني لا أستطيع أن أهديكِ إياه، لذا فأنا أهديكِ ما مكَّنني من الوصول إليه. عندما كنتُ أفكِّرُ في أمي، كان قلبي يرتعش. وعندما كنت أشدُّ على الحجر في يدي بقوة، كنت أشعر بقلبي يطفح بالفرح. وعندما كان يغمرني الحزنُ وكنتُ أقبضُ على حجر الكيانيت، كان الدفء ينتشر في قلبي. وعندما كنتُ أشعر بالضياع ولا أعلم إلى أين أتوجَّهُ، كان يكفي أن أركِّزَ على قلادتي لتأتيني الأفكارُ، فأدركتُ أنها أرشدتني إلى طريق قلبي. والآن، أنا أسير وحدي، ولستُ في حاجة إليها. وحتى إن منحتُكِ قلبي، فلن ينفعكِ في شيء، بما أنه قلبي. يجب أن تتعلَّمي كيف تُحدّدين الطريقَ إلى قلبكِ أنتِ وهذه القلادةُ ستقودُكِ إليه».

ضممتُهُ إليَّ، غير قادرة على أن أحبس دموعي.

«شكراً، يا تيم، أنتَ شخص فريدٌ. أعدُكَ أن أحافظ عليها.

- لا، لا تتعلَّقي بها. عندما تجدين الطريقَ، قدِّميها هديَّةً لشخص آخر».

فلأشكره، مددتُ له الساعةَ التي كان أبي قد أهداني إياها عند نهاية دراستي، لكن تيم أعادها إليَّ.

«إنها جميلة جدّاً، لكنها لن تنفعني في شيء، فأنا لا أعرف كيف أقرأ الوقتَ بواسطة العقارب. أنا أفعلُ ذلك بدقة أكبر مع

الشمس. احتفظي بها، فأنت أحوج إليها مني. لم يعد لديَّ الوقت لأن أعلِّمكِ كيف تهتدين بواسطة الضوء. في المرة المقبلة ربما؟

- ماذا يمكنني أن أهديكَ لأشكركَ؟».

كنتُ آسفةً. نظر إليَّ بعينيه المتألقتين، وقد غمرتْهُ السعادةُ مثل طفل اقترحتُ عليه القمر، وحملقَ فيَّ دون أن ينبس بكلمة. ألححتُ عليه، وأنا أبحث عمّا يمكن أن يفرحهُ. وفجأةً لمعتْ عيناهُ الكبيرتان. «أوَدُّ منكِ ابتسامةً، فأنت جميلة جداً عندما تبتسمين!». لم أكن أتوقَّعُ منه هذا الطلب. اغرورقت عينايَ من جديد، لكنَّ دموعَ الحنان عوَّضتْ دموع الألم. كان هذا الولد يؤثِّر فيّ. ضممتُهُ بين ذراعيَّ، فاستسلمَ لي، ثم تحرر من عناقي.

«هل تشعرين بقلبكِ يهتزُّ؟

- أجل، أشعر به سعيداً.

- إنه الحجر الذي يقودكِ إليه»، همسَ لي في أذني.

قبَّلني على خدِّي وانطلق وهو يقفزُ.

ربطتُ حجرَ الكياتين بقوة حول عنقي.

الغفران

«عندما نكون إزاء خيبة كبيرة، لا نعلمُ إن كانت هذه نهاية الحكاية. فقد يكون ذلك بداية مغامرة كبيرة».

بيما شودرون

كان يفصلنا عن مدرج الهبوط سياج يمتد إلى غاية مطار بوخارا. كانت محطة الطيران بدائية، ويُنجَزُ تسجيل الأمتعة عند منضدة مكتب مرتجَل. فتَّشَ رجلُ أمن بلباسٍ رسميٍّ حقيبةَ شانتي ثم حقيبتي، ووضعهما فوق ميزان يعود للقرن الماضي.

خرج مرشدي الأولَ من المعزل الذي يُجرى فيه تفتيش جسديٌّ إلزاميٌّ سريع. واقترح عليَّ، بعد مراقبة الهوية، أن نجلس في الخارج، على جانب مدرج الهبوط. كان الجوُّ لطيفاً. وتساءلتُ، وعيناي مغمضتان، ووجهي معرَّضٌ للشمس:

«هل تعتقد أنَّه ينبغي لنا أن نعانيَ لكي نكون سعداء؟

- كلا. لا وجود للمعاناة من دون الفكر، فما الحدثُ إلا واقعة، يمكننا ملاحظتها ثم الانفصال عنها.

- لا أتمكَّنُ من السيطرة على أفكاري.

- إنما تتألَّمين لهذا السبب. تسمحين لأفكارِكِ أن تُلوِّثَ الموقفَ. صِفي لي ما تشعرين به».

أخذتُ نفساً عميقاً. «قلبي مثقلٌ، وحنجرتي منقبضةٌ، وأنفاسي متسارعة. لم تعد لي طاقة، وأرغبُ في البكاء، وأشعر بالتعب... يصعد الغضب بداخلي، وأودُّ أن يتوقف هذا الكابوس وأن يضمني ماتيو بين ذراعيه. أرى وجهه، وأتذكَّرُ كلَّ ما عشناه في الأيام الأخيرة. وكلما فكرتُ في الأمر، تألمتُ أكثر». زفرتُ بؤسي كلَّه. «طيّب. أقترحُ عليكِ الآن أن تُنصتي إلى كلّ أفكارِكِ، مهما تكن، مدَّةَ دقيقة وأن تصفيها لي بصوتٍ عالٍ. تربَّصي بها الواحدة تلو الأخرى مثل حيوان مفترس في مواجهة فريسته وسَمِّيها لي».

ركزَّتُ فكري على طلبه، لكن كنتُ كأنني في حفرة سوداء؛ لم يخرج شيء.

«بمَ تشعرين؟ ألم تعودي تشعرين بالآلام التي كنت تُحدِّثينني عنها قبل بضع دقائق؟

- أوه... كلا، يجب أن أعترف أنني لم أعد أشعر بها. آه نعم! يغصّ قلبي من جديد عندما تظهر صورةُ ماتيو.

- ممتاز، يا مايبل. ما الذي تستنتجين أنتِ؟

- كوني أتألَّمُ عندما أفكِّرُ فيه هو أمرٌ كنتُ قد فهمتُهُ بالفعل!

- ما أحاول أن أبيِّنَ لكِ هو أنَّ الألم لا يمكن أن يظهر من دون الفكر، لأنه ليس سوى إسقاط من خيالك. عندما تطاردينه، لا يظهر، وتختفي جميعُ الأحاسيس الأليمةِ المرتبطة به.

- لا يمكنني أن أقضي وقتي أتفحَّصُ ما يعبر ذهني.

- ولمَ لا؟ هل تجدين أنه من الأريح لكِ أن تسمحي لأفكارِكِ

الآلية أن تتحكَّمَ في حياتِكِ؟ عليك أن تختاري. لكنني أكرِّرُ ما قلتُ، لا وجود لأيِّ معاناة من دون الفكر.

- أتقصدُ أنَّه كلما عاد الألمُ، يكفيني أن أطاردَ همومي لكي تختفي؟

- أليس هذا ما عشتِهِ للتو؟

- وهل ينجح الأمرُ كلَّ مرة؟

- حاولي ذلك كلما شعرتِ بالألم وستجدين الجوابَ».

أخذتُ أراقبُ أفكاري من جديد، لكنها لم تأتي. وما أن يتراخى انتباهي، كانت تستحوذ عليَّ من خلال أحاسيس أليمة. «عندما تشعرين بالضيق، ستعلمين أنَّ الفكر هو السبب».

هبطت طائرةٌ أمامنا. وما أن نزل الركّابُ حتى دعتنا المضيفةُ إلى الركوب.

كانت الطائرة الصغيرة ذات المحركين تشتمل على عشرين مقعداً فرديّاً على جانبي ممرٍّ رئيسٍ ضيق. أصرَّ شانتي على أن أجلس في الجانب الأيمن، وأدركتُ عند التحليق أنَّ الرؤية كانت رائعة من هناك.

استعرض الطاقمُ، الذي كان يقتصر على امرأة قصيرة ترتدي بدلة ذات لون بني فاتح وتركبُ كعبين عاليين يفرضان عليها مشية عرجاء، تعليماتِ السلامة. انطلق المحرِّكان، وارتفعت الطائرةُ عبر الوديان المتجاورة واتبعت سلسلة جبال الهيمالايا.

*

جاء كارما لاستقبالنا في مطار كاتماندو، وأوصلني إلى مدخل بودناث، حيث كانت مايا في انتظاري. كان شانتي سيحضر في

صباح اليوم الموالي ليأخذني إلى المطار. شكرتُهُ، فضمني في عناق طويل. سلَّمتُ على كارما الذي ضغط بقوة على علبة السرعة قبل أن يتسلل بين مدِّ السيارات. نظرتُ إليهما وهما يبتعدان وسط ضجيج المحرِّك والغبار المتطاير على عدة أمتار.

عبرتُ بوابة الفندق، فعبَّرت مايا عن فرحتها باحتضاني بين ذراعيها، فاستسلمتُ لعناقها.

«أنتِ تُشبهين حيواناً صغيراً برِّياً، قالت لي بحنان وهي تداعب شعري.

- لقد حدثتْ لي أمورٌ كثيرة في هذا الوقت القصير، آه لو تعلمين!

- غرفتُكِ جاهزة، إنها الغرفة نفسها التي شغلتِها عند وصولك. استمتعي بحمام والتحقي بي على شرفة بودناث. ستحكين لي مغامراتك، أتودِّين ذلك؟

- سأكون سعيدة بأن أفضيَ حكايتي لأذن يقظة!».

عندما فتحتُ البابَ، لم أرَ الشيء نفسه، مع أنَّ كلَّ شيء كان مطابقاً. سريرٌ كبيرٌ بفراش حقيقي، وتدفئة، وحمّام، ومرحاض. الترف المطلق! تذكرتُ حالتي الذهنية عند صولي وأخذتُ أضحكُ.

لم تكف ثلاثةُ شامبوهات في أن تجعلني أشعر بالنظافة. وفجأةً، انقطعت الكهرباء، ولم يفلح في اقتحام الظلمة سوى شعاع شمس متسرِّب عبر مصراع الكوة الموارب، مضيئاً جزيئات الغبار المتطايرة.

تلذذتُ، في العتمة، بوقع الماء الدافئ على جسدي بعد كل تلك الساعات التي قضيتُها في البرد. ارتديتُ ملابس نظيفة والتحقتُ بمايا قبالة المعبد البوذيِّ أمام فنجان شاي بالزنجبيل. وسرعان ما

حمل إليَّ شابٌ نيباليٌّ كأساً كبيراً شديد السخونة. اعتدلت مايا في جلستها: «هيّا، احكي لي! أريد أن أعرف كلَّ شيء!».

فحكيتُ لها كلّ ما حدث لي في الأيام الأحد عشر المنصرمة، يوماً يوماً: تعاليم شانتي، الفريق، لقاءاتي، المصادفات، حالات مزاجي، اندهاشاتي، جيسون، أبحاثه، شيكارو، ثم... تريَّثتُ في الحديث عن المأساة، والطريقة التي اكتشفتُ بها خيانةَ رومان وماتيو. أنصتتْ مايا لحديثي باهتمام. «لا أعرف صديقتكِ بما يكفي لأفهم السبب الذي دفعها للتصرف بهذه الطريقة، لكن لا بد من وجود تفسير...».

أوقفت جملتَها وانخرطتْ في تفكير عميق. حثَّني ذلك الصمتُ على أن أصغيَ إلى الحياة الصاخبة في الأسفل: كان رنينُ الأجراس الصغيرة وهمساتُ التعويذات تغطي المعالم بدوامات متموِّجة. فتشتْ مايا في حقيبة يدها وأخرجتْ ورقةً قديمة، وتهلَّل وجهها: «أفهم اليومَ الرسالةَ التي خلَّفها لي جدِّي قبل موته منذ أكثر من عشرين عاماً. كان يعيش في أشرم[1] في الهند، قرب بونديشيري[2]. ذات يوم، كنتُ غاضبة من والدي، فسلَّمني جدي هذا النص دون أن ينبس ببنت شفة». أرتْني مايا رسالةً اكتسبت هشاشةً بفعل الزمن، مطوية على أربع.

«وهو على فراش الموت، توسَّلَ إليَّ أن أتعلَّم هذه الوثيقة وأن أُعلِّمها. وإلى يومنا هذا، لم أدرك أهميَّتَها تماماً، غير أنها تكتسي

---

(1) مكان يتجمع فيه المريدون حول غورو (زعيم طائفة دينية) ليتلقوا تعاليمه - المترجم.

(2) مدينة هندية كانت في السابق مستعمرة فرنسية - المترجم.

معناها كاملاً في ضوء ما شرحتِهِ لي الآن». وضعت الرسالةَ فوق الطاولة، واستخدمت يديها كلتيهما في ربط شعرها الطويل إلى الخلف، وأخرجت من العلبة نظارتين ذاتي أصداف، ووضعتهما على أنفها، ونشرت بعناية الورقةَ المصفرَّةَ المكتوبة بالسنسكريتية وترجمت لي:

'ما الذي يمكن أن ترغبي فيه ولا يمنحكِ إياه الغفرانُ؟ أتريدين السلام؟ يمنحك إياه الغفرانُ. أتريدين السعادةَ، وذهناً هنيّاً، ويقيناً بما يخص الهدف، وشعوراً بالقيمة والجمال يتسامى على العالم؟ أتريدين عنايةً وأمناً، ودفءَ حمايةٍ آمنة دائمة؟ أتريدين سكينةً لا يمكن إزعاجُها، ورقّةً لا يمكن أبداً جرحُها، واطمئناناً عميقاً ودائماً، وراحةً كاملةً بحيث لا يمكن أبداً إقلاقُها؟ كل هذا وأكثر، يمنحك إياهُ الغفرانُ. إنه يتلألأ في عينيكِ عندما تستيقظين ويمنحك الفرح الذي تفتتحين به نهارَك. يُرخي جبينَكِ عندما تنامين ويرقد فوق جفنيكِ، بحيث لا ترين أحلامَ الخوف والشرِّ، والخبث والهجوم. وعندما تستيقظين من جديد، يمنحكِ مجدداً يوماً من السعادة والسلام. كلُّ هذا وأكثر، يمنحك إياه الغفرانُ (. . .) ما الذي تريدينه ولا يمكن أن يمنحه إياك الغفران؟ أي هبات غير هاته تستحق أن نبحث عنها؟ أي قيمة متخيَّلة، أي تأثير مبتذل أو وعدٍ عابرٍ، لن يتحقق أبداً، يمكن أن يحوي أملاً أكبر مما يحمله الغفرانُ؟ (. . .)'[1].

- إنه نصٌّ رائع. لكن الغفران ليس بالأمر البسيط، قلتُ معلِّقةً.

---

(1) Schucman, H., «Lesson 122», *A Course in Miracles*, Foundation for Inner Peace, 1976 - المؤلِّفة.

- ليس الأمر بالشديد التعقيد. لقد فهمتِ أننا ننظر عبر موشور الحبِّ أو الخوف، وأنَّ الآخر هو انعكاس لذواتنا، وأننا لسنا سوى واحد موحّد. فإن أنتِ اخترتِ السعادة، فالغفران هو مفتاحها. لا يمكننا الوصول إليها إلا عبر السلام، بما أنه الحقيقة الوحيدة الممكنة. وعندما نغادر هذه الحالة، يولدُ عدد كبير من العواطف يقودُها الخوفُ الذي يشوِّهُ إدراكاتنا. يفتح الغفرانُ البابَ أمامَ الشفاء، ويُحرِّرنا من عمانا. ويُخرجنا الغفرانُ من الحيرة، بحذفه مصفاة الحقد. تأخذ الرأفةُ بيدنا لنفهمَ أخطاءَنا في الحكم على الأمور، وتضعنا أمام مسؤولياتنا: نحن لسنا بريئين، ومحاورونا ليسوا مذنبين.

- أودُّ أن أقوى على الغفران، لكن الألم مستمرٌّ.

- كما شرح لكِ ذلك... أوه... الياباني الذي تحدثتِ عنه قبل قليل، كلُّ انزعاج إنما هو فرصة للفهم. يجيب الأنا أوّلاً على جميع المشاكل، لكنه يكون على خطأ ونحن نسير خلفه كالعميان. لذلك السبب يستمرُّ الألمُ.

- لكن رومان وماتيو خاناني! لستُ أنا المسؤولة. ما دخل أنايَ في الأمر؟

- حتى لو سلَّمنا بالأمر، فيمَ يؤثِّرُ ذلك فيكِ؟ الموقف هو واقعةٌ. فلمَ تشعرين أنكِ تتعرضين لهجوم؟ ما الذي يخيفكِ؟ ما الذي يُزعج راحتك؟».

نظرتُ إليها باندهاش. كانت تتكلَّم مثل شانتي. حرّكتُ الملعقة بطريقة آلية، وأنا أسحقُ رقائق الزنجبيل، وشربتُ جرعاتٍ كبيرة. صمتت مايا لحظةً، وأغمضت عينيها ثم فتحتهما، مشيرةً بسبّابتها إلى صدغها: «أنصتي إلى أناكِ، إنه يترنَّمُ دائماً بالنوتات الناشزة نفسها!».

اتخذت صوتاً ميكيافيليّاً: «'**أنا تعيسٌ لأن الجو باردٌ، لأنَّ الحاسوب لا يعمل، لأنَّ فلاناً تجاهلني، لأنه اعتدى عليَّ، لأنني لم أُدْعَ إلى هذا الاجتماع، لأنها خانتني...**'. ها أنت ترين، هو دائماً ما يجد الأعذار لينسبَ الخطأ إلى الآخر! يبحث عن حيل قصد التحكُّم في المواقف والأشخاص. يحذر من أولئك الأشخاص شديدي الاختلاف عنه. لا تسمعينه يهمس لك: '**ما علينا إلا أن ننظر من حولنا، كلّ أولئك الأنانيين الذين يريدون الإساءة إليّ. سأكون سعيداً يوم تكون معاملة ذلك الشخص أحسن، أو يوم تكون حالة الطقس أفضل...**'»؟.

ابتسمتُ ووافقتُ برمشة من عيني. «أنت على حق، يا مايا، إذا ما فكرنا في الأمر جيّداً، نرى أنَّ الحلول التي يأتي بها الأنا حلولٌ مروعة، مليئة بالعدوانية والعنف».

أمسكتْ مايا بيدي، وطلبت المشروبَ نفسه.

«أن نعِيَ ذلك يعني فهم أننا نفضل تجربة هذا العالم الجديد على الاستمرار في المعاناة جراء الآليات التي خلقناها. لا شيء يمكن أن يكون أدهى ممّا نعيشه! الخيار بين يديكِ: التخلّي عن الأنا أو اتِّباعُهُ. معاناة أو سعادة؟

- أختار السعادة، لقد سئمتُ!

- فإذاً، الغفران هو أجمل هدية يمكن أن يُقدِّمها المرءُ لنفسه، إنه السبيل إلى الحقيقة. أن يغفر المرءُ لنفسه كونَهُ لا ينتقي دائماً الخيارَ الأفضل، وأن يعذر مسبقاً الآخرَ على كونه في الخوف. إذا كنا نبحث في الخارج عن شخص ننتقدُهُ، ونُطلق عليه الأحكام، ونكرهه، فإننا نفعل ذلك كيلا نتحمَّلَ مسؤوليتَنا. لكننا إذا أقررنا أنَّ الانفصالَ إنما هو وهمٌ، فلا يعود من أمر يحتاج إلى أن نغفره.

- تمهَّلي، لم أعد أفهمك. تقولين لي إنني يجب أن أغفر، لكن لا وجود لشيء أغفره في الواقع؟

- أكيد! وهذا ما لم أكن قد فهمتُهُ: المفتاح هو الغفران اللامشروط. إذا كنا عبارة عن ذبذبة فريدة وإذا كنت تنظرين عبر موشور الوحدة، فالإساءة لم تحدث. كنا نبحث في المكان الخطأ ونحن نجيب عن الأسئلة الخطأ: لماذا يؤلمنا الآخرُ؟ أو... ما السوء الذي اقترفَهُ؟ في حين أن الموضوع هو أن أفهم ما الذي يصيبُهُ محاوري في داخلي. ما الذي لم يُعالَج عندي بحيث تتمكن تصرفاتُهُ أو كلماتُهُ من جرحي؟ عوض أن نقف موقف الضحية وأن نجد الجلادَ أمامنا، لنتّخِذْ وضعَ المسؤول عن أَلَمِنا ولنبحثْ عن السِّرِّ الذي يجعل محاورنا يعكسن لنا هذه المعاناة.

- أفهمُ على نحوٍ أفضل ماذا حاول شيكارو أن يقوله لي عندما كان يُلِحُّ على أنَّ ذاك الذي نعتبرُهُ عدوّاً إنما هو هدية ثمينة. إنه يُشْرِعُ أمامنا أبوابَ ما يجب أن نعالجه داخلنا لنكون سعداء، ولنتمكن من تجاوز حواجز معتقداتنا.

- أترين، الغفران لم يعد سلوكاً كريماً من قِبلنا، نغفر به للآخر ما قد يكون اقترفه من سوء في حقِّنا، بل هو فهم أن السوء لم يقع، لأنَّ الألم لا يأتي منه، إنما يأتي منّا نحن. يبدأ الأمر بحُكْمٍ وينتهي بشُكرٍ.

- أجل، أنتِ محقّةٌ: يرتكز الغفرانُ التقليديُّ على كون السوء موجود وعلى كوني أتمتعُ بالكرمِ لأغفر لك. إن مفتاح السعادة مرتكز على حقيقة أن الخطأ غير ممكن، وأنه مجرد رؤية مشوَّهة من ذهني الذي بحث عن مذنب خارج عني، أهذا صحيح؟

- أعتقد ذلك، فعلاً!

- اسمحي لي أن ألخِّصَ ما فهمتُهُ. أولاً، لا أريد أن أعاني بعد الآن. هل أتت مشكلتي حقّاً ممّا صدر عن ماتيو وروما‌ن؟ إنَّ حصول هذا الوعي يسمحُ بإعادة وضع الموضوع تحت ضوء مسؤوليتي. لم أعد ضحيةً، بل أصبحتُ فاعلاً في سعادتي. ثانياً، الهجوم الذي شعرتُ به هو الهجوم الذي قمتُ به أنا ضد نفسي! إذا ما غادرتُ مملكةَ الحُبِّ، فإنني أُلحِق الألم بنفسي. إن الغضب الذي أغذِّيه هو خياري الشخصي. أعترف أني كنتُ مشلولةً بماضيَّ وبعلاقاتي العاطفية، وكنتُ أخشى هذه الخيانة. ثالثاً، أقدِّرُ الهدية التي تُقدَّمُ لي. يمكنني أن أُدركَ البابين اللذين ينفتحان أمامي. التخلي عن أناياَ لأعيش السعادة التي أبحث عنها. رابعاً، أقترب من الفرح الذي يسكنني وأشارك الحبَّ غير المشروط. نحن لا نستطيع أن ننفصل. لا يوجد شيء أستطيع أن أقوم به لأُقصيَ نفسي من الوحدة. أن نغفر لأنفسنا يعني أن نُدركَ أننا لم نخرج أبداً من تلك الذبذبة العظيمة، لأنَّ الأمر مستحيل، ومن ثمَّ لا يعود من وجود لشيء يمكن أن نغفره بما أن وحده الحبّ يوجد. وإذاً، فالسوء لم يحدث».

كان كلُّ شيء واضحاً، فتبادلنا نظرةً متأثِّرة.

كان معبد الستوبا قد ارتدى غطاءه البرتقالي تحت تأثير أشعة الشمس. أسلمتُ جسدي، وقلبي، وروحي لعظمة اللحظة. غمرتني فرحةٌ عارمةٌ. شعرتُ أني حرةٌ، وسعيدةٌ، وحيّةٌ! أغمضتُ عينيَّ وتنفستُ الحياةَ ملء رئتيَّ. ارتسمَتِ ابتسامةٌ على شفتيَّ، وهمستُ: هذا هو إذاً، الكيلومتر صفر، اللحظة حيث يبدأ كلُّ شيء وينتهي كلُّ شيء في الكمال!

الإقلاع

«لطالما كان الأمر هكذا بالنسبة إلى الحب، لا يعرف عمقَهُ الحقيقيَّ إلا في لحظة الانفصال».

جبران خليل جبران

مضى الليل لطيفاً. كنتُ على وشك الانتهاء من تناول فطوري على شرفة الفندق وأنا أنصتُ إلى غليان الحياة على بعد بضعة أمتار مني. كنتُ هادئةً، وجسدي في انسجام تام مع اللحظة. كنتُ قد وقعتُ ضحيةً بلهاءَ للخيانة، لكنني لم أكن أشعر بأيِّ مرارة ولا بأيِّ غضب. لم يعد من وجود للخوف، أو للفراغ. كنتُ أملأ نفسي بشيء آخر أكثر جلباً للاطمئنان: كنتُ أشعرُ بنفسي محبوبة، أشعر كأني أولدُ من جديد أو أولد فحسب. وكنتُ أسمعُ الحياةَ من حولي وفي داخلي. كانت نوتات تصعد من المعابد المجاورة الممتدّة في السماء. كانت جميعُ يقينياتي قد تبخرت في عشرة أيام، لكنني كنتُ أشعر بثقة راسخة. كنتُ قد محوتُ جميع أبنيتي الكرتونية لأُفسح المجالَ لأرضِ روحي العارية، لكن الخصبة. كنتُ قد وجدتُ بيتي على بعد سبعة آلاف كيلومتر من منزلي. كنتُ أستأنس أحاسيس جسدي وقلبي الذي لم أعد أريد أن أخونه. كانت أولويتي تتجهُ إلى

ذلك الكنز، تلك الذبذبة الفريدة التي تسمح، عندما ننصتُ إليها، بأن نعيش أجمل الرحلات؛ جولة في كل لحظة، ورحلة استطلاعية إلى ما بعد اللانهائي: ملحمة أوديسا في قلب الوحدة، تبدأ، وتجري، وتنتهي هنا والآن. لم يكن كل شيء قد حُلَّ، وكنتُ أعي بالعمل الثقيل اللازم، لكنني كنتُ فخورة بحظّي الصغير من الإنسانية. كنتُ أدركُ ما الذي تعنيه السعادة. كنتُ أفهمُ أنَّ كلَّ ما عشتُهُ في الفترة الأخيرة هو هبة عظيمة. لا تهمُّ الأسبابُ التي دفعت رومان وماتيو إلى التلاعب بي، فقد خرجتُ من ذلك كبيرة، وشعرتُ بالامتنان للهدية التي أهدياني إياها.

شعرتُ بنفسي سعيدة، ومليئة بطاقة جديدة.

كنتُ أنتظر شانتي. كان قد أصرَّ على مرافقتي إلى المطار، لكنني كنتُ أخشى لحظة الوداع. لقد أعطاني الكثيرَ وعلَّمني الكثير! زعزع مبادئي وقضى على يقينياتي بصبر مدهش ليعيدني إلى طريقي. ووعدتُ نفسي أن أحافظَ على ذلك الكنز. سأكون حريصة على ألَّا أضلَّ في طريقي.

عَبَر مرشدي باب الحديقة ببهجته المعهودة وهو يحييني بإشارة من يده. خرجت مايا في اللحظة نفسها، فضممتُها بين ذراعيَّ وشكرتُها على كل ما قدمته لي منذ وصولي. امتزجت دموعنا على خدودنا المتعانقة، وقبَّلتُها مرة أخيرة ووعدتُها أن أزوّدها بأخباري.

التقطَ شانتي أمتعتي، ودرنا حول الستوبا عن يمينه إلى أن خرجنا، وودَّعتُ ذلك العملاق بنظرة أخيرة.

وتتالت تحت أعيننا، في الطريق الرئيس، الأكشاكُ الطريفةُ المحشورةُ بين المساكن والمطاعم المتواضعة.

كان الصمتُ كافياً بيني وبين شانتي. لم تعد الكلمات تخرج، ولم تكفّ دموعي عن السيلان. ربَّتَ على يدي.

«أشعر بالرعب من فكرة الابتعاد عنكَ، قلتُ له بصوت يكاد لا يُسمع.

- مثلما كنتِ مرعوبة من السفر معي بضعة أيام!».

ابتسمتُ.

«بل أكثر بكثير!

- لم يعد في إمكانك أن تعيشي من دوني، يا ماييل، فعندما نحبُّ، فإن حبَّنا يدوم الحياة كلَّها. ستقتفي جميعُ خطواتِكِ خطواتي وتقتفي خطواتي خطواتكِ. تذكَّري، عندما تنفصل ذرّتان مترابطتان، فإنَّ الواحدة تقلِّد الأخرى تقليداً تامّاً في اللحظة نفسها وعلى بعد ملايين الكيلومترات. والباقي لا وجود له.

- أشتاق إليكَ منذ الآن!

- ها أنتِ ترين أنَّ المشكلة ليست سوى وهمٍ، بما أننا معاً. فتفكيرك في المستقبل يأخذكِ إلى الخوف، لكنني معكِ هنا وإلى الأبد. نحن لسنا وحيدين، بل مرافَقين. لا شيء يُهدِّدُنا، فنحن محبوبون حبّاً غير مشروط. يكفي أن يرتبط بعضُنا ببعض لنشعر به. ضعي ثقتكِ في هذه المصفوفة الكونية، استشعري السلامَ الذي بداخلكِ، واسمعي صدى العظمة التي أنتِ جزء منها. إنما توجد السعادة هنا.

- أعرف ذلك. لديَّ القوةُ والقدرة على اختيار ما أريد أن أعيشه والأفكار التي تسكنني. لكن هذا لا يمنع أني أشعر بالهشاشة، كأنني نُزِعَ عني الجبسُ حديثاً بعد كسر، أتفهم؟ يمكنني

أن أمشي وحدي، لكنني سأشعر بالاطمئنان أكثر إذا ما استعنتُ بعكازين!».

رافقني شانتي إلى قاعة الركوب، وضمَّني بين ذراعيه:

«كيف لي أن أشكركِ؟

- تشكرني؟ أنتَ تمزحُ، أنا من ينبغي لها أن تشكركَ، ولا أعتقد أنَّ كلمةً يمكن أن تكون في مستوى ما أشعر به. أنتَ غيَّرتَ حياتي كما لم يستطع أحد أن يفعل من قبل.

- أنتِ قدمتِ لي أجمل هدية، يا مايبل: هدية أن أستطيع أن أعلِّمكِ الحب. انقلي إلى غيرك، ما استطعت، ما أنتِ، عبر كل واحدة من أفكاركِ، وكل واحدة من حركاتكِ، وكل واحد من أفعالكِ. إنَّ إهداءَهُ هو أثمنُ هديّةٍ يمكنكِ أن تقدميها لنفسكِ، تماماً مثل أن تُنصتي إلى الحب الذي يُمنحُ لكِ».

لم أتمكَّن من أن أحبس دموعي. كانت كل كلمة من كلماته تصل إلى روحي، وشعرتُ لأول مرة أنني لا أشكِّلُ سوى واحد مع الآخر. نظرتُ إليه، كان قد فهم ذلك. «تعلمين أننا لا نفترقُ، فأنا أمسكُ بيدِك، وأنتِ تمسكين بيدي إلى الأبد». ضممتُهُ بقوة وأحسستُ بقلبه على قلبي، ذلك الحبّ الذي لم أجرِّبْهُ من قبل قطُّ، الحب الوحيد.

«إلى اللقاء قريباً جدّاً»، همس في أذني، قبل أن يبتعد وهو يحييني بإشارة من يده.

انطلاقة جديدة

مكتبة
t.me/soramnqraa

«عندما يريد المرءُ أن يتحرك أو يتكلّم، يجب عليه أولاً أن يفحص نفسَهُ، أن يجعلَها في حالة استقرار، ثم أن يتصرف كما ينبغي».

شانتيديفا

لم تكفَّ دموعي عن السيلان إلا بعد ساعة كاملة من الطيران. كنتُ أغادرُ ذلك البلد الذي أعطاني الكثير. هنالك لقاءاتٌ تطبعُ حياتَنا إلى الأبد.

عثرتُ داخل حقيبتي على ظرف صغير. كانت مايا قد دسَّتْ فيه بطاقة بريدية للستوبا وكتبت عليها بخطِّ يدها:

«مايل،

إذا ما عادت تصرفاتك الآلية، لا تستسلمي، عاملي أناكِ كصديق وابدئي من جديد، دائماً. أرجو لكِ أن تعيشي الحبَّ في كل لحظة، فاليوم هو هدية.

مايا».

*

كان هبوط الطائرة سريعاً!

شغَّلتُ هاتفي المحمول. كنتُ قد شحنتُهُ طوال الليل في غرفة الفندق، وحطمتُ رقما قياسيّاً: لم أشعر برغبة في تشغيله قبل وصولي إلى باريس، فصَبَّ الرسائلَ دفعة واحدة كأنه يتحرر منها. كانت المشاكل المستعجلة الذي يثيرها زميلٌ ذات يوم تنتهي بحلِّها من طرف زميلٍ آخر في اليوم الموالي، والقرارات التي ينبغي أن يُبَتَّ فيها في اليوم نفسه استطاعت أن تنتظر عودتي أو أن تجد إجابةً. ففي الأخير، كانت الأرض لا تزال مستمرةً في دورانها...

أنصتُّ إلى الرسائل الصوتية. كان أفراد العائلة قد تناوبوا في محاولات الاتصال بي، وكان الذعرُ يتصاعدُ كلما تتالت الاتصالات. ففي خضم عجلة السفر، لم أُخبر أحداً برحيلي. سارعتُ إلى الاتصال بأمي وأنا أقف في طابور «جوازات السفر الأوروبية»، فأجابتني، مذهولة:

«ما الذي أصابكِ يا ماييل؟

- أوه... اضطررتُ إلى السفر على عجل من أجل عملي...

- ألم يكن في إمكانك أن تُخصصي خمس دقائق لأمِّكِ؟ كنتُ قلقة جداً!

- وقعت لي مشكلة مع هاتفي المحمول، ولم أتصور أنك كنت ستقلقين إلى هذه الدرجة.

- سينتهي بك الأمرُ إلى أن تدفعي بي إلى حتفي، فأنت لا تفكرين إلا في نفسكِ وفي عملكِ. شقيقتُك أيضاً كانت قلقة عليك.

- أنصتي إليَّ يا أمي، أنا آسفة، صدقاً! سأتصل بمارغو الآن لأطمئنها. كلُّ شيء على ما يرام. أقبِّلُكِ.

- تمهَّلي! نودُّ أن تكوني معنا في عيد ميلادكِ. شارل متشوِّقٌ

لرؤيتك و. . . أرغبُ في الاعتناء بكِ. يمكنني أن أطبخ لكِ طبقَكِ المفضَّل ويمكننا أن نتمشى معاً كما كنا نفعل في السابق، ما رأيكِ؟».

كان شارل رفيق أمي الجديد. المسكين! كان متفهِّماً ولا تُسمَعُ كلمتُهُ إلا نادراً. لا أظنُّ أنه كان يتمنى مجيئي وإن كان لم يُبد امتعاضاً عندما كنا نستعمر البيتَ مع شقيقتي.

«هذا لطف منك يا ماما، لكن لا يزال أمامنا متسع من الوقت للحديث عن الأمر.

- كلَّا، حبيبتي! عيد ميلادكِ غداً! هيّا، نحن ننتظركِ في عطلة نهاية الأسبوع.

- سأعاود الاتصال بكِ».

كنتُ قد بلغتُ الخامسة والثلاثين! ابتسمتُ. لأول مرة، لم تستطع أمي أن تجعلني أشعر بالذنب.

عبرتُ الجمرك واتصلتُ بمارغو:

« سلام، شقيقتي الكبرى!

- أوه أنتِ، ليس لك مفرٌّ مني! لا بد أنه غاية في الوسامة!

- عمّن تتحدثين؟

- ليس معي أنا يا أُخَيَّتي! لقد ذهبتُ في الأسبوع الماضي إلى مكتبكِ، وأخبرتني الكاتبةُ أنكِ سافرتِ لبضعة أيام. وأنا أعلمُ جيِّداً أنه لا يمكن أن يشغلكِ عن عملكِ إلّا شابّ وسيم.

- الأمر أكثر تعقيداً من ذلك.

- ليس رجلاً؟

- كلا! بل هم رجال. . .

- آه، آه! يجب أن تحكي لي كلّ شيء، يبدو الأمرُ مشوِّقاً! طيّب، نلتقي في نيس، لقد أكدت لي ماما أنك ستنزلين إلى هناك في نهاية الأسبوع.

- كلا، في الحقيقة، لم أوكِّد لها شيئاً، أو بالأحرى قلتُ لها إنني لن آتي.

- أنصتي إليّ، لقد ألحَّتْ عليَّ مدةَ عشرة أيام. لم أعد أستطيع التحمُّل!

- أجل، أتخيَّلُ المشهد. أنا آسفة. لكنني سأظلُّ هنا. أحتاج إلى أن أرتاح قليلاً...

- أنتِ تعرفينها. ستشعر بالخيبة، لكنها ستجتاز ذلك! نلتقي قريباً، مفهوم؟ لا أطيق الانتظار كي تحكي لي!».

أخذتُ أمتعتي. كانت السماء رماديةً، لكن الجو جميلاً. ركبتُ سيارة الأجرة في اتجاه ساحة النجمة. كنتُ سعيدة.

قطعتْ رسالةٌ نصيةٌ من رومان حبلَ أفكاري. «**غداً عند أنجلينا من أجل فطورنا السنويِّ؟ في الحادية عشرة؟ لا أودُّ أن يفوتني تجعيدُكِ الجديد. أقبِّلُكِ... بحنان**».

يا للوقاحة! هل تظنُّ حقّاً أنني سأوافق على لقائها من جديد بعد كل ما فعلته بي! شعرتُ بغضبي الكامن، وراقبتُهُ يتصاعدُ. تيبَّسَ جسدي، وتشنّج فكّايَ. استعاد أنايَ السيطرة. فجرَّبتُ البابَ الآخرَ، باب الحبِّ: ألم أكن أرغبُ في أعماقي أن أفهمَ دوافعَها، وآلامَها، ومخاوفَها، عوض أن أنتقم بحذفها من حياتي؟ ألم أكن أريد أن أعرف روايتَها للوقائع عوض أن أكتفي بتأويلاتي؟ بلى، بالتأكيد. ارتخى جسدي وشعرتُ بتحرُّرٍ.

«**سأحضر إلى هناك، أقبِّلُ...**». توقفتُ عن الكتابة ومحوتُ

الحروفَ بعد الفاصلة. كلّا، لا أقبِّلُها! يكفي أن أتكرَّمَ بالذهاب إلى الموعد! تشنّج فكّاي من جديد، وغمغمتُ: «اصمُتْ، يا أناي العزيز!». ألم أكن سعيدةً بتلقّي رسالتها؟ ألم يُشعرني ذلك بالارتياح؟ ألم أكن أرغبُ في أن أظلَّ على صلةٍ بها؟ استأنفتُ كتابة رسالتي. «**سأحضر إلى هناك، أقبلكِ أنا كذلك**». وارتخى جسدي.

*

يا لسعادة العودة إلى حياتي المريحة، وحوض استحمامي، وسريري، ودفئ شقَّتي.

نمتُ نوماً عميقاً، واستيقظتُ في الغد بكامل لياقتي، وقد ازداد عمري عاماً. كنتُ قد أطفأتُ هاتفي المحمول، كيلا أتعرض للإزعاج. في الواقع، لقد استمرأتُ العيشَ من دونه! وخيراً فعلتُ. فمنذ السابعة وصلتني رسائل صوتية، ورسائل نصية، ورسائل إلكترونية الواحدة تلو الأخرى بمناسبة عيد ميلادي. كنتُ قد غرقتُ كلَّ هذه السنوات، لكنهم كانوا هنا، ينتظرونني. أثّرت فيّ كلّ هذه التعابير، وجعلتني أشعر بنفسي محبوبة. كان كلُّ شيء يتغيرُ، كنتُ أعي ما هي أولوياتي.

رفعتُ الستارةَ الكهربائيةَ بضغطة على الزِّر. كانت السماء زرقاء صافية، مبشرة بنهار استثنائي. كنا يوم جمعة، وكنتُ قد أرسلتُ رسالةً إلى بيير لأخبره أني سأعود إلى المكتب يوم الاثنين. حملَهُ حماسُهُ على أن يتمنى لي عيداً ميلاداً سعيداً وأن يهديني باقةَ ورد افتراضية. نهارٌ خاصٌّ بي سأعيشُهُ على مهل، لإعادة الاتصال بالناس الذين أحبُّهم، واستقبال حبِّهم، والتعبير لهم عن حبِّي. وماذا لو هديتُ نفسي حصة تدليك هذه الظهيرة؟

انغمستُ في حمام ساخن وخضتُ فيه فترة طويلة، ثم اخترتُ بعناية ملابسي التي كنتُ أرغبُ في ارتدائها في ذلك اليوم المميّز. سروال جينز، وقميصي المفضَّل، وسترة مريحة من الكشمير الأزرق. ارتديتُ معطفي، وأحطتُ حنجرتي بوشاح ونزلتُ مشياً عبر الشانزيليزيه.

تجولتُ في شوارع باريس. كانت الأوراق تتكدَّسُ وتشكِّلُ تلالاً صغيرةً تتحركُ وفق هوى الرياح. اتصلتُ بكلِّ واحد من الوجوه التي كنتُ ألتقيها. بعضهم مستعجلٌ، وآخرون قلقون، وآخرون كئيبون، وحزينون، ومشغولون... القليل منهم بدا سعيداً، باستثناء الشباب العاشقين. أرسلتُ إلى كل واحد منهم فكرةً إيجابيةً متمنِّيةً لهم أن يجدوا السلام. ركَّزتُ وأخذتُ أوزِّعُ طاقتي الجميلة من حولي. كنتُ أرغبُ في أن أشارك سعادتي، وكانت أشعة الشمس ترافقُ طريقي وتُضاعِفُ القوةَ الصادرةَ عن كل ذاتي. كان شانتي محقّاً، لم يتغير العالمُ، إنما تحوَّلت نظرتي إليه. لم أستطع أن أمتنع عن الإيمان بنظريات الفيزياء الكمّية التي تُبيِّنُ أنَّ الفكر يؤثِّرُ في النتيجة. تمنيتُ، وأنا أنفثُ أجمل طاقاتي على أولئك الغرباء، أن ألمسَ خليَّةً من خلاياهم وأن أجعلهم يشعرون بتحسُّن للحظة.

لم أكن بعيدة عن المكان حيث كنتُ سألتقي برومان. راقبتُ غضبي وهو يحاول أن يصعد إلى السطح من جديد. خطر ماتيو على بالي، فازداد ألمي شدة. سمحتُ لمشاعري أن تعبِّر عن نفسها. هل تعرّضتُ للخيانة؟ كنتُ قد وضعتُ ثقتي في أشخاص أحسنوا إليَّ. فتحوا لي أبوابَ كونٍ ما كان لي أن أطرقه بتلك السرعة لولاهم: كون مملكة قلبي، كون السعادة! وإذاً، أطرحُ عليك السؤالَ، يا عزيزي الغضب، يا كبريائي اللطيف: هل خُدِعْتُ؟

راقبتُ مساعديَّ يختفيان، ثم يحاولان العودةَ:

«لقد وعدَكِ بحياة من السعادة والجمال في حين أنه متزوِّج. لقد استخدمكِ واستغلَّكِ. أنتِ لستِ حقودة بتاتاً!

- هو لم يُجبرني على شيء. ولو كان لي أن أفعل ذلك من جديد، لفعلتُ!».

أمسكَ كبريائي بذراع غضبي وهمس له في أذنه:

«لا تحاول معها، فأنتَ ترى أنها لا تفهمنا!».

نظرتُ إليهما وهما يبتعدان، باسمة، وبعثتُ إليهما أيضاً أفكارَ سعادة وسلام! عبرتُ ساحة الكونكورد، وأنا أملأ ذاتي بجمال باريس. كان قلبي يلتهبُ لكلِّ تفصيل: مسلَّة الأُقصر وسطَ الساحة، المصابيح التي تصنع سحر العاصمة، أشجار الدلب في حدائق التويلري، ابتسامة طفل مررتُ به وأنا أعبر الأروقة.

دفعتُ بابَي المقهى الثقيلين المصنوعين من معدن مذهَّب، مخلِّفةً إلى يميني المتجرَ وحلوياته التي تتنافس في استدرار اللعاب المعروضة في الواجهة المبرّدة، واتجهتُ نحو القاعة الكبرى. كان المقهى قد حافظ على ديكوره العتيق الذي يعود إلى العصر الجميل[1] طوال تلك العقود المنصرمة: زخرفة زجاجية في السقف، ونتوءاتٌ ومرايا ذات إطارات مذهبة. وكانت أرائك من الجلد البنِّي الغامق تحيط بطاولات خشبية مستديرة متوّجة بصحون من الرخام مرتَّبة في عدة صفوف. وأنا أبحث عن رومان، حيَّتْني نادلةٌ مستعجلة بإشارة من رأسها، حاملة معها روائحَ المعجنات الدافئة والشوكولاتة

(1) La Belle Époque: تناسب عند الفرنسيين فترة تمتد من نهاية القرن التاسع عشر إلى بداية الحرب العالمية الأولى - المترجم.

الساخنة فوق طبقها، فيما كان رنينُ الأواني الفضية فوق الخزف الأبيض يوقِّعُ ضجيجَ المناقشات الدولية.

كانت رومان تنتظرني في وسط القاعة. تسارعت دقاتُ قلبي. نهضتْ بصعوبة، وكانت معاناتُها ملموسةً ووجهها الشاحب يؤكِّدُ هشاشتَها. حاولتْ أن تضمني بين ذراعيها، لكني امتنعتُ. فضلتُ أن أبادلها قبلتين سريعتين على الخدّين. جلستُ قبالتَها وألقيتُ الدفترَ البكرَ فوق الطاولة.

«هاكِ ما طلبتِهِ مني!».

أطرقت وهي تركّز عينيها عليه.

«وددتُ لو أني رافقتُكِ، لكن صحتي لم تسمح لي بذلك.

- لم أكن في حاجة إليكِ!».

أخذتْ نفَساً عميقاً.

«عندما علمتُ بإصابتي بالسرطان عند عودتي من كاتماندو، وليس هناك كما كنتُ قد أخبرتُكِ...».

رفعتُ عينيَّ نحو السماء. كذبةٌ أخرى زائدة أو ناقصة...

«فهمتُ أنَّ الرحلة التي قمتُ بها ستساعد في إنقاذي».

كانت رومان تجد صعوبة في الكلام، لكنني لم أسمح لنفسي أن أنجرَّ إلى الإشفاق.

«طيب، كل هذا لطيف، لكن لماذا حشرتني أنا في مشاكلكِ؟».

شعرتُ بغضبي يتصاعدُ. حاولتُ أن أهدئ نفسي قبل أن تنفجر. تنهَّدتْ رومان بعمق واستأنفت برقة:

«كلُّ التعاليم التي تعلَّمتُها هناك جعلتْني قويةً ومقاومةً أمام المرض.

- أنا سعيدة من أجلك!

- وأراكِ تُدمِّرين نفسكِ منذ شهور عديدة. . .».

سجلتْ نادلةٌ ببدلة رسمية طلبنا.

اعتدلتْ رومان فوق مقعدها وركَّزتْ عينيها في عينيَّ وشرحتْ بثقة: «أنتِ تُدمِّرين نفسَكِ مثلما فعلتُ أنا مدة سنين، لذلك اختلقتُ هذه الحكاية لتتمكني أنتِ أيضاً من أن تعيشي هذه التعاليم وتستيقظي قبل أن تضطرِّي إلى أن تعاني ما أعيشُه أنا. كنتُ أعلمُ أنك ما كنتِ لتذهبي إلى هناك أبداً لولا أن تكوني مجبرَةً».

لم أحر جواباً. عادت النادلةُ سريعاً حاملة قسماً من الطلب. واصلت رومان وهي تمسك بيدي: «كنت أريد أن أهديكِ، بمناسبة عيد ميلادكِ، حريةَ الاختيار بكامل وعيكِ».

شعرتُ بصدقها، لكن غضبي من صاحبي جعل الشكَّ يساورني. حركتُ كيسَ الشاي الصغير بعصبية، أرجُّهُ ذهاباً وإياباً. استقرَّ صمتٌ قبل أن أسأل، وعيناي مركَّزتان على فنجاني:

«وماتيو؟

- آه، ماتيو!».

رفعتُ رأسي. شربتْ رومان جرعةَ عصير فواكه.

«التقيتُ به في الولايات المتحدة. لقد عملنا معاً على أبحاث مشتركة لسنوات عديدة. وكما رأيت، هو مغرَمٌ بالنيبال. أخبرني الشهر الماضي أنه ذاهبٌ إلى هناك لمساعدة جيسون في كاتماندو، وراودتني الفكرةُ في تلك اللحظة. كنتُ أريد أن يسهر عليك! كنتُ أعلمُ أنه الشخص المناسب.

- آه هذا صحيح، لقد سهر عليَّ بالفعل، يمكنك أن تطمئني! بل إنه بالغَ في ذلك. هل طلبتِ منه أن يعاشرني أيضاً؟».

أفلتتْ مني الكلماتُ. كان أنايَ قد استعاد السيطرة فجأةً، فندمتُ فوراً على تلك الكلمات.

«لا تكوني بذيئة. لم أطلب منه شيئاً سوى أن يحميكِ. قاومَ قدر ما استطاع المقاومة، لكنه وقع في الحب».

أعلنَتْ نادلتُنا عن عودتها بضربات من كعبيها التي حاول البساط السميك أن يكتمها. وضعتْ أمامنا صحنَين من البيض المخفوق الساخن والخبز المحمَّص الملفوف في منديل أبيض.

«وقع في الحب؟ هذا ما كنتُ أعتقدهُ أنا أيضاً. لكن الرسالة النصية الأخيرة التي صادفتُها كانت من المرأة التي يحبُّها. وهذه المرأة ليست أنا! كانت تنتظر رجوعَهُ بحماس جارف!

- كيف ذلك؟

- آه! لقد أدهشك الأمر، أليس كذلك؟

- عمَّن تتحدثين؟

- عن زوجته أو صاحبته، لستُ أدري، تلك التي يعيش معها، واحدة... اسمها لورا!».

انفجرت رومان ضاحكة.

«لا أرى ما يُضحِكُ في الأمر!

- يا له من التباس!

- آه، أهذا يُسلِّيكِ؟ صراحةً، أنا لا يسليني مطلقاً!

- لكن... لورا هي شقيقته! إنهما مقرّبان جداً. لقد عاد من الولايات المتحدة ليعتنيَ بها، فقد وقع لها حادثُ سيارة خطير منذ ثلاث سنوات. هي أحسن حالٍ الآن، لكن الأمر كان صعباً بالنسبة إليهما. ألم يُحدِّثكِ عن ذلك؟

- كلَّا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- في الحقيقة، يبدو أنَّكِ لم تتركي له متَّسَعاً من الوقت!
- ما علمُكِ بالأمر؟
- التحقتُ بماتيو في مطار رواسي عند توقف رحلته بباريس».

انحنَتْ رومان نحو حقيبتها اليدوية وأخرجت منها مظروفاً. «لقد سلَّمني هذا من أجلكِ». قدَّمتْ لي الرسالةَ. هممتُ باستلامها، لكنها تشبَّثَتْ بها: «عديني أنكِ لن تُمزِّقيها قبل أن تقرئيها». توسَّلتُ إليها وأسرعتُ في فتحها. كان قلبي ينتفض داخل صدري، وكانت الإثارةُ تجعلني شديدة الانفعال إلى درجة أنَّ يديَّ بدأتا ترتعشان. وغامَ بصري كلما تقدَّمتُ في القراءة.

«ماييل،

وددتُ لو أنني كلَّمتُكِ قبل عودتنا إلى أوروبا، لكنني لم أُفلِحْ في فعل ذلك. هنالك أمورٌ كثيرة جدّاً لم أقلْها لكِ، أمورٌ كثيرةٌ ينبغي لكِ أن تعرفيها عني، أمورٌ كثيرةٌ أودُّ أن أعرفها عنكِ، أمورٌ كثيرة أودُّ أن أشاركِ إياها. سأنتظركِ مساء الجمعة في ميلانو. التحقي بي في نهاية الأسبوع، امنحيني فرصةً لأشرح لكِ ما لم أجد الوقتَ لأن أقوله لكِ، امنحينا فرصةً لأن نعيش ما ينبغي لنا أن نعيشه تحت سحر أشعة ذلك النجم نفسه الذي أنارَ أوَّلَ لقاء لنا.

إن أول أمر لم أجرؤ على أن أبوح لكِ به هو أنني أحبُّكِ حبّاً ليست غايتُهُ إرضاء أنايَ المتوحد، بل حبٌّ صادقٌ أودُّ أن أراهُ يكبرُ إلى جانبكِ. أشتاق إليك كثيراً.

ماتيو».

كانت بطاقة سفر إلكترونية مرفقة برسالته. الانطلاق من باريس أورلي على الساعة السادسة وعشرين دقيقة مساءً - الوصول إلى ميلانو ليناتي على الساعة السابعة وخمسين دقيقة.

رفعتُ رأسي، وانهمرت الدموعُ على خديَّ. نظرتُ إلى رومان التي دلَّ احمرارُ عينيها على انفعال مماثل. أدركتُ الحبَّ الذي تعبِّرُ لي عنه على الرغم من المعركة العنيفة التي كانت تعانيها منذ شهور عديدة. كانت هناك أمامي، وقورةً، وقويّةً. كانت قد جاءت لتقدِّمَ لي أجملَ هديّةِ عيد ميلاد. كانت تريد أن تُنقذني قبل أن أغرق. كانت تهبني حبَّها كما لم يفعل معي أحدٌ من قبل. شعرتُ بالذنب بسبب كلِّ ما تخيَّلتُهُ عنها في الساعات الأخيرة.

كانت دموعٌ ساخنة تسيل من عيوننا الغائمة دون أن ننبس بكلمة واحدة. وكانت حنجرتي منقبضةً، وقلبي ملتهباً، فلم أستطع أن أحبس تلك الموجةَ من العواطف التي غمرتني.

أمسكتْ رومان بيدي. «أنا أحبُّكِ، يا صديقتي، لا تشكِّي في ذلك. وماتيو رجلٌ رائعٌ، مثلك تماماً. التحقي به. لا تدعي الخوفَ يسجُنُكِ، حان الوقتُ لتصبحي حرّةً، حان الوقتُ لتعيشي!».

خاتمة

«حان الوقتُ لأن تشرعَ في عيش الحياة
التي حلمتَ بها».

هنري جيمس

لم أحتج إلا إلى وقت قصير ألتهمُ فيه بعض الحلويات وأصعد إلى مرحاض قاعة الشاي لأتمنى أمنيتي كما أفعل كلَّ عام عند ساعة ولادتي، وأذهب لآخذ بعض أمتعتي من البيت برفقة رومان، التي قامت بدور السائقة، وطرتُ بضع ساعات بعد ذلك إلى ميلانو.

فتحتُ الكتابَ الأصفرَ الذي كنتُ قد ذهبتُ للبحث عنه فوق سطح العالم والذي أعادتْهُ إليَّ صديقتي في المطار، وهي تؤكد لي أنه سيساعدني في اللحظات العسيرة من حياتي. تعرفتُ على كتابتها في الصفحة الأولى:

«مابيل، صديقتي الحنون، أتمنى بكلِّ صدق أن تجدي القوَّةَ لكتابة ما فهمتِهِ لتعطي الخيارَ لكلِّ واحد أن يعيش في هذا الوعي نفسه. أحبكِ عميقاً.

صديقتك إلى الأبد. رومان».

سالتْ دمعةٌ على طول خدّي وسقطت إلى جانب اسمها.

أخرجتُ قلماً من حقيبة يدي، وقلبتُ الصفحةَ الأولى وكتبتُ كأنما الأمر بديهيٌّ:

«ناديتُ على سيارة أجرة وعبرتُ باريس إلى غاية البانثيون. لم أقصد ذلك الحيَّ منذ خمسة أعوام، عند آخر عمل لي في المدرسة العليا للأساتذة. كنَّا، بسبب قلة إمكانياتنا، اخترنا أن نمارس التأثير المباشر في أفضل مؤسسات المهندسين، آملين أن نستقطبَ بذلك عدداً من الموهوبين للعمل في المصنع الذي أنشأناهُ: مشروع عباقرة حيث كنتُ أقضي كلَّ ساعات صحوتي، منذ ثماني سنوات، في انتظار حدوث المعجزة...».

وعلى سبيل الختام...

كنتُ أرغب في أن أشارككم حلماً.

أحبُّ أن أعتقد أننا، ذات يوم، سنعرف كيف نمشي جنباً إلى جنب. قلتُ لنفسي إذا ما مدَّ كلُّ واحد يدَهُ إلى شخص آخر، حينئذٍ سنستطيعُ أن نصنع معاً من هذا العالم عالماً أفضل، حيث يطيبُ العيشُ في تناغم لطيف.

أنا في حاجة إليكم ليصبح هذا الحلمُ واقعَنا. إن كنتم تعتقدون، مثلي، أنَّ السعادة خيارٌ، فمن مسؤوليتنا أن نساعد مَنْ نحبُّهم على تحقيق ذواتهم! خذوا بيد أحدهم وعلِّموهُ الحبَّ، كونوا «شانتي» الخاص به، ساعدوه على أن يعثر على طريقه واطلبوا منه أن يأخذ بيد شخص آخر دون أن تتخلّوا عن يده أبداً.

وسرعان ما ستشتبكُ أيدينا حول الأرض لنصنع من هذا الكوكب العملَ الفني الذي سنكون نحن الذين أنجزناهُ.

لا تحاولوا إقناع الآخرين، بل قدِّموا لهم المثالَ، وكونوا لهم مصدر إلهام، إنما يقود نورُكم خطواتِهِمْ بفضل إشعاعه...

مع كلِّ محبَّتي.

مود

بيد مَنْ ستأخذُ اليوم؟

أهدي هذه الرواية إلى جميع الأشخاص الذين جعلوا مني الشخصَ الذي أنا عليه (إلى أفراد أسرتي، وإلى أصدقائي، وإلى أولئك الذين كنتُ أظنُّهم أعدائي غير أنهم أرشدوني إلى مناطق ظِلّي. . .)، لأشكرهم على الهدايا التي أهدوني إياها خلال كل هذه السنوات.

لنخلقْ، معاً، ومنذ الآن، الحياةَ التي نحلم بها.

إذا وجد هذا الكتابُ صدى داخلكم، اهدوهُ إلى الأشخاص الغالين عليكم، كشهادة على حبّكم.

شكر

شكراً

منذ زمن طويل، كانت بداخلي رغبة في تأليف كتاب، لكن لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن كيفية القيام بذلك. فبدأتُ بكتابة بضع جمل، ثم صفحة، ثم اثنتين، ثم ثلاث... فعشر... فمائة، إلى أن أتممتُ النسخةَ الموزَّعةَ ذاتياً التي كنتُ أرغبُ في إهدائها إلى جميع الأشخاص الذين جعلوا مني الشخصَ الذي أنا عليه (إلى أفراد أسرتي، وإلى أصدقائي، وإلى أولئك الذين كنتُ أظنُّهم أعدائي غير أنهم أرشدوني إلى مناطق ظِلِّي...)، لأشكرهم على الهدايا التي أهدوني إياها خلال كل هذه السنوات.

غير أنَّ هؤلاء الأصدقاء رغبوا في مشاركته بدورهم فصارت هديتي مغامرةً إنسانيةً تجاوزتني...

إذاً إليكِ أنتِ، كلير شامبونوا، التي عرفتِ كيف تدفعينني وتشجعينني بعطف.

إليكم أنتم، قرّائي الأوائل وأصدقائي الأعزاء: إيزابيل باتيستي، موريال بلان، سارة دوني، كاتيل فلوش، لين كيروز، فانيسا مارتينيز، كورين موستافيادس، بريجيت أوري، فريديريك بينان، تييري بولاك، فيليب ويهماير، أنتم الذين ساعدتموني كثيراً بنقدكم البنّاء، والمحفِّز، ومشاركاتكم التي امتدت إلى اللوجستية والتوزيع.

إليكَ أنتَ، كريستوف شاربونيل، صديق طفولتي الذي أحبه مثل أخ شقيق (وأنتَ تعلم أني أزنُ كلامي)، وكنتَ حاضراً في جميع اللحظات المهمة من حياتي. وها أنتَ تؤكِّدُ لي ذلك مرة أخرى، بدعمكَ لهذا المشروع: من الإنجاز إلى إنتاج موقعي على الإنترنت (www.maud-ankaoua.com).

إليكم أصدقائي، أسرتي العزيزة وأسرة زوجتي، الذين تغمرون قلبي بنوركم اللطيف.

إليكم أنتم، أبناء إخوتي وأبناء أخواتي، وأبنائي بالمعمودية، وأبناء أعمامي وأبناء أخوالي الصغار (سلستان، كلويه، فلافي، لادسلاس، ليلي، أوسكار، فالنتان، وفكتوار)، أنتم الذين ترشدوني دائماً إلى طريق العفوية.

وأخيراً إليكما أنتما دعامتا حياتي، وحارسايَ الشخصيان اللذان تحققان التوازنَ في حياتي اليومية:

أنتَ، ستيفان أنكاوا، شقيقي، وحافظ سرِّي، الذي تأخذ بيدي منذ ولادتي. أراقبكَ وأنتَ تقود خطايَ بكل هذا الحب. لطالما عرفتَ كيف تجد الكلمات المناسبة لتبقيني واقفةً في اللحظات العصيبة وتستمتع بسعادتي بمزجها بسعادتكَ.

وأنتِ، دلفين غيومان، التي آمنتِ بي أكثر من الجميع، ومنحتني القوة الضروريةَ بنظراتِكِ، وكلماتِكِ، وحركاتِكِ اليومية، ونصائحكِ، ليتحقق هذا الحلم.

ثم إنَّ نسخةً من هذه الرواية المنشورة ذاتياً وقعت في يد امرأة قادت **كيلومتر صفر** إلى حضن دار النشر إيرول، التي غامرت بأن تمنحها فرصة أن تُنشر وتوزَّعَ على صعيد واسع. شكراً إذا مارغوريت كاردوسو، شكراً من أعماق قلبي على جرأتكِ، وشجاعتك، شكراً

على ثقتكِ التي سندتني كلما عبرتُ عتبةَ مكتبكِ، شكراً على أنك رافقتِني خطوةً خطوةً بكل تواضع، وفتحتِ أمامي مملكَتَكِ إذ قدَّمتِ لي فريقاً استثنائيّاً وجدتُ متعةً هائلةً في العمل معهم: راشيل كراباي، جيرالدين كوجيه، ماريون ألفانو، فرانسوا لاميدون، كلودين دارتيج، أوريليا روبان، ناتالي غراتادور وكل فريق المبيعات (الذي أستعدُّ للقائه بكل تأثر).

أوجه جزيل الشكر أيضاً إلى ماري بيك-باري ألافينا، المديرة العامة لمجموعة إيرول التي لولاها لما خرج هذا المشروع إلى الوجود.

شكراً، إليكم جميعاً!

شكراً من أعماق القلب على مساعدتكم ومساندتكم في هذه المغامرة الرائعة.

شكراً للسَّير إلى جانبي...

شكراً لأنكم مَنْ أنتم.

شكراً لأنكم انتظرتموني... أنتم ثروتي الكبرى.

وأنا أكتب هذه السطور الأخيرة لأرى أخيراً تحققَ هذه النسخة الجديدة، يبلغ انفعالي العاطفيُّ أقصاه.

إليكم جميعاً، قرائي الأعزاء، الذين لا أعرفكم بعد: أشعر بالحماس منذ الآن للقائكم والحديث إليكم. شكراً لأنكم سايرتموني إلى غاية هذه السطور الأخيرة.

إلى اللقاء قريباً...

مود

مكتبة
t.me/soramnqraa

مود أنكاوا

كيلومتر صفر

«لا تكمن السعادةُ في الكيلومتر النهائيِّ الذي لن يوجد أبداً، بل في الكيلومتر صفر، الذي يبدأ في كلِّ لحظة».

❖❖❖

تعيش مايبل حياةً محمومَةً وقلقةً في باريس، لا تترك لها أي وقت للراحة. لكن، عندما طلبت منها صديقتُها المقرَّبة رومان أن تُسديَ إليها خِدمةً مصيريةً، قبلتْ، مُكرَهةً، أن تسافر إلى النيبال، حيث ستعيشُ، وهي ترتقي جبالَ الأنابورنا الشامخة، مغامراتٍ مثيرةً ولقاءاتٍ رائعةً ستُعلِّمُها أسرارَ السعادة العميقة، وتسمح لها أن تُغيِّر حياتَها.

نرافقُها نحنُ في رحلتها الكاشفة هذه، ونتعلَّم بدورنا، خطوةً تلو أخرى، كيف نتحرّر من مخاوفنا، وعوائقنا، ومعتقداتنا الآلية، لنُنصتَ إلى نبضنا الداخليِّ، وننفتحَ على العالم، ونُغيِّرَ علاقتَنا بالناس من حولنا.

لنفتح إذاً هذا الكتاب، ولنقف في الكيلومتر صفر، وندع دروس الحياة التي تقدّمها لنا الكاتبةُ على مدار هذه الرواية تُرشدنا وتُلهمنا، «ليلعب كلٌّ منا دوره على أفضل وجه ويؤدّي السمفونية الرائعة التي هي حياته!».





المركز الثقافي العربي
الدار البيضاء: ص. ب. 4006 (سيدنا)
markaz.casablanca@gmail.com